حمزة سليماني

الدرع الواقي

رواية

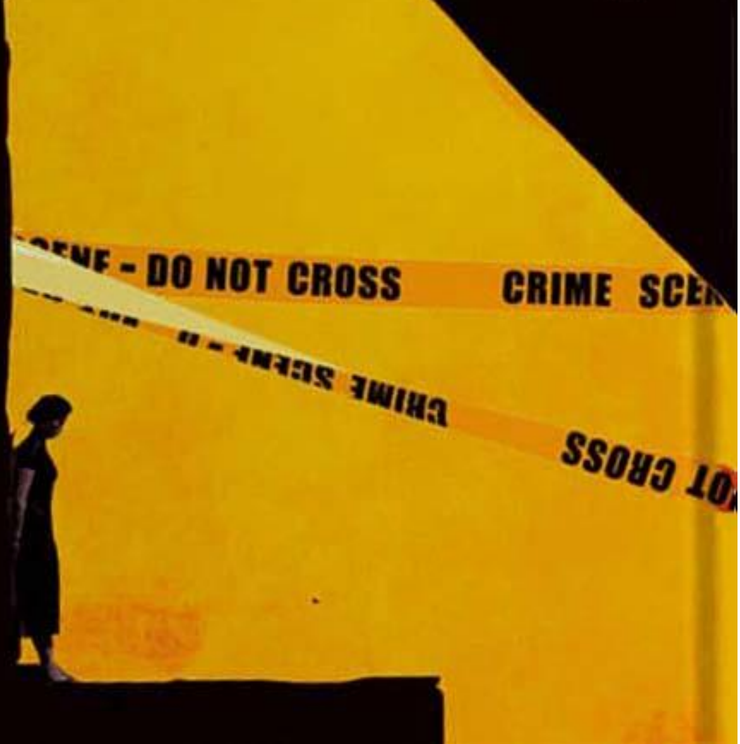

الدرع الواقي

رواية

حمزة سليماني

الدرع الواقي

حمزة سليماني

الجنس: رواية

سنة الإصدار: 2020 م.

الترقيم الدوّلي: 978-9931-11-019-4

الإخراج الفني: بعطوش عبد القادر.

يوتوبيا للنشر والتوزيع.

شارع عبد الجبار بن علي- عين الحديد -

تيارت- الجزائر.

الإشاراف العام: بعطوش عبد القادر

المدير العام: دحمان فتيحة.

الهاتف: 046300433 – 0657142322

البريد الإلكتروني:

Youtubia@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة لدار يوتوبيا للنشر والتوزيع.

يوتوبيا للنشر والتوزيع

إهداء

إلى من علماني أن أنطق أول حرف: "أمي وأبي"

إلى من علمني أن أكتب أول حرف: أستاذي العزيز "عبد الكريم فرطاس"

إلى كل أساتذتي الذين لهم فضل في تأديبي وتعليمي

إلى أول من قرأ هذه الرواية، وكانت كلماته عنها أرقى من كلماتها: الأستاذ "حميد يحوية".

إلى من بذلت جهدا في إخراج هذا العمل دون أخطاء لغوية: الدكتورة "أمينة سعدوي"

إلى كل من يقرأ بحف الضاد

أهدي هذا العمل.

قيل عن الرواية...

أهنّئك بدايةً على هذا العمل الّذي ينمّ عن موهبة إبداعية لا يتمتّع بها إلّا من له قدرة على الابداع وسعة الخيال.

والعمل ككل قد توفّرت فيه عناصر العمل الروائي، خصوصاً عنصر التشويق الذي يجذب القارئ إلى متابعة القراءة، وهو يرقى إلى ان يبثّ كفيلم سينمائي. والأرجح أنك متأثر بالروايات البوليسية.

الدكتورة: أمينة سعدودي

استمر إصرار السيدة جازية على جلب ابن خالتها هشام للبيت حتى أضجر ذلك زوجها رضا بوشو، ولعل ما دفعها إلى ذلك، هو كونها لا تزال تحس نفسها غريبة رغم مرور سنتين على زواجهما، وحين انتهت من شرحها كيف سيكون مفيدا استقباله في بيتها، وضع السيد فنجان القهوة على الطاولة، واستدار ليحمل بعض الأوراق: "أظننا تحدثنا عن الموضوع أكثر من مرة عزيزتي، ولست أدري إن كان من المجدي العودة إلى الحديث عنه مرة أخرى، فذلك الشاب لا يعرف معنى للمسؤولية، ولا يعطي للحياة الاجتماعية أي احترام. كما أنني عينته بناء على طلبك في الكثير من الوظائف ولكن بلا فائدة، فهو دائم الشجار والاستهتار".

آه عزيزي...هذا لأنك كنت تضعه في الأعمال التي لا يحبها.

وندت عن رضا بوشو ضحكة مقتضبة، وقال دون أن يرفع رأسه عن أوراقه: وما الوظيفة التي يحبها؟ أخبريني، مدير شركة مثلا!

وبدت حمرة غضب على وجهها المفعم بالحياة، وقالت وهي تحاول أن تلفت انتباهه بحركات عصبية: ها قد عدت تسخر مني من جديد، ولكن ليكن في علمك أنه إن لم يأت هشام ليعيش معنا، فلن أبقى في هذا البيت ليلة واحدة بعد اليوم.

وحاول الرجل العجوز أن يهدئ زوجته الغاضبة فقال مستسلما: حسنا، لا بأس أن يمضي معنا بعض الوقت، فإن ظهر منه ما يسيء عاد من حيث أتى.

وتغيّر بسرعة مزاج الزوجة الشابة، فاقتربت من زوجها واضعة يدها على كتفيه، ثم قالت وهي تحركهما بلطف: شكرا جزيلا أيها الغالي، أعدك بأن يكون سلوكه كما تحب.

وفجأة سحبت يديها وخطت مسرعة نحو الهاتف قائلة: سأتصل به لأخبره على الفور.

وبدا على السيد الضجر فرفع يده معترضا. ألا يمكن أن تؤجلي الأمر بعض الوقت عزيزتي، لم كل هذه العجلة؟

نظرت إليه وهي تحمل سماعة الهاتف للحظة قبل أن تقول: ربما أنت على حق، فالوقت لا يزال مبكرا، قد يكون الآن يغط في نوم عميق.

وضع بوشو أوراقه وعاد ليأخذ من فنجان القهوة رشفة صغيرة، ثم قال: وهل يعرف شيئا آخر غير النوم؟!

ثم استدرك بعد أن بادلته بنظرة عتاب: كنت أمزح فقط، فإن كنت لا تزالين تشعرين بأنك غريبة في هذا البيت، وأن قدوم ذلك الفتى سيشعرك بالراحة، فلن اعترض على بقائه معنا.

جلست بجواره وقالت محاولة أن تعبث بعواطفه من جديد: يا إلهي، لماذا تأخذك الأوهام بعيدا؟ فأنت بالنسبة لي الشجرة التي لا أستطيع العيش بعيدا عن ظلها، ولكن ليس من المعقول أن أذكّرك ما يمثله ابن خالتي بالنسبة إلي، أم أنك نسيت أننا أمضينا سنوات الطفولة البائسة معا في بيت أمي!

أعلم، ولا داعي لتتذكري تلك الأيام الصعبة الآن.

أحيانا أود الحديث عن الأمر حتى لا أنسى، ولكن ليس هذا فقط سبب إصراري على قدومه إلى هنا.

وأضافت مبدية ملامح الحزن: وحتى أكون صريحة معك أكثر، فقد بدأت أقلق عليه كثيرا هذه الأيام.

ولكنه يعيش مع أمك، أليست هي التي ربتكما معا منذ كنتما صغيرين؟

أجل، ولكن كما قلت، كنا صغيرين، أما الآن فما عدنا كذلك، كما لم تعد أمي المسكينة تستطيع أن تتحكم في جميع تصرفاته، فقد حدثتني مؤخرا

أنه صار صديقا لبعض رفقاء السوء، وأنهم يصطحبونه معهم لبعض الأماكن المشبوهة.

رد بوشو في عبارة لا تخلو من اللوم: لا بد أنهم اشتموا رائحة الأموال التي كنت تغدقين بها عليه.

حاولت جازية أن تجادله في الأمر، ولكنها فكرت في أنه قد يكون محقا: "لست أدري، ولكن مهما كان السبب فلابد من إنقاذه قبل فوات الأوان".

وهل تعتقدين أنه إن أقام معنا سيكون بمنأى عن الحياة التي بدأ يألفها، فإن كان قد اعتاد حياة المجون فمن الصعب أن يتخلص منها.

سيجد هنا ما يشغله، وسنتعاون معا لإبعاده عن هؤلاء الصعاليك.

كان هذا الكلام أكثر إقناعا لبوشو من السخافات التي كانت تتعلل بها من قبل، فأبدى تعاطفه، ووعدها بأنه سيعمل على الاهتمام به، ثم جمع أوراقه ووضعها بمحفظة سوداء، واستدار ليلحظ نظرات الزوجة نحوه، وقبل أن يغادر ابتسم لها و سألها برقّة: هل تريدين أن احضر شيء عند عودتي؟

فكرت قليلا ثم قالت: لا شيء.

وحين خطا مبتعدا أضافت: إذا جاء ابن خالتي، فسأرسله ليشتري ما يلزمنا لإعداد عشاء على شرفه.

كما تشائين.

غادر المنزل وهو يتمنى ألاّ تذكر له موضوع ابن خالتها من جديد، وحين حل المساء توقع أن يجده في المنزل، ولكن زوجته أخبرته أنه سيأتي في الغد. تناولا العشاء بمفردهما، وحين صعدا لغرفة النوم فاجأته مرة أخرى بقولها: سمعت بأنك ستشتري منزلا بضواحي درارية.

حدجها بنظرة غير مصدقة وقال: بالله عليك من أخبرك بذلك؟

ابتسمت وهي ترتب غطاء السرير: وعدت من أخبرني بألا أشي به.

وهتف دون تردد: لا بد أن يكون علي سعدي، فذلك الرجل لا يكتم سرا أبدا.

إذن فما قاله صحيح، لماذا لم تخبرني بالأمر؟

لم أكن واثقا من عقد الشراء، لذلك فضلت أن انتظر بعض الوقت.

قالت وهي تستلقي بالقرب منه: وما حاجتنا لبيت جديد، فهذا البيت فسيح، وبه كل ما نحتاجه؟

كما قلت عزيزتي، لم أكن متأكدا من شرائه، فكل ما في الأمر أن صديقا لي عرضه علي فأعجبني المكان، كما أغراني السعر، ففكرت في أننا قد نحتاجه في المستقبل، أو ربما أبيعه لأجني بعض الأرباح.

شعرت جازية أن زوجها يخفي أمرا ما لم تتبينه، إذ لم يكن على طبيعته في الأيام الأخيرة، كان يبدو متوترا دائم الشرود، وحاولت من جهتها أن تعرف أكثر من مرة السبب، ولكنه في كل مرة كان يغير موضوع الحديث، وفي تلك الأمسية تفاقمت في رأسها الهواجس، وفكرت في أنه يريد الرحيل حقا من ذلك المكان، وأن شراء البيت لم يكن إلا لذلك الغرض، وصمتت متفكرة في الأسباب التي قد تعكر مزاجه، ولكن لم تهتد لسبب واضح، ثم سمعته يقول: ما بك عزيزتي؟ أراك صامتة.

حاولت أن تخفي شكوكها، ولكنها لم تستطع أن تستمر أكثر في ذلك: "كنت أفكر في أن قدوم ابن خالتي ربما يكون قد أزعجك".

لا تهتمي بذلك، فالبيت فسيح ولن يكون عبئا على أحد.

إذن لماذا تبدو على غير طبيعتك؟

أنت تتوهمين فقط، دعينا الآن ننام، فعلي الاستيقاظ باكرا في الغد إن شاء الله. تصبحين على خير

واستدار برأسه بعيدا عنها محاولا النوم.

أحست بالانزعاج، إلا أنها فضلت أن تتركه ليرتاح لعل هذا يكون مفيدا له.

مع اشراقة يوم جديد، فتحت جازية أجفانها على ضوء النهار، وشعرت بغبطة وهي تسمع أنغام الطيور في الحديقة، كان زوجها قد غادر الفراش مبكرا، تمددت لبعض الوقت محاولة التفكير في أهم الأعمال التي عليها أن تنجزها خلال اليوم، ارتسمت على ثغرها ابتسامة سرور حين تذكرت قدوم ابن خالتها، ودب في جسمها نشاط مفاجئ، فقامت بسرعة لتحضر الإفطار، وحين مرت بالغرفة التي اتخذ منها السيد بوشو مكتبا، أحست بحركة ما، أطلت من الباب لترى زوجها لا يزال يجلس هناك، شعرت ببعض الغرابة، فتساءلت وهي تتجه نحوه: ظننتك ذهبت للعمل عزيزي، ما الأمر؟

وبدا أنه قد غير ملابس النوم، وكان مستعدا للخروج، فاعتقدت أول الأمر أنه تأخر لبعض الوقت ولكنه أجاب: لدي بعض الأشغال هنا قبل أن أغادر. لا تشغلي بالك بي.

وأضاف محاولا تفادي نظراتها: أرجو أن تتركيني بمفردي.

كان في صوته مزيج رهيب من الخوف والغضب، أحست المرأة بشعور غريب، فلم تعتد أن تسمع من زوجها مثل تلك النبرة، كانت تهم بالدخول ولكنها توقفت، ورأت أنه من غير المناسب أن تحدثه وهو على تلك الحال، فاستدارت للخروج وهي تقول: كما تشاء، هل تريد شيئا قبل أن أغادر؟

وسارت ببطء علّها تسمع ردا، ولكنه لم يجب، فأغلقت الباب وتوجهت إلى المطبخ، وهناك شعرت بحاجة ملحة للبكاء، فاستسلمت للدمع بعض الوقت، وفكرت في أن تتصل بعلي سعدي، والذي كان يعمل محاميا عند زوجها، لعله يعرف شيئا عن الأمر، فضلت بعدها التريث قليلا، ثم أقنعت

نفسها أخيرا أن كل شيء سيكون كما تشاء وترضى، وسرعان ما ستعود الأمور إلى نصابها.
بعد أن عاد إليها بعض الهدوء قامت لتنظف البيت وتهيئ غرفة للضيف، وكانت خلال كل تلك المدة تنتظر أن يفتح باب المكتب ويخرج الرجل المنزعج، ولكنه لم يفعل، واستمر الحال على ذلك حتى بلغت الشمس مرتفعا من الأفق، فعاودها الإحساس بالقلق مجددا، وفي اللحظة التي همت فيها بالدخول الى المكتب، دق الباب الخارجي ودخل شاب نحيل في العشرين من العمر، كان يرتدي ثيابا أنيقة ولكنها تعبر عن هوية مبتذلة، حين اقترب من ابنة خالته لم يشاهد الوجه الذي كان يتوقعه، فقد رحبت به بثغر فاتر، ولم يستطع قناع التودد أن يحجب اضطرابها، وضع حقيبته قرب الباب، وقال وهو يسلم عليها: لا تبدين على ما يرام خالتي، ما بك؟
واستمرت في إخفاء ما كانت تعانيه، فأشارت إلى الأرائك في قاعة الجلوس: "لا شيء مهم، تفضل بالجلوس وسأخبر زوجي بقدومك".
وحمل الشاب حقيبته، وبعد أن استقر حيث أشارت ابنة الخالة، رآها تتوجه نحو المكتب لتحدث زوجها.
وظهر علي بوشو حينها على غير الهيئة كان عليها صباحا؛ فقد كان منشغلا بأوراقه، كما رأت أن ملامحه صارت أكثر اشراقا، تشجعت قليلا وفكرت في أن تفتح معه موضوع تلك العزلة، إلا أنها قالت في نفسها: "إن اليوم لا يزال طويلا وسأعرف حينما أرى البسمة على وجهه". وأوصدت الباب، فتملّكتها رهبة لم تشعر بها من قبل، كانت كمن يدخل عرين الأسد، اضطربت فجأة، ثم تمالكت نفسها قليلا قبل أن تقول: لقد جاء ابن خالتي، فهل أدعه يدخل؟

وبدا أنه انتبه لوجودها لأول مرة، فقال: ما الأمر؟
أخبرتك أن ابن خالتي هنا، فهل تريد أن تستقبله؟
أجاب دون أن يستطيع إخفاء انزعاجه: وماذا يفعل ذلك الغر هنا؟
أظن أنك أنت الذي سمحت لي بالاتصال به صباح الأمس.
ولماذا جاء بهذه السرعة؟! حاولي أن تصرفيه لأنني لا أود أن أرى أحدا اليوم.
نظرت إليه جازية ولم تكن تصدق ما تسمعه: ولكنك طلبت منه القدوم بالأمس، كيف يعقل أن تطرده اليوم؟
وتوقفت هنيهة واضعة يدها على جبينها: "آه يا إلهي ماذا يمكنني أن أقول له؟"
ورد بوشو بنبرة غاضبة: وما شأني بما ستقولينه، هيا اغربي عن وجهي، فلست في مزاج لأستقبل أحد.
وخرجت جازية من مكتبه، وحاولت أن تكتم دموعها بقدر ما تستطيع من رباطة الجأش، فدعت ابن خالتها للصعود إلى غرفته، وطلبت منه عدم التسكع في المنزل بحجة أن زوجها مريض ويحتاج إلى الهدوء.
وصار المنزل الذي كان مفعما بالحياة إلى ما يشبه الجحيم، واستمرت جازية كحال زوجها محبوسة في إحدى الغرف منشغلة في النحيب، ومر وقت الظهيرة شاحبا، وأنساها حزنها أن تحضر بعض الطعام لضيفها، أو أن تحس بما كان يجري حولها إلى أن صارت الساعة الثالثة بعد الزوال. وحين استجمعت بعض حطام نفسها، أحست وكأنها قد غفت قليلا، توجهت إلى غرفة قريبها فلم تجده هناك، ونزلت بعدها إلى المكتب فرأت أن بابه كان مفتوحا، فكرت في أن زوجها قد خرج أخيرا من عزلته، ولكن حين دخلت رأت الأوراق التي كانت على المكتب وبعض أغراضه ملقاة على الأرض،

تقدمت بسرعة لتفحص المكان، فهالها منظر زوجها الممدد على السجاد والمغطى بالدماء.

لم تعرف ما ينبغي أن تقوم به، فقد كانت على وشك الإغماء. تراجعت قليلا وأسندت نفسها على أحد الكراسي لكي لا تقع، ثم جثت على ركبتيها لتسترجع أنفاسها، وبعدها زحفت ببطء خارج الغرفة، كانت كأنها تريد أن تجد هواء غير ذلك الهواء الخانق بهول الصدمة، وبعد أن أخذها الذهول قليلا، نهضت بتثاقل وطلبت رقم محامي زوجها السيد سعدي، فلن تكن تعرف من أصدقاء زوجها غيره، فهو الرجل الذي تعرفت به لأول مرة قبل زواجها، وكان له الفضل في التقائها بالسيد بوشو واقترانها به.

ولم يتأخر الرجل كثيرا، فقد ترك كل ما يشغله وأسرع إلى البيت، وكان كهلا على أعتاب شيخوخة لا يفشيها مظهره، ويظهر من قوامه أنه كان يمارس الرياضة بانتظام ويعتني بصحته جيدا، وحين دخل الغرفة اقترب من الجثة محاولا ألاّ يعبث بشيء، وبعد نظرة متفحصة قال متسائلا: لقد مات بالفعل، ولكن هل أنت متأكدة أنه كان ميتا حين عثرت عليه أول الأمر؟

وبدا أن هذا الاحتمال لم يخطر على بالها، فشعرت باضطراب مفاجئ: "أتقصد أنه ربما كان على قيد الحياة حينما وجدته لأول مرة؟"

هذا احتمال وارد، فكمية الدماء التي تحيط به كبيرة جدا، مما يجعل من الراجح أنه نزف كثيرا قبل وفاته.

يا إلهي، كنت أظنه ميتا ولم أفكر حينها إلا في ذلك، لو أنني أسرعت للاتصال بمن يسعفه لربما كان الآن حيا.

وتوقفت لتأخذ قسطا من النحيب ثم أكملت: لو كان حيا حينها، لكنت أنا السبب في موته.

ونظر الرجل إلى ساعته، ثم قال: أتعجب كيف أن رجال الشرطة لم يصلوا بعد، فقد اتصلت بهم قبل أن أخرج من مكتبي.

ورأى المحامي أن يلعب دور المحقق قبل أن تصل الشرطة التي اعتادت التأخر في تلك المنطقة، فقال أول الأمر للمرأة مواسيًا: لقد كان رجلا صالحا وسينال المجرم جزاءه بلا ريب.

ثم أضاف وهو يتجه نحو الباب: دعينا نخرج من هذه الغرفة حتى لا نفسد أيا من الأدلة.

وبعد أن استقرا في قاعة الجلوس، والتي أخذت مساحة واسعة من الطابق الأرضي، وفرشت ببساط مزركش يغلب عليه اللون البني، وجثت في وسطها مجموعة من الأرائك حول طاولة منخفضة، كما كان على الجدار المقابل شاشة كبيرة لم تكن تشغّل إلا نادرا، فلم يكن أي من السيد والسيدة بوشو من هواة مشاهدة التلفاز، أما على الركن المقابل للباب الخارجي فكانت هناك طاولة أخرى ترتفع حوالي متر، ويقبع فوقها تمثال امرأة، كان قد اشتراه بوشو من إحدى رحلاته إلى المكسيك. جلس سعدي على أول مقعد وسأل: أخبريني كيف حدث الأمر، هل زار أحدهم زوجك قبل وفاته؟

لست أدري بالضبط، فقد كان يشعر بالضيق وأراد الجلوس وحيدا، فتركته في مكتبه وصعدت إلى غرفة بالطابق العلوي، وهناك أظنني غفيت ولم أتمكن من سماع شيء إلى أن خرجت واكتشفت الجثة.

إذن فلم يكن سواكما بالمنزل هذا اليوم؟

وفكرت في أن تخفي عنه خبر قدوم ابن خالتها، ولكنها رأت أن الشرطة ستتوصل إلى الحقيقة بطريقة ما، وستصير بذلك موضع شبهة، فقالت: في

الحقيقة لقد زارنا ابن خالتي هذا الصباح، ولكنه لم يتحدث مع زوجي وصعد مباشرة إلى غرفته.

وظهر على المحامي علامات الاهتمام، فقال بفضول: وأين هو الآن؟

لا أعلم، فحين خرجت لم أجده في غرفته.

ألم يخطر لك أبدا أنه قد يكون هو من تشاجر مع زوجك، وانتهى الأمر به إلى هذه الجريمة.

وبدا للسيدة جازية بوشو أنه احتمال وارد، ولكنها لم تستطع أن تصدق ذلك، فابن خالتها لا يمكن أن يرتكب أبدا جريمة قتل، وهذا ما أبعد عنها هذا التفكير منذ البداية، وكما كان متوقعا، فقد حاولت الدفاع عن قريبها قائلة: لا يمكن أن يقتل هشام أحدا، أرجوك سيد سعدي أبعد هذه الأفكار من رأسك.

وكان المحامي يعلم أنه لا سبيل للتعاطف في مثل هذه المواقف، فحاول شرح الموقف بصراحة: آسف سيدتي، ولكن علينا التفكير في كل الاحتمالات، فحين تأتي الشرطة لن تستثني أحدا من موضع الشبهة، بما في ذلك أنت، فقد كنت مع ابن خالتك في البيت قبل وفاة زوجك، ولن تخرج دائرة الاتهام عن أحدكما.

وأضاف المحامي حين رأى تغيرا واضحا في ملامح السيدة: وقد عبر لي زوجك رحمه الله قبل يومين، عن استيائه من سلوك ابن خالتك في حديث عابر، فإن كان الشاب كما ذكر يعاني من اضطراب في السلوك، فليس من المستبعد أن يرتكب بعض الحماقات.

وقاطعته جازية في نبرة تدعو للرثاء: ولكن ليس إلى حد القتل سيدي، لا أصدق أبدا أن يقوم هشام بأمر فضيع كهذا.

نظر إليها سعدي بإشفاق، وقال وهو لا يزال يحدق بعينيها المضطربتين: لم لا تتصلين به وتسألين عن مكانه؟

رمقته بذهول وقالت: يا إلهي كيف لم يخطر لي أن أفعل ذلك؟

واتجهت بسرعة تبحث عن هاتفها الذي تركته في المطبخ، ثم عادت لمكانها وهي تحاول الاتصال. نظرت بعدها إلى شاشة الهاتف وقالت: "الهاتف مغلق". وتنهدت بعمق ثم أضافت: أرجو أن يكون بخير فحسب.

وفي هذه اللحظة رن جرس الباب، فتوجه المحامي بنفسه ليفتح، وبعد لحظة ظهر مع شرطيين قرب المدخل، أحدهما كان شخصا طويل القامة ذا ملامح حازمة، يدعى أحمد شولي، وهو المحقق المكلف بالتحقيق في هذه الجريمة، أما الثاني فقد كان شابا في نهاية العشرينات.

بعد أن قابلا السيدة، توجه الجميع إلى المكتب حيث عاينت الشرطة الجثة وما حولها، ثم دخل رجال من الحماية المدنية وقاموا بنقل القتيل إلى المشرحة. وبعد مرور بعض الوقت اقترح المحامي العودة لقاعة الجلوس لتستريح المرأة المرهقة، وهناك قال المحقق أحمد شولي: لقد طعن زوجك سيدتي عدة طعنات على مستوى الصدر، وهذا ما أدى إلى وفاته، لهذا أنا مضطر إلى طرح بعض الأسئلة، لعلنا نكتشف ما حدث.

وعوض أن تجيب نظرت من حولها، فرأت أن البيت الذي كان هادئا قبل لحظات قد صار يغص بالرجال والحركة، حاولت بعدئذ التركيز على الأسئلة، ولكن عيونها لم تستطع الثبات على الوجه المتعب للمفتش، ظلت أحداقها تسترق النظر إلى رجال الأمن والحماية، كل واحد منهم كان يقوم بعمل ما، وتساءلت كيف أن الحياة قادرة على التغير في رمشة عين؟ وحين طال صمتها، سمعت صوت الضابط يقول: سيدتي؟

وأعادت له انتباهها محاولة تذكر ما كان سؤاله، ثم اكتفت بإيماءة من رأسها، فأضاف المفتش شولي: كنتِ أول من اكتشف الجثة فاتصلت بالسيد سعدي، والذي اتصل بدوره بنا.

وأجابت جازية بصوت خافت: أجل.

وقد ذكر المحامي كذلك أنك اكتشفت الجثة حوالي الساعة الثالثة بعد الزوال، فإن لم يكن لك اعتراض على ما قاله، أود أن أعرف متى كان آخر لقاء لك بزوجك قبل أن يقتل؟

ومسحت بعض العرق الذي تجمع على جبينها رغم أن الجو كان لطيفا، وأعادت استراق النظر إلى الرجال الذين كانوا يتجولون في الجوار، ثم قالت: لم أكن أعرف كم كانت الساعة حينها، ولكن أظن أنها كانت حوالي الحادي عشر والنصف.

وهل يمكن أن أعرف ما دار بينكما؟

كنا قد تحدثنا بالأمس عن استضافة قريب لي ليعيش معنا بعض الوقت، وحينما جاء الشاب بناء على دعوتي، ذهبت إليه لأخبره بقدومه، ولكنه فاجأني بعدم السماح له بالدخول.

وما تفسيرك لهذا الرد المفاجئ؟

لست أدري، فقد كانت تصرفاته كلها غريبة هذا اليوم، حيث كان من المفترض أن يغادر المنزل باكرا ليلتحق بعمله، إلا أنه لم يفعل، وحينما سألته عن السبب ثار في وجهي، وطلب مني أن أدعه بمفرده.

قالت كلماتها الأخيرة بصوت مخنوق، وعاودتها الرغبة في البكاء، إلا أنها قاومتها بشدة، ورغم ذلك استطاعت دمعة أن تتسلل نحو خدها الشاحب، فمسحتها بأصابع مرتجفة، وأخذت نفسا عميقا، فنظر إليها المحقق

بإشفاق، وتمنى أن ينتهي هذا الوضع في أقرب وقت، ثم قال: وماذا فعلت بعدها، هل صرفت قريبك بناء على طلبه؟

ردت جازية كأنها لا تريد مواصلة الحديث: لا، لم أفعل، فقد كان زوجي رجلا طيبا، وكنت واثقة من أنه لم يكن يعي ما يقول، لهذا دعوت ابن خالتي للدخول إلى حين يعود زوجي لطبيعته، فأستطيع حينها التصرف معه.

إذن فقد كان ابن خالتك هنا أيضا ساعة ارتكاب الجريمة!

لست واثقة، ربما يكون غادر المنزل قبل ساعة وقوعها.

وساد صمت مقلق، إلى أن أضافت جازية وكأنها تريد تبرير ذلك الغياب: حينما كلمني زوجي، وجدت في طريقة حديثه ما أزعجني وجرح مشاعري، فلم أستطع أن أتمالك نفسي من البكاء، ولهذا حبست نفسي في الغرفة لعدة ساعات ولم أقدم لضيفي شيئا ليأكله، لهذا أظنه غادر المنزل وقت الغداء، وإن لم يعد إلى البيت فأنا لا ألومه.. قد يكون غاضبا أو أحس بالجوع ولم يجد أحدا ليعتني به.

وهل يمكنك أن تتصلي به، أو على الأقل تخبريننا أين يمكن أن نجده؟

اتصلت به قبل قدومك وكان هاتفه مغلقا، ولكن إن كان عاد للبيت، فهو يقيم مع أمي بحي فايد بباش جراح، ولا يوجد مكان آخر يمكن أن يلجأ إليه.

وكان المحامي خلال هذا الوقت يراقب مجريات الحوار دون أن يتدخل، فيما فكر المحقق شولي للحظة ثم قال: حسب ما فهمته، فإنك كنت في غرفتك أثناء ارتكاب الجريمة، كما أراك ترجحين خروج قريبك من المنزل قبل ارتكابها، فمن برأيك قد يقوم بمثل هذا الفعل؟ هل كان لزوجك أعداء؟ هل حدّثك عن مخاوفه أو أمر خطير من قبل؟

وأظهرت جازية حركة تدل على التعب، ولكنها حاولت مواصلة الحديث: لا أعلم سيدي الضابط، فهو لم يحدثني بشيء، وإن كان له أعداء في العمل، فأرى أن تسأل السيد سعدي عن الأمر، فهو يعرف الناس الذين يختلط بهم ويتعامل معهم كل يوم، فأنا كما ترى حبيسة البيت طوال اليوم، ولا أشغل نفسي إلا بأمور بسيطة، كالتبضع أو تعلم شيء ما قد يفيدني في المنزل، أما أمور العمل فلا يأتي زوجي على ذكرها أبدا، كما أنني لا أحب أن أتدخل في أموره.

وبدت على وجه الشرطي ابتسامة صغيرة، فقال وفي نيته إنهاء المقابلة: لا بأس سيدتي، سيأتي دور استجواب السيد سعدي في حينه، أما الآن، سأتركك لترتاحي فأنت تبدين جد مرهقة، وسأتصل بك في وقت لاحق.

قام الرجلان، وقبل أن يغادرا أضاف الضابط: تقبلي مني خالص التعازي سيدتي.

وهم المحامي بالإنصراف هو الآخر، فقال مودعا: سيكون كل شيء على ما يرام فلا تقلقي، وإذا احتجت لأي شيء، يمكنك الاعتماد علي.

وحين اقترب المحامي بصحبة الضابط من الباب الخارجي، قال شولي: أحتاج إلى التحدث إليك أنت أيضا سيد سعدي.

أنا في الخدمة سيدي.

إذا لم يكن لك عمل ضروري فيمكن أن نجلس قليلا بعيدا عن هذا المكان.

وكان بين الرجلين معرفة سابقة، فلم يجد سعدي حرجا في القول: يمكنني أن أقلّك إلى حيث شئت بسيارتي، وخلالها يمكننا أن نتحدث.

وددت لو نذهب إلى مقر عمل الضحية، فهناك يمكننا أن نلتقي بمن يمكنه أن يفيدنا بشيء.

وتوقف المحامي قرب سيارة تويوتا سيدان 'Toyota Sedan' سوداء بجوار البيت، وقال: لا أظن أننا سنجد أحدا، فالساعة تجاوزت الرابعة الآن، ومعظم الموظفين يغادرون قبل هذا الوقت.

فكر الشرطي قليلا، ثم قال: لا عليك، سيكون لي الوقت الكافي لأزور الشركة في الغد، لنذهب لمركز الشرطة.

قدم شولي بعض الارشادات لرجاله قبل أن يغادر، وانطلقت سيارة سعدي بصعوبة بين السيارات المحتلة للشارع، اتجها نحو شارع عبان رمضان المؤدي إلى الطريق السيّار، وخلالها نظر المفتش نحو بعض الفضوليين المتجمهرين في المكان ثم أعاد انتباهه للمحامي: "إذن فالقتيل هو صاحب شركة لإنتاج المكيفات الهوائية ووسائل التبريد".

أجل، تدعى شركة بوشو، ويقع مقرها في منطقة جسر قسنطينة.

سأزور الشركة في الغد وأتعرف على العاملين هناك.

وصمت قليلا ثم تنهد بعمق، وحينها استدار نحوه المحامي وسأل: ما بك؟

تنتابني مشاعر متناقضة حيال تلك السيدة، أعني زوجة المرحوم بوشو، فبالرغم من تعاطفي معها إلا أنني أجد موقفها جد صعب، خاصة إذا أثبت الشاب الذي قالت إنه قريبها مكان وجوده أثناء الجريمة، فقد كانت لوحدها في البيت طوال هذا اليوم، وإن لم نجد دليلا واضحا عن براءتها، فادعاءاتها لا تعني شيئا بالنسبة إلى القانون.

ولكن إذا لم يثبت شيئا ضدها، فهناك احتمالات أخرى، كدخول شخص أثناء مكوثها في غرفتها كما تدعي.

وعادت حالة الاكتئاب والحيرة للضابط مجددا، فأخرج سيجارة من جيبه، وقال وهو يحاول إشعالها: أصدقك القول أنها لا تزال تراودني بعض

التساؤلات، أقصد فيما يخص تلك المرأة، فقد كان بودي أن أطرح عليها مزيدا من الأسئلة لولا حالتها النفسية الصعبة، لذلك ففي نيتي العودة لاستجوابها في الغد.

ولكن إذا كانت هي القاتلة، فما الذي سيدفعها لذلك في رأيك؟

لا يمكنني أن أجيبك على هذا السؤال الآن، فأنا لا أعرف عنها شيئا، ربما يمكنك أن تفيدني أنت في هذا الشأن، فقد كنت مقربا من العائلة، وعلى اطلاع على كثير من الأسرار بحكم وظيفتك.

وكان المحامي حقيقة على اطلاع تام بكل أسرار الأسرة، لهذا فقد تكون إفادته مهمة جدا في نظر شولي.

"هذا صحيح، فأنا أعرف السيد بوشو منذ سنوات عديدة، لهذا أعلم أنه كان متزوجا من سيدة تدعى خديجة مندوب، ولكنهما لم ينجبا الأطفال، وبعد الكثير من التحاليل الطبية، ظهر أن الزوج كان عقيما، فاستمرت العلاقة بينهما أملا في الوصول إلى علاج ما، ولكن مع مرور السنوات بدأ اليأس يدبّ في نفس الزوجة، ولفرط حبها للأطفال، اضطرّت إلى طلب الطلاق بعد ظهور علاقة أخرى بينها وبين أحد العملاء، ويبدو أن الزوج كان متفهما، فطلقها ولم يسع للارتباط مرة أخرى، وبقي الحال على ما هو عليه إلى أن جاءتني فتاة جميلة ذات يوم تبحث عن عمل، والحقيقة أنني شعرت بالأسى لحالها، فقد كانت تبدو كأميرة من دون تاج، ولأنه لم يكن لدي عمل أقدمه لها، فقد طلبت منها أن تعود بعد يومين لعلي أجد لها وظيفة محترمة، خلال تلك المدة اتصلت بالسيد بوشو وسألته في الموضوع، فقال أنه ربما يستطيع تقديم المساعدة، ولكن حين قابلها لم يستطع إخفاء إعجابه بها، وذات يوم جرّنا الحديث إلى الحديث عنها فشجعته على الزواج

منها، ولكنه قال إنه لا يريد أن يفسد شبابها مع عجوز مثله، وبحكم أن الفتاة كانت مسكينة ويائسة فقد وجدت في السيد بوشو سندا قويا، ولم تعترض حين اقترحت عليها الزواج".

رد المفتش متسائلا: وأين كانت تقيم قبل أن تتزوج من بوشو؟

كانت تقطن مع أمها والشاب الذي كانت تحدثنا عنه في إحدى أحياء مدينة باش جراح.

وفكّر المفتش قليلا ثم قال: إذن فأنت الذي شجعتها على الزواج منه.

أجل.

ورغم ذلك لا زلت أتساءل لماذا جاءت بابن خالتها ليقيم معها؟

هل تعتقد أن لذلك الشاب يدا في الجريمة؟

ألقى شولي بعقب السيجارة من النافذة وقال بضجر: في هذه اللحظة لا أفكر في أي شيء غير تناول فنجان قهوة أزيل به بعض الصداع.

وكان هناك مقهى يظهر أمامهما، فتبسم المحامي وقال وهو يركن السيارة بجانب الطريق: يبدو أن يومك كان حافلا سيدي.

أجل، فلم أهدأ منذ الصباح، فقد تم الاعتداء على فتاة من قبل شخصين، ولحسن الحظ أننا ألقينا القبض عليهما بعد جهد كبير.

حين دخلا المقهى وجدا المكان هادئا بعض الشيء، ففضلا الجلوس قليلا قبل مواصلة السير، ولم يكن المفتش إلى تلك اللحظة قد تطرق إلى علاقات رضا بوشو التي لم يكن يعرف عنها شيئا، وعوضا عن كشف المزيد من الغموض، فضل الخوض في أحاديث جانبية لا علاقة لها بالموضوع، كان يفعل ذلك عن قصد من أجل إراحة ذهنه من كثرة التفكير، ولكن بسبب الوقت الذي كان يمضي بسرعة، فقد اضطر إلى العودة لطرح الأسئلة:

حدثتني السيدة جازية باديس أن زوجها لم يكن في حالة طبيعية منذ الصباح، فما هو في رأيك سبب ذلك؟

هز المحامي رأسه حين أجاب: حتى أكون صريحا معك، فهذا الكلام قد ألقى في نفسي الحيرة أنا أيضا، فرغم سنواتي الطويلة التي عملتها مع السيد بوشو، إلا أنني لا أذكر أنه مر بحال كالذي وصفته المرأة، فقد كان في العادة رجلا هادئا حتى في أصعب الظروف، وكان نادرا ما يغضب، أو على الأقل كان لا يبدي انفعالاته للغير.

إذن فأنت تشك في صحة كلامها.

هز الرجل رأسه مجددا، ثم قال: ليس تماما، وإنما أتساءل ما هو الأمر الخطير الذي أوصله إلى تلك الحالة؟ فهل يعقل أن يبلغ به الغضب إلى درجة أن يعنّف زوجته ويطرد ضيفه، ففي العادة إذا غضب شخص ما فلن يصل به الجنون ليطرد الضيف.

وقال الضابط موافقا: هذا صحيح، فالعادة تجعل من الزوجات فرائس سهلة للغضب، أما الضيف فيحاول دائما أن يتجنب الاصطدام به، إلا إذا وجده قد خانه وانتهك حرمة بيته.

ربما طرد السيد بوشو ضيفه لهذا السبب.

ونظر إليه الضابط باهتمام فأضاف المحامي: أقصد أن السيد بوشو، ربما يكون قد سمع من شخص ما أن الشاب يريد أن يفعل شيئا سيئا في منزله، فاستاء لذلك ولم يرد أن يغادر البيت إلا ليمنعه من الدخول.

وبدا أن الشرطي لم يقتنع بهذا الحديث، فرد بنوع من التهكم: وما هو الأمر السيئ الذي قد يفعله ذلك الشاب في البيت؟ فأسوأ الظنون ستزيلها حقيقة أن المرأة خالته، أما المال فلن يجد في البيت أكثر مما تستطيع إرساله له.

يؤسفني أن أخيب ظنك، لأن الشاب ابن خالتها وليس ابن أختها.

وتذكر الضابط ما قالته المرأة، فأحس بالاستياء لكونه قد أخطأ في معلومة كتلك، ولكنه أرجع كل ذلك إلى الإرهاق، وكان عليه ألا يطيل الحديث أكثر من ذلك، ولكنه لم يرد أن ينهيه بطريقة تثير الانتباه، فقال محاولا ألا يبدي انزعاجه: هذا صحيح فقد ذكرت المرأة ذلك.

ويبدو أن المحامي قد لاحظ بعض الذبول في ملامح الرجل، فحاول أن يكون هو الآخر متفهما: أرى أنك متعب سيدي، فما رأيك أن نؤجل الحديث للغد؟

وانطلقا بالسيارة متوجهين إلى بيت الضابط بدلا من مركز الشرطة كما كان مخططا له، وبعد أن وصل شولي، أجرى اتصالا للشرطي الذي كان يتوقع وصوله الى المركز، اعتذر على عدم القدوم، ثم سأله إن كان قد جيء بقريب زوجة السيد بوشو، فرد الشرطي على الخط، أنهم لم يعثروا على أحد في العنوان الذي قدمته لهم السيدة.

03

في الغد استيقظ شولي، واستيقظت معه الفكرة التي كانت تراوده منذ سنتين، فلم يعد قادرا على تحمل ضغوطات العمل، لهذا أصبح يفكر في التقاعد بعزم أكثر من ذي قبل، وهذا بالرغم من أنه لم يتمم سنوات العمل بعد، وما زاد من تمسكه بهذا الأمر أن كل القضايا في المنطقة كانت تحال عليه، حتى ولو كانت جد بسيطة، ولم يكن ليرفض في الغالب، لأنه لم يكن يوجد أحد يمكن الاعتماد عليه بشكل جاد، وغمغم كما كان يفعل كل مرة: نكمل هذه القضية ثم نرى.

واستذكر بسرعة ما قيل بشأن قضية السيد بوشو، فلم يستطع أن يتوصل إلى شيء، نظر إلى المرآة أمامه، وفتح صنبور ليطرد بعض النعاس بماء بارد، وحين شعر ببعض النشاط قال في نفسه من جديد: لا بد أن تكون تلك المرأة قد اتفقت مع قريبها لقتل الرجل المسكين والاستيلاء على ماله، ومن ثمة الزواج، هذا إن صدق تخمين المحامي بوجود علاقة مشبوهة بينها وبين قريبها، فالمرأة كما يبدو قد سئمت من الرجل الذي بدأ يهرم وطاقت نفسها للشباب.

وأحست نفسه بالظفر بعد أن أقنعها بهذا الاستنتاج، إلا أنه سرعان ما عاد إليها الكدر، فالخطة التي خمن أنهما اعتمدا عليها غير معقولة بتاتا. قرر أخيرا ألا يصدر حكما حتى يمر بكل الإجراءات التي اعتاد عليها في مثل هذه القضايا، وبناء على ذلك فقد عرج على مركز الشرطة للقيام ببعض الأعمال

الروتينية، ثم توجه مباشرة بسيارته الخاصة هيونداي أكسنت ' Hyundai accent' إلى شركة معدات التبريد التي كان يملكها الضحية.

حين دفع بابا زجاجيا أنيقا في أسفل بناية بعدة طوابق، استقبلته قاعة بها مكتب صغير مثبت فوقه شعار الشركة، اتجهت نظراته إلى فتاة تبدو في بداية العقد الثالث، وكما هو حال موظفي الاستقبال، فقد استقبلته بابتسامة ودودة، وقالت بصوت أنثوي رقيق: كيف أستطيع أن أساعدك سيدي؟

ولأنه كان يرتدي ثيابا مدنية، فقد كان يتوقع ألا تتعرف عليه منذ البداية، لهذا كان على استعداد لإظهار البطاقة التي تكشف عن هويته، لوح بالبطاقة أمامها معرّفا عن نفسه، ثم أعادها بسرعة إلى جيب سترته الداخلي، تساءل بعدها إن كانت قد سمعت بوفاة مدير المؤسسة، فبدا أن رعشة مرت بجسمها، ثم ظهر عليها شرود الصدمة للحظة، إلى أن قالت غير مصدقة: هل أنت متأكد أن مدير الشركة قد مات؟ متى حدث ذلك؟

وعوض أن يجيبها استمر في التحديق بها، فأضافت: يا إلهي لم أكن أعلم أن حالته خطيرة إلى ذلك الحد.

وضيق المحقق من نظراته مبديا اهتمامه، ثم قال: عن أية حالة خطيرة تتحدثين؟

واضطربت المرأة قليلا، ثم استعادت ثقتها وقالت بثبات: كان المدير على موعد بالأمس مع السيد رابح سبتي هنا على الساعة العاشرة، وكان من المفترض أن يصل قبل ذلك الموعد كما اعتاد من قبل، ولأنه لم يفعل، اتصلت به، فقال إنه يحس ببعض التوعك ولا يستطيع المجيء.

وأظهرت على قسمات وجهها الصغير علامات الحيرة، ثم أضافت: ولم أكن أظن أبدا أن وضعه خطير إلى هذه الدرجة.

ونظر المحقق إلى أحد الكرسيين بجانب مكتبها، وراودته فكرة الجلوس، وكان قد بدا وكأنه لم يتخلص من إرهاق الأمس بشكل كامل، ولكنه أخيرا فضل أن يبدو أكثر صلابة، وواصل الحديث: ومن أخبرك أن السيد بوشو مات بسبب المرض، فقد وجد مقتولا في مكتبه بالبيت حوالي الساعة الثالثة بعد الظهيرة، ولهذا أنا في حاجة لمعرفة ساعة اتصالك به بالتحديد.

ولم تستطع المرأة إخفاء دهشتها، لكن رغم ذلك لم يبد عليها عميق التأثر، إذ سرعان ما عادت إلى طبيعتها وهي تجيب: كما أخبرتك، فقد كان له موعد مهم على الساعة العاشرة، لهذا اتصلت به قبل هذا الوقت بحوالي نصف ساعة، وأذكر كذلك أن هاتفه المحمول كان مقفلا، لهذا أعدت المحاولة لهاتف مكتبه، ولحسن الحظ أنه أجاب مباشرة.

وكيف بدا صوته؟ هل أحسست أنه كان مريضا حقا؟

ردت الموظفة بسرعة: كان يبدو صوته ضعيفا بعض الشيء، لهذا لم أشك لحد الآن أنه كان مريضا.

وفجأة انتبهت المرأة إلى أن المحقق لا يزال واقفا، فقامت من مكانها لتظهر تنورة سوداء تصل إلى الركبة، وقد كانت متناسقة مع قميصها الأبيض والصدرية السوداء، وهي في الحقيقة عبارة عن قطعة قماش ثُبتت كجزء من القميص، وكان قوامها جميلا حقا، وربما هو ما ساعدها على الحصول على تلك الوظيفة، حين دعته للجلوس تذكر سؤالا كان يود طرحه، فقال قبل أن يجلس: شكرا لك، ولكن أخبريني أولا، هل لديك فكرة عن موضوع الاجتماع الذي كان سيعقده بالأمس؟

قالت المرأة وهي لا تزال واقفة: تقصد بين السيد بوشو والسيد رابح سبتي؟ وهل هناك اجتماعات أخرى؟

أجل، فأحيانا يعقد السيد اجتماعات بشكل يومي، ولكن ليست كلها بالأهمية نفسها، فقد يجتمع بموظفي الشركة لحل بعض المشاكل، كوجود نقائص في وسائل العمل أو احتياجات العمال، كما له اجتماعات أخرى مع الزبائن والممولين، ومن خلال هذه الاجتماعات المهمة يتم عقد الصفقات، وهذه اللقاءات لا تكون كلها في مقر الشركة، لهذا فالسيد كان مضطرا في الكثير من المرات للانتقال إلى مناطق مختلفة، حتى أنه أحيانا يسافر خارج البلاد، ولا أظن هذا غريبا من رجل أعمال ناجح كالسيد بوشو رحمه الله.

قالت عبارتها الأخيرة بكلمات غير واثقة، أما عن المحقق، فلم يجد في كلامها ما يفيده فعاد للتساؤل: كنت أقصد اجتماعات كان من المفترض أن يعقدها يوم مقتله، أي بالأمس.

أجابت بعد أن غيرت بعضا من تعابير وجهها: لا أذكر إن كان له اجتماع آخر بالأمس.

ولاحظ المحقق أنها تستعمل يديها كثيرا حين تسترسل في الحديث، فأوحى له ذلك أنه قد تكون امرأة متعاونة، لهذا سأل مجددا: هل يمكنني الحصول على قائمة بأهم الاجتماعات التي أجراها في المدة الأخيرة لو سمحت؟

وبدا على المرأة التردد فأضاف شولي: إن السيد بوشو الآن في عداد الأموات، والاهتمام بمثل هذه التفاصيل قد يساعدنا على الوصول إلى من أجرم في حقه.

وخطت المرأة بعيدا عن المكتب ثم توقفت لتقول: في الحقيقة لست أنا المسؤولة عن حفظ وثائق السيد بوشو، فأنا كما ترى موظفة استقبال، أما من يقوم بهذا العمل فهي سكرتيرته الخاصة، والتي تدعى أمال..

وصمتت متذكرة للحظة قبل أن تقول: "أمال شالح"...هذا هو اسمها، ولكنها لم تصل بعد على غير عادتها، قد تكون سمعت بالخبر. ثم أضافت كأنها ترد على نفسها: ولكن إن كانت كذلك لماذا لم تتصل بي وتخبرني؟

وتذكرت أن علاقتهما لم تكن ودودة، فأرجعت السبب إلى ذلك ولم ترد البوح به، ثم استدركت حديثها وهي تتجه ببطء إلى باب على يسار القاعة: تفضل من هنا سيدي، فقد أعثر بمكتبها عن قائمة كالتي ذكرت.

وكان الباب يؤدي لسلم قادهما إلى الطابق الأول، فاتجهت إلى مكتب على يسار ممر صغير، وبدا أن الباب مفتوح حين دفعته، وخطر للضابط أن يسألها عن اسمها، فنظرت إليه مع ابتسامة ودودة: مروة، ثم دخلت وتبعها المفتش، وهناك كان مكتب بحجم مكتبها، إلا أنه كان مكتظا بالأوراق والسجلات، كما كان هناك حاسوب مكتبي في حالة جيدة، توجهت المرأة نحو خزانة من الفولاذ كانت على يسارها، وأدارت المقبض، ثم بذلت بعض الجهد لسحب الباب المعدني، نظر شولي إلى قوامها ثم أبعد بصره إلى الأغراض فوق المكتب، وقال: كيف يمكن أن تترك زميلتك المكتب وخزانة الوثائق مفتوحة؟

واستدارت نحوه بسرعة لتقول قبل أن تعود للبحث: في الحقيقة أنا من قام بفتحها هذا الصباح، فقد احتجت لأضع ملفا نسيته في مكتبي بالأمس.

وأضافت بعدما خمنت ما يمكن أن يجول في رأسه: كنت أنا من يشغل هذا المكتب من قبل، لهذا لا أزال أحتفظ بنسخة من المفاتيح، هذا كله قبل أن تأتي تلك.. المرأة لتعمل مكاني.

وقد همت أن تصفها بالسوء، ثم شكرت الله في سرها لأنها لم تفعل ذلك، وأخرجت حزمة من الملفات، وضعتها فوق المكتب وبدأت تبحث بينها، أما شولي فقد أشغل نفسه بالنظر من النافذة الصغيرة، فرأى مبنى ضخما يتربع على مساحة تفوق خمسة عشر آر، كما كان يوجد موقف به شاحنات محملة بأجهزة عليها علامة بوشو، كانت تلك البضائع توزع عبر كل ولايات الجزائر، ورغم المنافسة الكبيرة التي كانت تواجهها الشركة من قبل شركات عالمية، إلا أنها ظلت تتمتع بسمعة طيبة في السوق الداخلي، وقد كان معظم الناس على شبه ثقة أن الشركة لا تعدو كونها معملا لتجميع القطع المستوردة، أما ما لا يعلمه الكثيرون؛ فهو أن الكثير من أجزاء المنتوج مصنّعة بأيادٍ محلية.

كان عيب معظم الشركات هنا أنها لا تخصص ميزانية كافية لتطوير الإنتاج، لهذا فهي تكتفي باستنساخ ما تعرفه أو الاعتماد على الخارج في هذا الشأن.

بعد مرور الوقت استدار المحقق نحو مروة التي كانت لا تزال تبحث بين الأوراق، وقال: أظن أن خبر وفاة المدير لم ينتشر بعد بين العمال.

أجابت دون أن ترفع رأسها: "أظن ذلك أيضا، ولكن في العادة يستمر العمل حتى في غيابه، فهناك المشرف الذي يهتم بسير العمل"، وتوقفت للحظة عن الحديث وهي تتمعن في ورقة كتبت باللغة الفرنسية ثم قالت: ها هي ذي.

وتوجهت إلى الباب الذي كان خلفها، ثم أنارت غرفة صغيرة بها آلة ناسخة، وبعد أن أخرجت نسختين قدمت إحداهما للرجل وأعادت الأخرى للملف، وتوجهت نحوه بعيون مزينة بالكحل وتساءلت: هل هذا كل شيء سيدي؟

نظر المحقق إلى جدول أعمال السيد بوشو لذلك الشهر، ثم قال: أرى أن رضا بوشو قد أجرى عدة اجتماعات مع السيد رابح سبتي، ولم يكن لقاؤه المفترض بالأمس هو الأول.

اتكأت مروة على حافة المكتب وجمعت ذراعيها عند الصدر، وقالت: ليس في الأمر غرابة، فالسيد رابح سبتي صاحب شركة أجهزة الكترونية تدعى ألجي إلكترونيك، وهي من كانت تمول شركتنا ببعض القطع، لهذا من المحتمل أن يكون الرجلان قد اتفقا على توسيع الاستثمار.

طوى المحقق الورقة ووضعها في جيبه، وقال وهو يتوجه إلى الباب: دعينا ننزل فقد يأتي أحدهم ولا يجد من يستقبله.

انتظر حتى أعادت الملفات إلى مكانها وأغلقت الباب ثم عادا معا إلى مكتبها، جلس شولي على أحد الكرسيين الشاغرين، في الوقت الذي كانت تتوقع فيه الموظفة أن ينصرف، ثم سأل: "خلال المدة الأخيرة من لقائهما، ألم يبد لك أي خلاف بين الرجلين؟"

حدقت مروة في وجه الرجل المنهك وقد أحست ببعض الضجر، ثم قالت: لست أدري في الحقيقة ما يجري في اللقاءات التي تجمع بينهما، أما حينما أراهما معا، فلا يبدو عليهما شيء، خاصة وأن السيد بوشو من الأشخاص الذين لا تستطيع أن تعرف دواخلهم بسهولة، فهو شخص هادئ، وتطبع على جميع تصرفاته لمسة من الوقار والاحترام. ولكن يمكنك أن تسأل السيد سعيد كريفالي، فهو بمثابة نائب المدير وله صلاحيات واسعة في

المؤسسة، كما يمكنك أن تتحدث مع المستشار القانوني للشركة، ويدعى علي سعدي.

ولم يكن المحقق بحاجة للتعرف على المحامي، لهذا استفسر عن كيفية الاتصال بسعيد كريفالي، وبعد دقيقة من الاستماع إلى ردها، وقف منتصبا وغادر المكان.

04

لم تفكر جازية للحظة أن المبيت لوحدها في ذلك المنزل سيكون مريعا إلى ذلك الحد، فقد كان البيت واسعا ولم يكن من يؤنسها هناك، بعد أن انقضى شطر من الليل، تمنت لو قبلت دعوة جارتها للمبيت عندها، تململت في فراشها طويلا ولم تستطع النوم، ثم نظرت من تحت الغطاء إلى النور الخافت الذي ينسدل من النافذة، جالت بوجل حولها، فلم يظهر في الظلمة غير جزء من الخزانة، كانت تسترق السمع إلى أي صوت غريب قد يصدر من الطابق الأرضي، وكانت ترتعد فرائسها كلما تخيلت أي شيء يتحرك، ولم تكن لها الشجاعة لتنزل وتتفقد المكان، وأخيرا أزاحت قدميها ببطء عن السرير حتى استوت جالسة، ومدت يديها غير واثقة لتنير مصباحا بجانبها، وحين ارتمى بصرها على هاتفها الصغير، خطر لها أن تتصل بصديقتها هاجر، وهي سيدة لطيفة تقيم على بُعد شارعين من منزلها، غير أن الساعة حينها كانت في حدود الواحدة، ألقت الهاتف على السرير بقربها، وتوجهت إلى الخزانة، أخرجت ألبوم الصور ثم عادت لتتكئ عند زاوية مضيئة من الفراش، جالت ببصرها في ذكريات جميلة، فنظرت إلى صورتها في فستان الزفاف الأبيض الرائع، وتساءلت كيف مرّت سنتين بكل تلك السرعة! كانت تبدو في غاية الجمال، قوام نحيل بلمسات من الفتنة، وشعر طويل وأملس بلون خشب السبستان الفاخر، وكانت عيونها واسعة بأهداب ممتدة، ولها أنف دقيق وثغر صغير، كانت حينها طفلة في العشرين من العمر، لم تر من الحياة إلا الشقاء، فهي لم تعرف والدها يوما

قط، فقد مات وهي لا تزال صغيرة، فترعرعت مع أمها وابن خالتها في بيت حقير بحي يدعى فايد بمنطقة باش جراح بالعاصمة، استطاعت أن تكمل دراستها الجامعية بصعوبة بالغة، وبعد أن تحصلت على شهادة في الحقوق، حاولت إيجاد عمل لمساعدة أمها، ولكن الأقدار غيرت حياتها كليّة، وذلك بعد أن تزوجت رجل أعمال ناجح، كان بمثابة الزوج والأب.. وتذكرت الرجل الذي غمرها بالحب والعطف، فطاقت نفسها لأن تنظر إلى وجهه مجددا، قلّبت بعض الصور التي كانت تظهر فيها بسرعة، ثم توقفت للحظة حين لمحت من بينها صورة أمها تبتسم بوجه بريء، تبسمت رغم حزنها وهي تحدق بها، وشعرت بمقدار من الحاجة إليها، ثم أرسلت أصابعها النحيلة لتخفي ذلك الوجه وتظهر مزيدا من الوجوه، وعواطفها في كل مرة تتغير إلى أن وصلت إلى الوجه الذي كانت تبحث عنه، كان يبدو أكبر من سنها بكثير، ورغم أن البعض عاتبها على اختيار رجل في عمر والدها، إلا أنها لا تزال تعتبر أنه الرجل المناسب، فقد رأت من طيش الشباب ما أزهدها فيه، واختلجت عواطفها فجأة وهي ترمق العيون البنية التي أسقتها الكثير من العطف، و الملامح الناضجة التي كانت تبث فيها الطمأنينة، وجالت بفكرها دون أن تشعر في الأوقات السعيدة التي أمضياها معا، والأماكن الساحرة التي كانت تبدي بها الدهشة ويبطن هو الفخر، وتنهدت وهي ترخي قبضتها عن الدفتر، وبدت وكأنها غاصت تماما في ذكرياتها. كان هذا مفيدا لنسيان هواجسها المريعة، وبقيت على هذه الحال، إلى أن بدأ جسمها يرتعش وتنساب من عينيها دموع غزيرة، ربما كانت في حاجة إلى المزيد من البكاء، وامتدت يداها إلى ألبوم الصور الذي كان ملقا بجانب الهاتف، وقلبت صفحاته مرة أخرى، ولكن هذه المرّة بشيء من الضجر، ثم ألقت به إلى

جوارها واستلقت على ظهرها، تحدق في السقف شاردة الذهن حتى طلع الفجر.

لم يكن من الممتع أن ينام الإنسان وحيدا بمنزل ارتكبت فيه جريمة، لاسيما إذا كان غير معتاد أن يرى الجثث ومنظر الدماء، وبعد أن أحسّت ببعض الألم في ظهرها، قامت بتثاقل وأطلت من النافذة، كان السكون يخيّم على الشوارع، وبقايا عتمة خفيفة بدت بين الزوايا وقرب المنعطفات، وفجأة خطر لها أن تتمشّى قليلا، بعيدا عن شبح الموت الذي كان يقبع قربها طوال الليل، نظرت إلى نفسها في مرآة الخزانة، فبدا وجهها شاحبا، وجسمها في غاية الضعف والذبول، وضعت غطاء صغيرا على رأسها، فلم تكن في حاجة للتأنق في شوارع خالية، ولكنها فكرت وهي تقترب من الباب أن خبر وفاة زوجها قد لاكته جميع الألسن في المدينة، ومن المؤكد أنه لو تعرف عليها أحد، فلن يتردد في طرح الأسئلة، فقد كانت ثرثرة النسوة ممن أتين لتقديم التعازي بالأمس تجربة لا تريد أن تتكرر، وعادت إلى الخزانة وارتدت حجابا لم تكن قد جربته من قبل، فرغم أنها كانت ممن يخرجن بملابس محتشمة، إلا أنها لم تكن قد ارتدت حجابا قط، وكان بيتها ذا طابق واحد، يطل على شارع هادئ به بعض المحلات التجارية غير المستغلة، وكان يبدو من الأشجار التي تقف قربه أن هناك روحا من حب الطبيعة في ذلك المكان. أما من الجانب الآخر للبيت؛ فتوجد حديقة صغيرة، كانت تقضي بعض أوقات فراغها في الاعتناء بنباتاتها.

سارت بين الشوارع في خطوات تائهة، ومن حسن الحظ أن أحدا ممن أخرجتهم المشاغل حينها لم يتعرض إليها. تجاهلت من كان ينظر نحوها بريبة، واستمرت بلا هدف على أرصفة مهترئة، ومع إشراقة الشمس ازدادت

الحركة من حولها، فقررت أخيرا أن تعود أدراجها، حين اقتربت من البقالة التي اعتادت أن تشتري منها، لمحت شابا يشبه ابن خالتها، كانت الصدمة قد أنستها أمر ذلك الشاب التائه تماما، فتساءلت بقلق عن المكان الذي يمكن أن يكون فيه، كان لا بد لها أن تعاود الاتصال بأمها لتطمئن، ولم يكن بوسعها أن تصبر حتى تصل إلى المنزل، فبحثت عن أقرب هاتف عمومي، ولكن لم يكن هناك غير الأكشاك التي لا تفتح باكرا، عادت إلى البيت بخطوات مسرعة، وحين اقتربت وجدت سيارة تيويتا سيدان تعرفها أمام البيت، تقدمت نحوها فرأت بابها الأمامي يفتح ويخرج منها المحامي سعدي، نظر نحوها دون أن يقول شيئا، ثم عاد برأسه إلى الداخل وأخرج محفظته، نظر إليها بنظرات متفحصة فتبسمت رغم ما بها من ألم، وسألته بعد أن ألقت التحية: ما بك؟

تبدين مختلفة بهذه الثياب. أين كنت؟

أشارت إلى الباب قائلة: لندخل إلى البيت ونتحدث.

وبينما أخرجت المفاتيح من حقيبتها الصغيرة وراحت تحاول فتح الباب، قال المحامي: كنت على وشك الرحيل لو لم أشاهدك تعودين، ألم تبيتي هنا؟

بلى، ولكنني لم أطق البقاء وحدي، فخرجت لأتمشى قليلا.

وأشارت إلى الأريكة في غرفة الجلوس، وقالت: اجلس لأحضر لك بعض القهوة.

وبعد أن وضعت كوبين على الطاولة، تناول المحامي أحدهما وقال: آسف لأنني جئت في هذا الوقت، ولكنني أردت أن أطمئن عليك قبل أن أتوجه إلى العمل.

شكرا لك سيد سعدي.

تردد قليلا ثم قال: يمكنك أن تناديني علي.

صمتت جازية ولم تتفوه بكلمة، فأضاف: أتمنى أن تكوني قد تجاوزت الصدمة.

تنهدت بعمق وهي تنظر إلى الفنجان الثاني في ذهول: من الصعب أن أصدّق ما حدث، لقد مر كل شيء بسرعة، لم يخطر لي أبدا أن أصبح أرملة بهذه السرعة.

وامتدت يدها إلى خمارها فنزعته ببطء وألقت به على الأريكة، ثم قالت: أتمنى أن يعثروا على القاتل في أقرب وقت لينال جزاءه.

اسند سعدي ظهره إلى الخلف ومد رجليه قليلا تحت الطاولة، ثم سأل: ألم يعد قريبك إلى البيت بعد؟

وتذكرت أنها لم تقم بالاتصال للاطمئنان عليه، فهمت بالإسراع للهاتف، ولكنها لم تفعل وبقيت في مكانها تفرك يديها بتوتر، كانت عيناها شاخصتين نحو الأسفل، فتساءل سعدي: ما الأمر؟ هل عرفت عنه شيئا؟

لا، ليس بعد. ولكنني لازلت لا أعرف إن كان بخير، وهذا ما يقلقني، أخشى ألا تكون فاجعتي بالأمس هي الأخيرة.

ولماذا تعتقدين بأن أمرا سيئا سيحدث؟ قد يكون عند أمك، ألم تتصلي بها؟

كنت سأفعل.

وأمسكت بفنجانها وبقيت صامتة دون أن ترتشف منه شيئا، أحس سعدي بالشفقة عليها، فقال بنبرة صادقة: أرجو أنا أيضا ألا يكون قد تورط فيما نحن فيه.

ثم رأى وكأن كلماته قد أزعجتها، فاستدرك قائلا: ولكنني سأعمل على مساعدته إن كان ذلك يسعدك.

ونظرت إليه ولمسة من الحزن بادية على محياها: أرجو أن تفعل سيد سعدي، سأكون ممتنة.

وفكر سعدي في أن يكلمها في موضوع الميراث، ولكنه رأى أن الوقت غير مناسب، وضع فنجانه على الطاولة ووقف بنيّة الانصراف، ثم قال ملمحا لما كان ينوي التحدث عنه: سأحاول زيارتك من حين لآخر لترتيب بعض الإجراءات المتعلقة بممتلكات زوجك رحمه الله. كما سأعمل على مساعدتك في كل ما تحتاجينه.

قامت جازية، وقالت وهي تعدل بعض خصلات شعرها: لست متأكدة من البقاء في هذا المنزل بعد وفاة زوجي، فبالكاد استطعت إمضاء ليلة واحدة.

وصمتت في الوقت الذي كان ينتظر منها المزيد، وحين بدا أنها تفكر تساءل: إلى أين تنوين الذهاب؟

لست أدري بالتحديد، ربما أعود إلى منزل أمي.

ولم يبد على المحامي أنه استحسن الفكرة، فقال: تتركين هذا البيت الواسع وتعودين لذلك البيت البائس الذي عشت فيه أياما عصيبة؟

هزت كتفيها تعبيرا عن عدم الاكتراث، وأجابت: لست أريد من هذه الحياة الآن غير راحة البال.

ووضع سعدي محفظته على الأرض كمن ينوي مناقشة هذا الموضوع بجدية "ولماذا لا تأتي أمك لتعيش معك هنا".

خطت جازية خطوات نحو الخلف، ثم وضعت إحدى يديها على ظهر الأريكة وقالت: ليتها تفعل، فقد اقترحت عليها أن تأتي قبل وفاة زوجي، ولكنها أبت، لست أدري ما الذي وجدته في ذلك البيت لتتمسك به كل هذا القدر.

لكن الظروف تغيرت وقد تأتي هذه المرة، لا أظن أنها سترفض البقاء معك في هذه المحنة.

حسنا، سأفعل.

ونظر إليها المحامي، وحين التقت عيناها بنظراته أطرقت، وظلا صامتين إلى أن التقط سعدي حقيبته ثانية واستأذن بالذهاب.

توجهت جازية بعد رحيل سعدي إلى الهاتف قرب السلالم وحاولت الاتصال بأمها، حين وصلت أدركت أنها لا تتذكر رقم الهاتف، أسرعت بعدها إلى غرفتها أين تركت هاتفها المحمول فوق الفراش، بحثت بسرعة عن رقم الهاتف الجوال، وانتظرت لمدة دون رد، أعادت المحاولة ثانية وهي تنظر إلى شعرها في المرآة المقابلة لفراشها، وحين بدأت تفكر في تخصيص بعض الوقت لتحسين مظهرها، سمعت صوت الأم يأتي من السماعة، قالت بسرعة: أمي، كم أنا سعيدة لسماع صوتك. وجاء صوت رحمة فاقدا لنغمة الشباب: صباح الخير حبيبتي كيف الحال؟

بخير أمي وأنت؟

بخير

وأرادت جازية أن تستفسر عن هشام، ولكن رحمة سبقتها بنبرة ممازحة: أرجو ألا يكون ذلك الطائش قد سبب لك المشاكل.

أحست جازية وكأن الدماء تتجمد في جسمها، فهتفت بفزع: ولكنني كنت أظنه معك، ألم يعد للبيت بالأمس؟

وسمعت خشخشة من الطرف الآخر، وكأن الهاتف انزلق من يد والدتها، ثم سمعتها تقول مطمئنة: أنا الآن لست في البيت، فقد خرجت لزيارة صديقة

لي صبيحة الأمس وتركت هشام لا يزال نائما، كنت أظن أنه سيزورك بعد استيقاظه.

لم تعرف جازية ما كانت تحس به، ولكنها استعادت بعض من نبرتها الهادئة: إذن أنت لا تعرفين إن كان في البيت؟

لا، لست أدري، ولكن لماذا عاد إلى البيت بهذه السرعة؟ ألم يعجبه المقام عندك؟

شعرت جازية أنها عاجزة عن إخبار أمها بما حدث، فليس من السهل أن تفعل ذلك، قامت من السرير وسارت حوله ببطء، كانت تضغط على الهاتف بقوة دون أن تشعر، وبعد صمت قصير لم تستطع إلا أن تقول: أمي...

وأحست رحمة بأن أمرا خطيرا قد حدث، فعدّلت من جلوسها وكأنها تستعد لتلقي ضربة قوية وسألت: ما الأمر حبيبتي؟ ما بك؟

ردت جازية بنبرة جافة: لقد قتل رضا.

وهتفت أمها دون أن تشعر: يا إلهي... زوجك؟

وعادت للتساؤل غير مصدقة: أتقصدين أنه مات؟

واستطاعت جازية أن تجيب بثبات، وكأن دموع الأمس قد منحتها قوة للتماسك في تلك اللحظة: لقد قتل يا أمي، أحدهم طعنه حتى الموت.

وتسنى لجازية في الوقت التي استغرقته أمها في النحيب عبر الهاتف، أن تنظر إلى شكلها عبر المرآة مرة أخرى، انتابها في تلك اللحظة إحساس غريب، كانت تحدث نفسها دون أن تركز على الهاتف بأنها لا بد أن تقوم بشيء، لا بد أن تقف وتفعل شيئا، عليها أولا أن تحسن من مظهرها فذلك الشعر لا يدعو للارتياح، ومظهرها في الحجاب أخفى الكثير من الأناقة التي كانت

تحرص على الظهور بها، وكان عليها كذلك ألا تبيت وحيدة في ذلك البيت، فقالت قبل أن تنهي أمها ما كانت تقول: هل تأتين لتقيمي عندي لبعض الأيام؟

وحينها سمعت رنين الهاتف في الطابق الأرضي، خرجت وهي لا تزال تسمع أمها تقول إنها سوف تأتي في الحين، شعرت ببعض الرضا لهذا الخبر، فقالت: أرجو أن تحضري هشام ليأتي معك، وأخبريه أنني اعتذر على عدم الاهتمام به بالأمس.

قالت رحمة باهتمام: حسنا، وهل جثة زوجك في البيت؟

لا.. لا تزال في المشرحة.

ثم قالت حين وصلت إلى آخر درجات السلم: سأنتظرك أمي، أرجو ألا تتأخري، وبعد أن أغلقت الخط، رفعت السماعة وقد كان الاتصال من مركز الشرطة، أخبرها الرجل على الهاتف أنه لا يوجد أحد في العنوان الذي قدمته لهم، وأنه إن لم يظهر فسيكون المشتبه به الأول في الجريمة. عادت لجازية حالة الحزن، ولكن سرعان ما تمالكت نفسها وقررت أن تكون قوية هذه المرة.

حين وصلت رحمة قبل انقضاء فترة الصباح، عانقت ابنتها بقوة، وقالت بصوت هادئ: متى حدث ذلك؟

بالأمس.

يا إلهي ولماذا انتظرت كل هذا الوقت لتتصلي بي؟!

لقد حاولت الاتصال بك أكثر من مرة، ولكن هاتفك كان مقفلا، وكذلك هاتف هشام، كنت سآتي إليك ولكن لم أستطع، زارتني بعض النسوة في الجوار، ولم انتبه إلا بعد أن حل الظلام.

05

قرر المفتش شولي أن يتصل بسعيد كريفالي نائب مدير مؤسسة بوشو لأجهزة التبريد، وحين لم يجب أحد على الهاتف، قرر ألا يضيع الوقت، وأخرج البطاقة التي قدمتها له موظفة الاستقبال مروة، طلب رقم مؤسسة ألجي إلكترونيك وحصل - بعد التحدث مع السكرتيرة- على موعد مع سبتي بعد ساعة. كانت الشركة تقع في مدينة الحراش على بعد أربعة كيلومترات، ركن سياراته قرب محطة القطار، وفضّل أن يقطع المسافة المتبقية سيرا، فقد يكون ذلك مفيدا من أجل التخلص من الضجر الذي كان يشعر به. كانت تلك المنطقة مليئة بالحركة والنشاط الاقتصادي، وبالرغم من أن الأمر يبدو جيدا، إلا أن معظم تلك الأنشطة كانت غير مقيدة بسجلات تجارية، وهذا ما أفقدها من قيمتها الاقتصادية. سار لفترة بين الباعة الذين احتلوا الأرصفة، ثم نظر إلى ساعته فأدرك أنها قد تجاوزت التاسعة ببضع دقائق، لم يكن قد مر من الوقت غير نصف ساعة، ولم يشأ أن يصل قبل الوقت المحدد، لذا توجه إلى مقهى بمنطقة بلفور، كان يرتاده فيما مضى، واستمر في التحديق في المكان الذي بدا أنه تغير كثيرا، وفي المارة دون أن يحاول التفكير في شيء، كان يريد أن يريح ذهنه قليلا رغم أن المكان الذي اختاره لم يكن مناسبا لذلك، وبعد فترة قصيرة وهو على تلك الحالة، رن هاتفه المحمول، أحس بشيء من الانزعاج وهو ينظر إلى شاشته الصغيرة، كان المتصل شابا صغيرا في السن التحق مؤخرا بسلك الشرطة، يدعى حميد لعميري، وكان هذا الشاب على عكس من يعمل برفقتهم، يهوى التعلم لا

سيما فيما يتعلق بالجرائم الغامضة، ولذلك فقد اتصل به ليلة الأمس وطلب منه اصطحابه من أجل إتمام التحقيق، ولكن اليوم نسي أمره تماما.
وضع شولي يده على ذقنه متفكرا ثم قال بعد أن شعر ببعض الذنب لأجله:
أرجو ألا تكون قد توجهت لشركة بوشو، فالسيد كريفالي ليس هناك.
علمت بذلك، ولكنني اعتقدت في أنك ربما تعاود زيارة السيدة جازية باديس، هل أنت هناك؟
أخبر شولي الشاب بوجهته، وحثه على القدوم في أسرع وقت.
وكانت الشركة تقع في شارع أقل ازدحاما، ذات واجهة جميلة وبها حراسة أكثر من اللازم، خمن شولي في أن السبب يعود لكون المعدات بالداخل تقدر بالملايير. حين دخل أخبره الحارس أن هناك من كان يسأل عنه، ثم أرشد إلى قاعة صغيرة مخصصة لتناول القهوة والمشروبات، كان حميد لعميري يقف حينها قرب طاولة مرتفعة مع شاب آخر في مثل سنه، وكان يبدو متوسط القامة، يرتدي ثيابا بسيطة، قميصا خفيفا مناسبا لبداية فصل الخريف، وسروالا يميل إلى اللون الأسود، وكان الشاب بقربه يفوقه طولا ويرتدي بدلة أنيقة مع ربطة عنق، أعجب شولي لوصوله بتلك السرعة، وسأله عن الشاب الثاني بعد انصرافه.
رسم حميد على ثغره علامة عدم الاهتمام، وقال: لا أعرفه، فقد تعرفت عليه في الوقت الذي كنت انتظرك، فهو يعمل بأحد المكاتب في هذه الشركة. ثم أشار إلى كوب الشاي على الطاولة وأضاف: هل تشرب شيئا؟
كان شولي يعلم أن وقت الزيارة قد حان، فربت على ذراع حميد وهو يتوجه ناحية الباب: "لقد اتيت للتو من المقهى، دعنا نقابل السيد سبتي".

وخلف المكتب الفاخر الذي كان يتسع لإجراء مقابلة لكرة اليد، كان يجلس الرجل الذي قدما من أجل التحدث معه، كان في حدود الأربعين من العمر، وعلى عكس ما توقع شولي، فقد بدا نحيفا، ذا لحية خفيفة على وجه بشوش، وبمجرد أن دخلا خطا بحركات تنم عن النشاط نحوهما وبادرهما بالمصافحة، تبادل الجميع عبارات الترحيب، ثم دعاهما لطاولة أنيقة من الزجاج على يمين المكتب، كانت تحيط بها ثلاث أرائك، وتعلو الجدار المجاور لوحة زيتية لمنظر غروب بديع.

جلس شولي وحميد فيما ضغط سبتي على زر بمكتبه، فظهرت الفتاة الأنيقة التي استقبلتهما عند باب المكتب، توجه بعدها سبتي إلى ضيفيه مجددا وسأل: ماذا تريدان أن تشربا؟

فكر شولي في أن يأخذ فنجان آخر من القهوة من باب اللباقة، فيما اعتذر حميد. نظر سبتي إلى الموظفة، وقال متجاهلا ما قاله الشاب: فنجانين من القهوة وكوب من العصير. وأضاف وهو ينظر إلى الشاب مع ابتسامة ودودة: العصير مفيد لتنشيط الذهن وتقوية العضلات. ورفع ذراعه مبتسما كما يفعل أصحاب الأجسام المكتملة، ثم جلس بجوار حميد قائلا: مرحبا بكم في مؤسسة ألجي إلكترونيك، أرجو أن يكون الاستقبال جيدا.

وأضاف قبل أن يسمع ردا، وهو يشير نحو شولي بيده النحيلة: أظن أنك المحقق أحمد شولي، وأنت مساعده حميد لعميري، وقد جئتما فيما يبدو للتحقيق في قضية مقتل السيد بوشو، رئيس شركة بوشو للمكيفات الهوائية.

تحرك شولي في مكانه، وقال مع ابتسامة لا تكاد تظهر على وجهه: هذا صحيح، وأشكرك سيدي لأنك اختصرت لنا المقدمات لندخل مباشرة في الموضوع.

قال سبتي كاشفا عن رغبته في عدم إطالة الجلسة: وهذا ما أريده سيدي المحقق، أن ندخل مباشرة في الموضوع، وإن كان بإمكاني المساعدة، فلن أبخل أبدا بأي شيء.

حسنا، أريد أن أعرف نوع العلاقة التي كانت تربطك بالسيد بوشو.

تململ سبتي في مكانه، ثم أجاب: لست أدري ماذا تقصد بالضبط من هذا السؤال، ولكن يمكنني أن أجيبك حسب فهمي، وهو أنه لم تكن لي أية علاقة بالمرحوم بوشو خارج نطاق العمل، ولهذا فإن وفاته لم تشكل لي صدمة على المستوى النفسي، بقدر ما كانت خسارة كبيرة للشراكة التي كانت تجمع بيننا.

وعادت الموظفة بسرعة تحمل ما طلبه منها، وحين انصرفت حمل سبتي فنجانه، وقال وفي نيته أن يتكلم عن كل ما يمكن أن يسأله المحقق: قد تتساءل سيدي المحقق عن المخاوف التي صِرت أتوجّس منها بعد وفاة رضا بوشو رحمه الله، فالرجل ليس له وريث غير زوجه التي لا أعرف عنها شيئا، أي لست واثقا إن كان لها القدرة على تسيير الشركة والحفاظ على أملاك زوجها، أما إن صدقت مخاوفي فلن يكون مصير الشركة أحسن من مصير شركة لاكريب للأجهزة الإلكترونية، وفي هذه الحالة سنخسر في جميع الصفقات التي عقدناها معهم، وهذا ما سيؤثر سلبا على مركزنا في السوق.

نظر شولي مباشرة إلى عيني سبتي الغائرتين، وكأنه يقرأ شيئا ما بهما، ثم سأل: وما هي نوع الشراكة التي كانت تجمعكم بشركة بوشو؟

تراجع سبتي بظهره نحو الخلف، وقال: أنت تعلم أن شركتنا متخصصة في الأجهزة والرقائق الالكترونية، والتي بات من النادر أن تخلو منها أي صناعة، كما أنه لدينا مجموعة من التقنيين ذوي الكفاءة العالية، لهذا، وبحكم أن الأجهزة التي تنتجها شركة بوشو تعتمد كثيرا على المواد التي نصنعها، فليس من الغريب أن تكون هناك شراكة بيننا.

قاطعه شولي: إذن فشركة شولي لا تعدو شركة لتركيب الأجهزة.

ليس تماما، فالكثير من الشركات الكبيرة تعتمد على مثيلاتها في خدمات معينة كالتسويق مثلا؛ بحيث يصعب على أي مؤسسة أن تقوم بكل الأدوار بنفسها، إلا في بعض الحالات، ومنه تستطيع القول أن شركة بوشو تعتمد على شركتنا في المجال التكنولوجي وتطوير الأجهزة، وهذا منذ أن تأسست قبل حوالي عشرين عاما، ولكن حجم ونوعية المعاملات تغيرت بالطبع منذ ذلك الحين إلى الآن، وهذا لاتساع حجم السوق وتغير أرقام الاستثمارات، ولقد واجهتنا طوال هذه المدة الكثير من العراقيل، ولكننا استطعنا أن نتغلب عليها.

إذن طوال هذه المدة، أي ما يفوق عشرين عاما لم تنشأ بينك وبين السيد بوشو أي علاقة من علاقات الصداقة المقربة.

قام سبتي من مكانه واستدار نحو الرجلين بعد أن خطا بعض الخطوات، وقال: سيدي الضابط، كنت أنا والسيد بوشو عمليين إلى أبعد حد، لهذا لم نكن ندخل العواطف كثيرا خلال العمل، فهذه الأمور تكون في الكثير من الأحيان حسب رأيي، سببا في إفساد الصفقات، لذلك كنا دائما نترك مسافة بيننا، وبفضل هذه الطريقة حققنا كل هذا النجاح الذي تراه الآن.

استمر حميد في الاستماع لكلام الرجلين محاولا الحصول ما قد يفيد القضية، أما شولي فواصل طرح الأسئلة: على ذكرك للعراقيل، أود أن أعرف طبيعة العراقيل التي واجهتك مع السيد بوشو مؤخرا.

تبسم سبتي وقال: إنه من الصعب أن تجد عملا من دون عراقيل، ولهذا كما أخبرتك، فمنذ أن بدأت العمل في هذا المجال وأنا أصادف المعوقات والمشاكل وأعمل على حلها، ولم تكن العراقيل التي واجهتنا مع السيد بوشو لتخرج عما كنا نواجهه منذ أن بدأنا معا العمل، أما إن كنت تقصد خصومات مع السيد بوشو -رحمه الله- فهذا لم يحدث، وقد كان الاجتماع المتفق عليه صبيحة مقتله لا يخرج عما اعتدنا القيام به من قبل.

تذكر شولي ما قالته موظفة الاستقبال في شركة بوشو، فقال: ولكنني سمعت بأنكم ستوسعون استثماراتكم.

عاد سبتي للتبسم وهو يجيب: أجل، ولم يفاجئني أنك تعرف ذلك، لأن الأمر لم يكن سرا، وهذا دليل على أن العلاقات بيننا كانت على أحسن ما يرام.

ربما كانت العلاقات بينكما على أحسن حال، ولكن قد لا تكون كذلك بالنسبة إلى آخرين.

أجاب سبتي مبديا عدم الاهتمام: ربما تكون كذلك، ولكنني لا أتدخل في العادة فيما يكون بين الغير من خصومات.

أحس شولي ببعض التعب، بيد أنه قرر أن يستفيد أكثر مما يمكن أن يعرفه الرجل حول هذا الموضوع: "ولكن من المفيد أن أعرف إن كانت الصفقة التي كنتم تنوون إبرامها سببا في توتر علاقاته مع البعض."

لست أدري، ولكن ما أعرفه أنه في مثل هذه المواقف، إن كنت تود أن تنال صفقة ما، فعليك أن تقدم العرض الأفضل، وإن ضيعت الفرصة، فلا يمكنك أن تلوم إلا نفسك.

رأى شولي أنه عليه أن يطرح أسئلة مباشرة على الرجل، فلم يعد يفيد التلميح بعد الآن: "ما هي الشركات التي قد تشكل صفقتكم خسارة بالنسبة لها".

نظر سبتي إلى حميد لأول مرة منذ أن بدأ الحديث قبل أن يجيب: لا أعتقد أن هناك من يهتم لما نفعله، فليس هناك الكثير من الشركات المحلية والمتخصصة في عملنا قد يسوءها الأمر، ولكن هناك شركة صغيرة تصارع في السنوات الأخيرة من أجل البقاء، تدعى يطاغن، وقد كان لشركة بوشو بعض المعاملات معها، ولكنني لا أظن أنها بالحجم الذي يمكنها من التنافس.

ثم نظر إلى حميد مجددا وقال: لا أراك تشرب العصير.

وحين مد الشاب يده إلى الكوب خجلا، أخذ شولي رشفة من فنجانه هو الآخر، وقال: لمّا تأخر السيد بوشو عن الاجتماع يوم مقتله، هل كنت أنت من قام بالاتصال به؟

حينما أكون في أعمال رسمية أترك دور الاتصالات للموظفين، ولذلك فسكريتيرته هي من قامت بذلك.

قام شولي وقال وهو يمد يده للمصافحة: أشكرك سيدي على الوقت الذي خصصته لنا، طاب يومك.

وبعد أن خرجا من المكتب، صادفا خلال نزولهما الشاب الذي كان حميد يتحدث إليه في المقهى، لم يكن الحديث طويلا، وحين افترقوا قال شولي: أرى أنك سرعان ما كونت صداقة هنا.

تبسم حميد واكتفى بالقول: لم يصل الأمر إلى درجة الصداقة.

وظلا صامتين إلى أن عاود شولي الكلام وهو على مقعد السيارة: ما رأيك فيما سمعت من سبتي؟

تردد حميد ثم قال: بصراحة لست أدري لماذا طرحت عليه كل تلك الأسئلة.

وماذا عن إجابات الرجل، هل وجدت فيها ما أثار انتباهك؟

أرى أن الرجل ليس له أي علاقة بمقتل شريكه بوشو.

نظر شولي إلى تلميذه، وقال: من المبكر جدا الوصول إلى الأحكام، فالنتائج تثبتها الحقائق وليس التخمينات.

وكان حميد قد وصل إلى بعض الاستنتاجات، إلا أنه رأى أن زميله ليس في حاجة إليها، فتساؤل بدلا عن ذلك: إلى أين نتجه الآن؟

إلى رجل يعرف الكثير عن علاقات السيد بوشو.

فكر حميد للحظة ثم سأل: من؟

سنزور علي سعدي.

06

لم تستطع جازية بعد تلقيها الاتصال الهاتفي من الشرطة أن تجلس مكتوفة اليدين، كانت تفكر بتوتر وهي تخطو ذهابا وإيابا في قاعة الجلوس، وفجأة صعدت إلى غرفتها وقامت بتغيير شكلها بسرعة، ثم فتحت أحد الأدراج وأخرجت مفاتيح سيارتها التيقوان 'tiguan' وتوجهت نحو الكراج، كانت تملك رخصة قيادة إلا أنها لم تكن تحسن القيادة جيدا، فقد كانت تخشى أن تقود لوحدها في الطرقات المزدحمة، و كان زوجها دائما يقول إنه سيأتي يوم تظطرين فيه للقيادة بمفردك، ولكنها لم تكن تكترث. عرفت الآن أنه من المفيد أن لا يعتمد المرء على الغير في كل شيء، وبعد أن ضغطت على دواسة الوقود واستطاعت التحرك لبضع أمتار، شعرت بالثقة واتجهت نحو حي فايد الذي قضت فيه طفولتها، حين وصلت لم يكن من السهل عليها أن تتوقف في تلك المساحات الضيقة، وأخيرا، وجدت مكانا مناسبا فركنت سيارتها وهي تحس بأنها اجتازت الاختبار بنجاح، نظرت إلى بيوت القصدير المتهالكة، والمياه القذرة التي تنساب بين الأزقة الترابية... إلى خيوط الكهرباء المتشابكة في فوضى عارمة على رؤوس الأكواخ، والنفايات الملقاة في كل مكان، فغمغمت في حيرة: لست أدري ما الذي أعجب أمي في هذا المكان؟ وخطت في أزقة تعرفها جيدا حتى وصلت إلى البيت الذي كانت تقيم فيه، والذي كان مبني بالصفائح المعدنية وبعض حبات الآجر، دفعت الباب الذي كان قطعة من الخردة فوجدته مقفلا، كان بإمكانها أن تجد المفتاح عند إحدى الجارات، ولكن لم تكن لها حاجة في الدخول إذا لم يكن بالبيت

أحد، نظرت من حولها فلم تر غير بعض الصبية يلعبون من بعيد، طرقت على باب مجاور، فخرجت سيدة نحيفة ترتدي جبة مزينة بأشكال صفراء وبنية، وكانت تضع حزاما على خصرها وغطاء على شكل عصابة على رأسها، أما أكمامها فبدا عليها وعلى جزء من يديها شيء من بقايا الصابون، ما إن رأتها المرأة حتى خطت خارج البيت نحوها وهي تقول: ما هذه المفاجأة السارة، جازية.. ابنتي كيف حالك؟ مضى وقت طويل لم نرك فيه.

واستمرت في الثرثرة دون توقف، فيما اكتفت جازية بالتبسم والقول: بخير خالتي عيشة، شكرا لك، وأنت كيف حالك وحال زوجك؟ عمي عمر، والأولاد؟

بخير شكرا لك.

وأشارت إلى كوخها الذي لم يكن أحسن حالا من بقية الأكواخ، وهي تقول: تفضلي إلى البيت فأمك ليست هنا.

لا شكرا خالتي عيشة، أريد أن أعرف فقط إن كان ابن خالتي هشام قد جاء إلى البيت أثناء غياب أمي.

هزت عيشة رأسها نافية: لا لم أره، فلو فعل لسمعت صرير الباب عند دخوله.

قالت جازية موافقة: صحيح فالباب يصدر صوتا عاليا عند فتحه.

ثم نظرت حيث كان يلعب الأطفال وأضافت: حسنا، ربما كان أحد من أبناء الحي يعرف مكانه، فقد غادر بيتي بالأمس ولا ندري أين اتجه.

وكانت المرأة تعلم نوع الشباب الذين كان يصاحبهم، فقالت ملمحة لاعتقاله: أرى أن تتصلي بالشرطة فقد يعرفون مكانه.

وبقيت جازية تتلفت علّها تجد شخصا تسأله وهي تقول: لا، فالشرطة لا تعرف أين هو.

قالت عيشة بنبرة قلقة: يا إلهي أرجو أن يكون بخير.

ثم استدركت محاولة المساعدة: كنت أراه أحيانا يتجول مع معمر بن لحسن، ولكنني لم أعد أرى ذلك الشاب هو الآخر، ربما كانت أمه تعرف مكانه!

شكرت جازية المرأة واتجهت إلى باب رمادي عند الزاوية، وبعدما انتظرت لبعض الوقت خرج طفل في العاشرة من العمر، سألته عن أمه، فلم يجب وانطلق بسرعة إلى الداخل، ثم عاد في لحظات: "إنها قادمة".

وكانت المرأة بخلاف عيشة تميل للسمنة، محسورة الشعر صغيرة العينين تدعى ربيعة، لم تبتسم حين رأت جازية وبدا من صوتها الضيق والغضب: ماذا تريدين؟

تعجبت جازية من ذلك الجفاء ولكنها حاولت أن تكون ودودة: صباح الخير.

لم ترد المرأة التحية، وردت بنفس النبرة: ومن أين يأتي معكم الخير، قولي ماذا تريدين؟

أحست جازية بغضب لم تستطع السيطرة عليه، فصاحت في وجه المرأة: ولماذا تتحدثين إليّ هكذا؟ آه أخبريني؟ ماذا فعلت لك؟ هل أنت مدينة لي بشيء.

صاحت المرأة هي الأخرى بصوت مفزع: أنتم سبب البلاء الذي حل بي، هيا ارحلي من هنا لا أريد أن أرى وجهك.

ومن قال بأنني أود رؤية وجهك بعد الآن؟

وارتفع صياحهما في الزقاق، فبدأت الأبواب تفتح وتطل منها أعين حائرة، وحينما احتدّ الشجار تدخلت بعض النسوة لإبعاد المرأتين، وراحت سيدة تدعى جميلة تمسك بذراع جازية، وحين استطاعت أن تبعدها قليلا قالت: دعيها فقد سجن ابنها، وهي تظن أن ابن خالتك هو من قاده إلى طريق الإجرام.

صرخت جازية في وجه ربيعة دون أن تشعر: بل هم من أغووا هشام وعلموه السير في الطريق الخطأ، هم اللصوص الملاعين وقطاع الطرق.

وحررت ذراعها من القبضة القوية للمرأة واتجهت نحو سيارتها، كان الأمر في غاية الجنون، حتى هي نفسها لم تصدق أنها قالت كلاما مشينا لتلك المرأة، ولكنها لم تكن التي بدأت الشجار، ضغطت على دواسة السرعة بقوة وهي تشعر برغبة في البكاء، إلا أنها أقسمت ألا تذرف المزيد من الدمع مهما حدث، لابد أن تكون قوية، هي الآن وحيدة وعليها أن تواجه المصاعب بنفسها، وحين تحركت السيارة قليلا سمعت صوت ارتطام صغير في الخلف، توقفت وأطلت من نافذة السيارة، فرأت الطفل ذا عشر سنوات يحمل حجرا وينظر نحوها، فكرت في أن تنزل وتلقنه درسا، ولكنها انطلقت متجهة نحو حي مجاور كان أكثر حداثة. سارت في شارع واسع ثم انعطفت نحو مقهى يدعونه "قهوة الحاج عمر"، وكان من المقاهي المخصصة للرجال فقط، حين همت بالدخول خمّنت أن وجودها هناك سيكون غريبا و سيثير انتباه كل الحضور إليها، بل وستجعل من نفسها مرمى لأنظار قد تأخذها الظنون إلى أنها امرأة غير محترمة، كانت تفكر وهي واقفة على الرصيف المقابل، ثم اهتدت لأن ترسل أحدهم ليقوم بهذا الدور، شخصا لا يلفت الانتباه.. وابتعدت بضع أمتار عن المقهى، وراحت تتجول في الأزقة المجاورة

واضعة يديها في جيب معطفها الطويل، كانت تلاحظ المارة والمنزوين بلا عمل على طول الجدران والأرصفة إلى أن عثرت على الشخص المناسب، رجل يبدو في حاجة إلى كسب المال، ولم يكن يظهر أنه يعبث في الشوارع، اقتربت منه وطلبت منه المساعدة، وما كان الرجل ليرفض مساعدة سيدة جميلة ولو بدون مقابل، ولكنها أخرجت مجموعة من الأوراق النقدية من فئة ألفي دينار، ثم أشارت الى المقهى وطلبت منه الاستفسار عن ابن خالتها إن كان أحد قد رآه، ولحسن حظها أنها كانت تحمل إلى جانب النقود في المحفظة صورة صغيرة له، قالت وهي تريه الصورة: ستجدني بانتظارك هنا.

اتجه الرجل إلى المقهى تحت نظرات جازية إلى أن دخل، وعاد بعد مدة وهو يقول: الجميع يقول بأنهم لم يروه منذ يومين.

وفكرت أن ذلك قبل أن يتوفى زوجها بيوم، ثم شكرت الرجل وعادت إلى السيارة. شعرت بخيبة أمل، وتساءلت أين يمكن أن يكون ذلك الشقي؟ هل من الممكن أن يكون هو من قتل زوجها وفر إلى مكان ما؟ يا لها من أفكار سيئة، أحست بالذنب وهي تفكر بذلك الشكل.

دخلت بيتها فوجدت الباب كما تركته مفتوحا، ثم سمعت صوتا صادرا من المطبخ، خطر لها أن تتصل بالشرطة ولكنها تشجعت وقررت أن تطل أولا بحذر، وعندما اقتربت من الباب رأت خالتها رحمة تخرج وهي تحمل منشفة صغيرة، لم تنتبه رحمة لدخولها، لذلك حين نادتها جازية كادت أن تموت من الفزع، قالت وهي تمسك بصدرها: لقد أفزعتني، يا الله ...كدت أموت أنا الأخرى في هذا البيت اللعين.

وتوجهت إلى جازية وقبلتها، ثم نظرت إليها وعلى وجهها تعابير الإشفاق: كم تبدين شاحبة يا ابنتي؟! تعالي إلي.

وعانقتها بقوة، ثم دعتها لتجلس كما لو أنها هي صاحبة البيت: اتصلت بك على الهاتف فسمعته يرن في الطابق العلوي، لقد خشيت عليك كثيرا، أين كنت؟

لم ترد جازية أن تخبرها بما حدث فاكتفت بالقول: كنت بحاجة للخروج من هذا البيت لأنسى. وبدا أن رحمة كانت توافقها الرأي: "لماذا لا تأتين لتقيمي معي مثلما كنا في الماضي؟".

نظرت جازية إلى عيني أمها وأجابت: أود أن أقيم معك يا أمي، ولكن ليس في ذلك المكان.

وتذكرت ما حدث اليوم فاهتدت إلى مبرر لهذا الرفض: ليس لأنني ألفت الحياة هنا، ولكن لأنني أصبحت غريبة هناك، فكلما ذهبت لزيارتك رمقتني الأعين بنظرات غير ودودة، وشعرت وكأن بقلوبهم حقدا وغيرة لأنني انتقلت للعيش في مكان أحسن، لهذا أود أن تأتي أنت لتقيمي هنا، فهل يعقل أن تبقى شابة في منزل بمفردها؟

تنهدت رحمة بعمق، ووضعت يدها على كتف ابنتها، وقالت: لست أدري، سأفكر في الأمر.

وصمتت لبرهة، ثم تساءلت: ألم يأت الجيران هنا ليقدموا لك العزاء؟

جاء بعضهم بالأمس، ولكن صدقيني لست ذكر حتى من أتى منهم ومن لم يفعل، فقد كنت شبه غائبة عن الوعي.

ونظرت إلى الساعة فرأت أنها تقارب منتصف النهار، تساءلت إن كان أحد ما قد جاء في غيابها، فأجابت رحمة: لا، لم يأت أحد.

علقت جازية: من الصعب أن تعرفي كيف يفكر الناس أو تتوقعي تصرفاتهم، كما لست أدري ما الذي يقولونه فيما بينهم، فلا أظن أنهم

يتحدثون عن شيء بقدر ما يتحدثون عني وعن مشاكلي، وربما يعتقد بعضهم أنني من قتلت زوجي.

عليك ألا تكترثي بما يقوله الناس، وأن تعيشي حياتك رغما عن الجميع.

هذا ما أنوي فعله حقا.

ثم رفعت رأسها وقالت: أمي.. ألا تشمين شيئا؟

وانتفضت رحمة من مكانها، وقالت وهي تسرع إلى المطبخ: يا إلهي لقد نسيت الطعام فوق النار.

ولم تشأ جازية أن تتبعها، وبقيت في مكانها شاردة الذهن حتى عادت: "هل احترق؟"

لحسن الحظ أنني وصلت في الوقت المناسب.

ثم قالت وهي تعاود الجلوس في مكانها: أخبريني كيف قتل زوجك، وأين كنت حينها؟

كانت جازية قد أخبرت أمها بكل شيء حين قدومها، ولكنها كانت تعلم أنها تحب الاستماع إلى الأخبار أكثر من مرة، وحين اعادت سرد ما حدث ذلك اليوم، علقت رحمة بحزن: يؤسفني أن يكون كل ذلك حدث في بيتك. يا للرجل المسكين!

ورمقتها جازية بنظرة شك، ثم قالت معاتبة: لماذا تتظاهرين بالحزن فأنت لم تحبينه قط؟!

لم أرد أن ترتبطي به أول الأمر، ولكن حين صار زوجك، لست حزينة من أجله بقدر ما أنا حزينة لكونك أصبحت أرملة.

اتكأت جازية وهي تقول: آه، لست أدري من سأصدق هذه الأيام؟!

واقتربت منها رحمة وفي عينيها مسحة أسى وحسرة واضحتين: تبدين على غير عادتك يا صغيرتي، ماذا حدث؟

شعرت جازية بانهيار تام، فضمت أمها وقالت بصوت لا يكاد يسمع: لم أجد هشام في أي مكان، أخشى أن يكون أصيب بسوء.

اتجهت سيارة شولي إلى حي راقٍ بمدينة القبة، وبالقرب من مبنى فخم تحيط به مساحة خضراء، أوقف سيارته وتوجه برفقة حميد إلى المدخل، كان قرب الباب رجل في منتصف العمر يعتني بالأزهار والنباتات التي تزين المكان، يدعى دحمان خليل، توجه نحوه وسأله عن المحامي فرد الرجل ببساطة: لست متأكدا، ولكن إن كانت سيارته هنا فلا بد أن يكون موجودا، إذ لم أره يوما يغادر أو يعود دون تلك السيارة.. دعني أتحقق.

وتوجه إلى زاوية تحجبها بعض الشجيرات، ثم قال: السيارة في مكانها، اسمحا لي أن أخبره بقدومكما. وابتعد خطوتين ثم عاد للتساؤل: ولكن من أقول له؟

قل المحقق شولي يريدك.

نظر الرجل إليهما بارتياب ثم دخل البيت، وعندها قال حميد وهو ينظر إلى البيت: لم أكن أعرف أن المحامين أثرياء إلى هذا الحد.

إذا كنت محاميا ناجحا، فيمكنك أن تكسب ثروة حقيقية في أيام.

وبينما هما منشغلان بالحديث عن جمال المكان، سمعا صوت الرجل يقول: تفضلا.

وكان سعدي يحتسي فنجان قهوة، ويجلس في قاعة واسعة تكاد تخلو من الأثاث، وبقربه طاولة منخفضة مليئة بالأوراق والمستندات، حين تقدما، قام من مكانه واتجه نحوهما: مرحبا بالمحقق شولي، مرحبا بك سيدي، مرحبا بكما، عذرا على هذه الفوضى، فقد كنت منشغلا ببعض القضايا.

قال شولي: بل نحن من يعتذر، فربما سنشغلك لبعض الوقت.

لا، لا أبدا، تفضلا إلى غرفة الضيوف.

اتصلنا بك في المكتب، وقيل باحتمال وجودك في البيت.

ضحك سعدي باصطناع، وأجاب: أحيانا أفضل أن أعمل في المنزل على أن اذهب للمكتب، فهنا أجد راحتي.

أنت على حق، فالمكان يساعد على الاسترخاء.

أشار سعدي إلى باب زجاجي يقود لمساحة صغيرة قرب الحديقة، كانت تظهر منه طاولة حجرية مع مجموعة من الكراسي، وبعض النباتات الجميلة تتمايل مع نسمات الهواء العليل: " إذن، لم لا نتحدث في الخارج إن كان المكان قد أعجبكما إلى هذا الحد".

وهناك دعاهما سعدي للجلوس، فيما توجه ليطلب من البستاني إحضار شيء للضيوف، وعندما عاد، قال وهو يجلس على كرسي مقابل: يسعدني أنك بخير سيد شولي، فاليوم تبدو أفضل حالا.

شكر شولي المحامي، ثم قال دون مقدمات: كنا للتو في شركة ألجي إلكترونيك.

بدا على سعدي الدهشة، ولم يستطع إخفاء ذلك: ما الذي كنتما تفعلانه هناك؟

أليس سبتي شريك لبوشو؟

أجل، ولكن لست أفهم ما علاقته بالجريمة؟

نظر إليه بوشو معاتبا وهو يقول: لا أظن أن رجلا مثلك يجهل أنه علينا استجواب كل من له علاقة بالقتيل.

استرخى سعدي وأظهر عدم الاهتمام: أعلم، ولكنني كنت أظنك ستركز جهودك على المشتبه به الأول، أعني قريب زوجة بوشو.

لا أدري كم سيطول الوقت لإيجاد ذلك الشاب، وأنا أحتاج لأجمع كل المعلومات ذات الصلة بالقضية في أقرب وقت.

حسنا، وهل ذكر سبتي ما أثار فضولك؟

أمدني ببعض المعلومات، ولكنني لا أرى لها فائدة الآن، ربما أجد عندك ما تضيفه في شأن خصومات السيد بوشو.

لا فكرة لديّ عما أخبرك به سبتي بالضبط، ولكن كل ما أعرفه أن شركة ألجي إلكترونيك كانت تعاني من بعض الصعوبات المالية، وغدت مؤخرا غير قادرة على المنافسة حتى مع الشركات المحلية، وهذا ما جعل سبتي يسعى بكل جهد لعقد صفقة جديدة مع بوشو من أجل إنعاش شركته.

قاطعه شولي: أتقصد أن سبتي لم يعقد مؤخرا أي صفقة مع بوشو؟

هذا صحيح، لهذا فقد كان من المفترض أن يلتقي الطرفان صبيحة الأمس، ولكن أمرا ما حال دون ذهاب بوشو لهذا اللقاء.

تذكر شولي أن سبتي لم يقل أبدا أنه عقد صفقة، وكل ما في الأمر أن موظفة الاستقبال بشركة بوشو هي من تحدثت عن نية الطرفين في إبرام مزيد من الشراكة بينهما، فإن كان قد أخطأ في هذا الأمر، فهذا دليل على أنه لا يزال يعاني من الإرهاق، وهو في حاجة لأخذ راحة طويلة.

عاد سعدي للحديث حين لم يعلق شولي على قوله: إذن فقد أخبرك سبتي أنه أبرم صفقة جديدة مع بوشو؟

في الحقيقة لم يقل ذلك، ولكن كان واثقا من خلال حديثه بالقدر الذي تعتقد أنه فعل.

على كل حال كان بإمكان شركة ألجي إلكترونيك أن تفعل أي شيء لتنال تلك الصفقة.

شعر شولي أن المحامي يخفي ضغينة لتلك الشركة، ولم يجد في الاستمرار في ذلك الحديث ما يخدم القضية، ولذلك قام من مكانه وقال: على كل حال، شكرا لك سيد سعدي على المعلومات التي قدمتها، فحتى وإن كان سبتي حريصا على أخذ تلك الصفقة، فلا أظن أن قتله سيكون وسيلة ناجحة لفعل ذلك.

قام حميد من مكانه هو الآخر، فيما رد سعدي وهو لا يزال جالسا: ربما كانت وسيلة ناجحة إن كان يراهن على خليفة بوشو في الشركة من أجل الحصول على الصفقة... أقصد السيدة جازية باديس زوجة بوشو، فأنت تعلم أنه لا يوجد من سيرث الشركة غيرها.

نظر شولي إلى المحامي باهتمام وسأل: وهل حاول سبتي أن يتصل بجازية دون علم زوجها؟

لست متأكدا من ذلك، ولكن أريد فقط أن أنبهك بأن هناك احتمالات واردة دائما في أي شيء.

قال شولي وهو يهم بالانصراف: سنتحقق من الأمر على أي حال، شكرا لك سيد سعدي على هذه الجلسة اللطيفة.

قام سعدي وهو يقول: ألا تنتظران حتى يأتي دحمان بالقهوة، لقد تأخر قليلا، ولكنه سيأتي في أية لحظة.

سأل حميد لأول مرة: هل تعيش وحيدا هنا سيد سعدي؟

نظر سعدي نحوه كمن فاجأه السؤال، ثم أجاب وهو يبتسم: لي زوجة وابن يدرس في بريطانيا منذ فترة، وقد سافرت إليه أمه بناء على طلبه، لعله بدأ يحس بالحنين والوحشة، فكان من الأفضل أن تؤنسه لبعض الوقت.

قال شولي ضاحكا: لو أنك زوجته لما شعر بالحنين لأحد.

تبسم سعدي وأجاب: لا يزال في أوائل العشرينات، وأنا لا أريده أن يهتم بشيء آخر الآن غير الدراسة.

حين اقتربوا من باب البيت، ظهر دحمان يحمل صينية قهوة ويتجه نحوهم، أشار نحوه سعدي وقال: لا داعي للقهوة دحمان، عد بها للمنزل.

حينما عادا إلى السيارة، حاول حميد أن يناقش بعض النقاط مع شولي، ولكن هذا الأخير رد بشيء من الضجر: دعنا من كل هذا لو سمحت، فلا طاقة لي في أن أفكر في أي شيء الآن.

وما الذي تنوي فعله؟

سأوصلك إلى المركز وأعود إلى البيت، أريد أن أرتاح قليلا، أما أنت، فيمكنك بعدها أن تبحث عن قريب زوجة بوشو، وإن شئت أن تزور السيدة وتلقي عليها بعض الأسئلة فافعل.

أحس حميد وكأن شولي انهار تماما في تلك اللحظة، حاول أن يقول شيئا، ولكنه فضّل الصمت طوال الطريق، حين توقفت السيارة وفتح الباب للنزول، سمع شولي يقول: سنلتقي في الغد -إن شاء الله- لنناقش ما توصلنا إليه.

انطلقت سيارة الأكسنت مجددا، فنظر نحوها حميد وهي تتحرك ناحية الغرب، ثم اختفى داخل البناية التي كانت تقف وسط مدينة المحمدية، اتجه نحو مكتب في الطابق الأول، وهناك كانت تجلس شرطية جميلة، تعتمر قبعة بلون البذلة الرسمية الزرقاء، ينسدل على جانبي القبعة شعر أسود ناعم ويمتد حتى أسفـ الأذنين، نظرت إليه بعينيها الواسعتين وهو يخطو داخل الحجرة، ثم قالت مبتسمة: كيف كان يومك مع العجوز شولي؟

جلس على كرسي قريب، وقال: إنه يبذل ما بوسعه كميليا، ولكنه صار مرهقا، فالعمل أتعبه كثيرا.

عقّبت كميليا قائلة: خمسة وعشرون عاما من العمل، كلمة يسهل قولها باللسان فقط.

رد حميد موافقا: معك حق، فلم تمضِ علي سنة واحدة في الخدمة، وأفكر جديا في التقاعد.

ضحكت كميليا ضحكة أفشت عن أسنان نظيفة ومتسقة، ثم قالت ممازحة: صحيح، فأنت تبدو في غاية الإرهاق، ولكن لا تزال الطريق أمامك طويلة يا أخي.

ثم وضعت القلم الذي كانت تحمله فوق سجل بالقرب منها، وسألت: هل أحرزتم أي تقدم في القضية؟

ليس بعد، أحتاج إلى التحدث مع نوفل، فقد أخبرني شولي إنه أرسله ليتحرى عن قريب زوجة بوشو.. ذلك المدعو هشام جازم.

لقد غادر منذ ساعتين ولم يعد، دعني أتصل به.

وسارت نحو هاتف في المكتب المجاور، ثم عادت بعد دقيقة تقول: إنه آت، قال بأنه كان في سجن المحمدية.

وماذا كان يفعل هناك؟

لست أدري، حين يأتي اسأله بنفسك.

قال حميد وهو يخرج من المكتب: عندما يصل أرجو أن تخبريه أنني انتظره بمكتبي.

وبعد مرور أكثر من نصف ساعة، قضاها حميد في محاولة فهم تفاصيل القضية، جاء نوفل حميدي أخيرا، وهو من نفس دفعة تخرجه، إلا أنه كان

يبدو أصغر سنا، لم يكن راضٍ على هذا الاستدعاء، فقال بنبرة جافة: ماذا تريد؟

لم يظهر حميد أي انزعاج، ورد بهدوء: ماذا كنت تفعل في سجن المحمدية؟ تطايرت من عيني نوفل شرارة غضب، ولكنه لم يرد أن يفجر كل ما يحس به، فقال بصوت أقل حدّة مما في داخله: أظنك لست رئيسي لتسألني هذا السؤال؟ أخبرني ماذا تريد أو دعني أغادر.

وكان أحيانا مما يعرقل العمل، هو عدم وجود نية لتقاسم الجهود لدى البعض، أما حميد فكان أكثر هدوءا لإدراكه مخاوف زميله، فابتسم ليلطّف الجو، وقال: بل نحن زملاء، وقد سألتك لأنني تفاجأت بذهابك لذلك المكان، كما أن شولي هو من طلب مني أن أعرف منك إن كنت قد عثرت على مكان الشاب هشام جازم.

وظهر أن هذا الكلام قد ألقى في نفس نوفل بعض السكينة، فسأل: وأين هو شولي الآن؟

لم يستطع المجيء إلى المركز، فطلب مني أن أنوب عنه.

وصمت نوفل وكأنه كان يصارع نفسه للبوح بما وصل إليه ثم قال: حسنا، مجمل القول أن الشاب مفقود ولا أحد يعرف مكانه، هذا ما علمته من كل من له صلة به، ومن المرجّح أنه قام بتلك الجريمة وفر دون أن يترك أثرا لوجوده، وفي هذه الحالة لابد أنه سيحتاج إلى المساعدة لفعل ذلك، وبناء عليه بحثت عن قائمة أصدقائه المقربين، فأكدوا جميعهم أنهم لم يروه، كما علمت أن له صديق اسمه معمر بن لحسن، والذي كان من غير المحتمل اتصال هشام به، لوجوده في السجن منذ أيام، فلم تكن لي نية في

استجوابه في البداية، ثم خطر لي أن هشام ربما كان قد أخبره فيما مضى بأي شيء قد يساعدنا.

قال حميد بفضول: وبماذا أخبرك؟

حين قابلته في السجن، كان في نفسية لا تسمح له بالكثير من الكلام، ولم أتمكن من استجوابه إلا بعد أن وعدته بتخفيف الحكم إن كان متعاونا، ومنه وبدافع من الأمل، أخبرني بمن كان يروج المخدرات والخمور، ورغم أن هذه المعلومات كانت مهمة في كشف شبكة لترويج الممنوعات، إلا أنه لم يقل عن هشام الكثير، فكل ما ذكره أنهما كانا صديقين منذ الصغر، وأنهما توقفا عن الدراسة في سن الخامسة عشر. قال: أن حياتهما لم تكن ذات شأن، فغرقا في عالم الإدمان نتيجة الفقر والإهمال.

اتكأ حميد على حافة المكتب وقال: ألم يخبرك إن كان قد أسرَّ له هشام بأي خلاف بينه وبين زوج ابنة خالته، أو ربما عن نيته في أن يقوم بعمل عدائي ضدّه.

كل ما ذكره أنه لم يكن يحبه، إلا أنه لم يكن يضمر له شرا، فقد كان بوشو على ما يبدو يعرف بعض سلوكات هشام المنحرفة، مما جعله يتضايق من زياراته لابنة خالته في البيت.

أظهر حميد الحيرة قائلا: لست أدري إن كان هذا يبدو دافعا قويا لارتكاب جريمة.

هو كما قلت، ولكن لا تنسى أن أسباب العديد من الجرائم كانت أبسط من هذه بكثير، فالشجارات التافهة قد تتطور لتجعل المرء غير قادر على التحكم في سلوكاته.

علق حميد: "هذا صحيح" ثم أشار بيده مسلما: دعنا من هذا الآن، ولنفكر فيما بدأنا به، إذا لم يتلق هشام أي دعم من أصدقائه، فلابد أن يكون قد حصل على المال من مكان ما.

وأين بإمكانه أن يحصل على المال من غير ابنة خالته جازية؟

أو يكون قد سرقه بعد ارتكاب الجريمة!

وأسرع حميد إلى ملف القضية الذي كان يحتفظ به فوق المكتب، وقال وهو يقلب الأوراق: ذكر هنا أن الملفات في المكتبة كانت متناثرة حول الجثة، وهذا يعني أن القاتل قد عبث بأغراض السيد بوشو بعد قتله، ولكننا لا نعلم بالضبط ما الذي فُقد.

وحين وصل للصفحة المطلوبة قدمها لنوفل، وأردف قائلا: أتظن أن القاتل كان يبحث عن المال؟

جلس نوفل على كرسي كان قرب الباب مبديا اهتمامه، ثم قال: سيكون من المحزن أن يموت السيد بوشو من أجل بعض الدُريهمات.

اتجه حميد نحوه، وقال بعد أن فرغ نوفل من قراءة فقرة كان قد أشار إليها: لم نتحقق بعد بأن الدافع هو السرقة، خاصة وأننا لم نتيقن من وجود شيء فُقد من المكتب.

إذن علينا أن نعود للتحقق من محتويات المكتبة.

استعاد حميد الورقة، وقال: وكيف نعرف ما الذي فقد، إن كنا لا نعرف ما كان هناك قبل مقتله؟

قد تكون زوجته تعرف.

لا أظن أن الكثير من الأزواج يطلعون زوجاتهم بكل ما يخفونه في البيت، ولكن سنفعل ما بوسعنا، وسأذهب لأستجوب السيدة مجددا هذا المساء، فإن شئت، يمكننا أن نذهب معًا.

وددت لو أفعل ذلك، ولكنني وعدت الضابط فريد صياف أن أصاحبه في مداهمة مروجي المخدرات، هؤلاء الذين أشار إليهم عمر بن لحسن في السجن.

حسنا، ولكن لا تقل إنك سترفض دعوتي أيضا لتناول الغداء.

ابتسم نوفل وقال: آسف فهناك من سبقك إلى ذلك.

تبسم حميد هو الآخر، وهو يشير إلى زميله بمكر: أتمنى لك التوفيق.

08

حين وصل حميد إلى بيت الضحية، ألفى جازية تحاول العودة إلى حياتها السابقة، فقد نظفت البيت، وأعادت ترتيب المكتب مع أمها، كما غيرت ستائر النوافذ بأخرى، وحاولت أيضا أن ترسم بهجة مصطنعة بوضع الزهور ونثر العطور في قاعة الجلوس وفي الردهة التي تقود إلى الغرف، ورغم الابتسامة الباهتة التي كانت تعتقد أنها تخفي بها ما كانت تشعر به، إلا أن حميد استطاع أن يكتشف خلف عينيها الجامدتين دموعا بذلت جهدا لاخفائها، وقلبا منكسرا من الصعب أن يلتئم بالسرعة التي تتوهمها، وشعر حينها بعاطفة رقيقة اتجاهها، ولكنه لم يبدها. دعته إلى قاعة الجلوس ثم جلست بالقرب منه وهي تضع جزءا من ثوبها تحت ساقيها: "ظننت أن المحقق الذي زارنا بالأمس هو من سيعود لاستكمال التحقيق".
ابتسم حميد ورد بخجل: نحن شركاء في هذه القضية، وأنا هنا بناء على طلبه.
لا بأس، يمكنك أن تبدأ ما جئت من أجله، فاليوم أنا أفضل حالا.
هذا يسعدني.
وكانت رحمة قد أعدت صينية القهوة منذ الصباح ترقبا لقدوم أي زائر، فتناول فنجانا من يدها شاكرا، وعاد للقول: أود أن أبدأ من قضية اختفاء ابن خالتك هشام، فهل كان متعودا على الغياب لأيام عن المنزل؟
وعوض الإجابة، نظرت نحو أمها التي بدأ يظهر عليها التوتر، ثم قالت: ألم تعثروا عليه حتى الآن؟

نظر حميد إلى المرأتين بعيون متسائلة، ثم قال: ظننت أنه قد تم الاتصال بكم من مركز الشرطة هذا الصباح.

بلى تلقيت ذلك الاتصال.

وساد الصمت، فبدأ حميد يحس بالقلق: "أرجو ألا يكون قد وصلكم خبر سيء".

لا.. ليس بعد.

ونظرت جازية إلى الطاولة وهي تفرك يديها بتوتر، ثم اختلست النظر إلى أمها التي ظلت صامتة بالقرب منها، وحين شعرت رحمة أن الاهتمام توجه نحوها، أسرعت مجددا إلى المطبخ. تساءل حميد بعد أن أحس بقلق المرأتين: هل هي أم ذلك الشاب؟

لا، ولكنها بمثابة أمه.

ثم استدركت بعد أن عدّلت من جلستها: مسكينة، جاءت لتواسيني فصارت في حاجة لمن يواسيها، فهي لم تسمع باختفائه إلا قبل ساعات، ورغم أنني ظننت أنها أصبحت أفضل إلا أنها لا تزال في حالة سيئة.

نظر حميد ناحية المطبخ وأضاف: إذن فأنت ابنتها الوحيدة!

أجل، ولكنها قامت بتربية هشام كابن لها وأخ لي بعد وفاة أمه وهو صغير.

ثم أخذت نفسا عميقا، وأضافت: وقد كان يناديني في صغره بأختي، ولكن أمي نهته بعد أن أخبرته أنه ليس ابنها، أخبرتني فيما بعد أنها كانت تود أن يعرف الحقيقة في صغره حتى لا يصاب بصدمة حينما يكبر، ومنذ ذلك الحين صار يناديني خالتي رغم أنني لا أكبره إلا بسنتين.

وضع حميد فنجان القهوة على الطاولة، وسأل: وماذا عن والد كل منكما؟

تردد جازية للحظة قبل أن تجيب: كنت أنا يتيمة الأب فيما كان لهشام أب، ولكنه طلق خالتي سمية قبل وفاتها وغادر دون رجعة.
وصمتت شاردة الذهن قليلا، ثم استدركت قائلة: الآن هو يعيش في مدينة الشلف مع أسرته حسب ما علمنا، ولكننا لا نعرف عنهم الكثير.
ألا تظنين أن هشام قد توجه إلى والده بعد خروجه من عندك بالأمس؟!
لا أظن ذلك، فهشام لا يعرف والده، لأن ذلك الرجل لم يزره ولم يهتم لأمره يوما.
ولكن الابن مهما ابتعد عن والده، فسيأتي يوم يبحث فيه عنه، فالأحقاد والضغائن لا يمكنها الصمود طويلا أمام صلة الدم القوية التي تجمع بين الأبناء والآباء.
وحين رأى نظرات جازية المحدقة في وجهه أضاف: غير أن هذا لا يأتي بسهولة، وإنما بعد فترة من الصراع مع الذات، يكون فيها الابن في الكثير من الأحيان منعزلا بعواطفه على الغير ولا يبديها لأحد، فإن أكثر الأسئلة عن والده فهو يشي -في حقيقة الأمر- بما في داخله.
حاولت جازية إنكار هذه الفكرة، ولكنها تذكرت أن هشام سألها ذات يوم عن مكان والده، وحين أخبرت المحقق بذلك، قال: إذا زرنا المكان الذي يسكن فيه هذا الوالد فسنكتشف ذلك، ولكنني أفكر في أنه أينما كانت وجهته فسيكون بحاجة إلى بعض المال.
وبقي بعدها صامتا حتى اضطرت جازية للقول: لست أدري إن كان يملك المال الكافي ليختفي وقتا طويلا.
إذن فأنت لم تعطه في الأيام الأخيرة أي مبلغ.
كان ذلك قبل عدة أيام، ولا أظنه احتفظ بذلك المال كل هذه المدة.

وماذا عن العمل، هل كان يمارس أي نشاط مؤخرا؟
أظنه لم يفعل، ولكن يمكنني أن أسأل أمي عن ذلك إن شئت.
أشار حميد بيده وقال: لا داعي لذلك، فربما أتحدث إليها في وقت لاحق، أما الآن فأود أن ألقي نظرة على مكان الجريمة إن لم يكن لديك مانع.
قامت جازية من مكانها وهي تقول: لا بأس، ولكن لا أظن أن ذلك سيكون مفيدا، لأننا أعدنا ترتيب المكان، وتخلصنا من البساط الملطخ بالدماء.
تبعها حميد وهو يقول: لدينا صور عن مكان الجريمة وبعض التقارير عما حدث، ولكن لا بد من معاينة المكان، كان بودي أن آتي مع المحقق شولي ذلك اليوم، ولكن لظروف خاصة لم أتمكن من ذلك.
قالت جازية وهما يسيران في اتجاه المكتب: لا عليك، فليس لدي مانع على أي حال.
دخلا المكتب، فرأى حميد أنه في غاية الأناقة والترتيب، فقد عملت جازية بجهد لتمحو أي أثر للدماء أو الفوضى. جال ببصره في المكان، ثم سأل: ألم تجدي أي شيء مفقود وأنت تنظفين المكان؟
نظرت نحوه باهتمام وسألت: ماذا تقصد؟
هز كتفيه، وقال: ليس شيئا محددا، ربما مال، أو وثيقة ما، أو حتى أشياء قد لا تبدو لها أية قيمة.
لم أكن أعرف ما كان يوجد بهذا المكتب قبل مقتل زوجي، لهذا لست متأكدة إن كان قد فُقد شيء.
استمر حميد في التحديق في أرجاء المكتب، ثم تفقد بعض الرفوف والأدراج، وبعد مرور بعض الوقت استدار إلى جازية التي كانت لا تزال تراقبه، وقال مشيرا إلى مكان قرب المكتب: إذن فهنا وجدت الجثة؟

هزت جازية رأسها موافقة، فعاد حميد لتفحص المكان عن كثب، وقال كمن يحدث نفسه: حين دخلت المكان لم تعثري على أشياء محطمة، وهذا ما يبعد فرضية أن عراكا قد وقع هنا، كما يشير إلى أن الشخص الذي دخل على الضحية لم يكن غريبا، فربما اعتاد على الدخول إلى البيت.

ونظر إلى جازية التي كانت تقف قرب الباب، ففكرت بسرعة ثم قالت: لم يكن يستقبل زوجي الكثير من الزوار في المنزل، وأكثر من كان يزوره هنا هو السيد سعدي، فهو بمثابة فرد من الأسرة، حتى أنه أحيانا كان يشاركنا الطعام، ويجلس للحديث في أمور ليس لها علاقة بالعمل.

حسنا، لا يمكن الجزم بأنه من قام بهذا الفعل حتى نثبت ذلك.

وضم حميد شفتيه متفكرا، ثم استدرك: احتفظت الشرطة بحقيبة زوجك، وهي الآن في أيد تعرف ما تفتش عنه، ولكنني لم أعثر في قائمة الجرد على أي جهاز حاسوب، كما أنني لا ألاحظ وجود واحد هنا، فهل كان زوجك ممن لا يستعملون التكنولوجيا في عمله؟

بدت جازية وكأنها تبتسم، ثم قالت: لم يكن رضا يستعمل جهاز الحاسوب كثيرا، فقد كان يقول إنه اعتاد على الأوراق التي يستطيع لمسها، إلا أنه كان من حين لآخر يستعمل جهازي المحمول.

سأل حميد بشيء من الحماسة: وهل كان يخزن فيه بعض الملفات؟

هزت جازية كتفيها حين أجابت: لا أظن ذلك، فقد كان يستعمله في الاتصال بشبكة الانترنت فحسب.

ربما من المفيد أن أطلع على بريده الالكتروني إن كان يملك واحدا.

أجل، فأنا من فتح حسابا له، ولكنني لست متأكدة إن كان يستعمله.

وماذا عن كلمة المرور؟

فكرت مجددا، ثم قالت: في الحقيقة كان هو من اقترح تلك الكلمة، ولكنني أحتاج إلى بعض الوقت لأتذكرها.

خطا حميد نحو الباب وقال: دعينا نخرج من هذا المكان.

وبعد أن أغلقت باب المكتب خلفها، سمعته يقول: هل قمت بتنظيف الغرفة التي كان بها هشام؟

نظرت إليه متسائلة، فأضاف: أريد أن أتفقدها لو سمحت.

بدت وكأنها تود أن تقول شيئا، ولكنها أحجمت بعد أن نظرت نحوه، وقالت: لا بأس، تفضل من هنا.

وقادته إلى الطابق العلوي، حيث دفعت أول باب ودعته للدخول، وكانت الغرفة مطلية باللون الأزرق السماوي، وبها نافذة واسعة على يسار سرير متوسط الحجم، وطاولة عليها هاتف ثابت، ومن الجهة الأخرى خزانة صغيرة تجثم وسط الجدار، كما كانت بعض العتمة، إلا انه سرعان ما أشرق ضوء النهار بعد فتح النافذة.

وقفت جازية تراقب حميد لبعض الوقت، ثم قالت: لم يدخل أحد هذه الغرفة منذ أن تفقدت هشام بها يوم الحادث.

غمغم حميد وهو يواصل البحث: "هذا جيد". ولكنه لم يلحظ أي شيء يثير الاهتمام، كانت الخزانة فارغة، وحين عثر على حقيبة ثياب تحت السرير، هتفت جازية: هذه حقيبة هشام التي جاء بها قبل يومين.

وكان بداخلها ثياب مرتبة بإتقان، كيس أسود به حذاء رياضي، وخلف سحّاب صغير، مرطب للشعر وملمع أحذية، ظل كل منهما ينظر إلى الأغراض، ثم أغلق حميد الحقيبة في صمت ووضعها فوق السرير. تساءلت

جازية وقد أقلقتها الهواجس: لماذا ترك حقيبته هنا؟ هل هذا يعني أنه خرج مضطرا من المنزل؟

نظر حميد مباشرة إلى عينيها، وقال: لست أدري، ولكن هذا احتمال وارد.

وتساءلت جازية مرة أخرى محاولة أن تخفف عن نفسها: وقد يكون قد ذهب في رحلة غير متوقعة وسيعود قريبا.

رد حميد وهو يتوجه إلى الباب: أرجو ذلك، لنخرج الآن من هذا المكان.

وعند الدرج استدار إليها، وقال قبل أن ينزل: لا تنسي أن تحضري حاسوبك المحمول لو سمحت.

وبينما انعطفت نحو غرفتها في نهاية الرواق، استمر هو نحو قاعة الجلوس، وهناك وجد رحمة تجلس على إحدى الأرائك وتشاهد التلفاز، كانت تبدو أحسن حالا، وحين أحست باقترابه بدا عليها التوتر، وظلت عيناها مترددة جهة السلالم، فقال مطمئنا: ابنتك بخير، هي في غرفتها وستأتي في الحين.

ونظر إلى الشاشة فشاهد إحدى برامج ناشيونال جيوغرافيك 'National Geographic' عن الحياة البرية، لاحظت رحمة ذلك، فضغطت دون أن تشعر زر الإيقاف ليعود الصمت للقاعة، لم يستمر الحال طويلا وسمعا صوت نعال يقترب.

جلست جازية مباشرة دون أن يبدر منها أي تعليق، فتحت جهازها المحمول، ثم قالت: تذكرت كلمة المرور التي استخدمتها لفتح ذاك البريد، أرجو أن يوصلنا كل هذا لأي شيء.

وانتظرت حتى اشتغل الجهاز وهي تحرك ركبتيها بعصبية، ثم قالت للرجل الذي لا يزال واقفا: اجلس حيث يمكنك رؤية الشاشة.

أحس حميد ببعض الارتباك، ثم جلس غير بعيد عنها، لاحظ أن رحمة تقوم من مكانها فأشارت إليها جازية، وقالت: اجلسي أمي، فالمحقق يحاول اكتشاف أي شيء يوصلنا لمكان هشام.

وحين جلس الجميع ضغطت جازية على بعض الأزرار بسرعة، وظلت تحدق في الشاشة بقلة صبر، ثم قالت: سرعة الاتصال بالإنترنت بطيئة هذا اليوم.

رد حميد ساخرا: ومنذ متى كانت الانترنت عندنا سريعة؟

نظرت إليه وعلى وجهها ابتسامة صادقة هذه المرة، ثم أعادت اهتمامها إلى الشاشة، وبعد دقائق قليلة قالت بخيبة أمل: يبدو أن البريد الذي كتبته لم يعد له وجود، لست أدري إن قام هو بإغلاقه أم أنني ارتكبت خطأ في كتابة العنوان.

وضغطت على الأزرار مجددا، ثم أرخت كتفيها وتنهدت معبرة عن احباطها، فقال حميد وهو ينظر إلى شاشة الحاسوب: ربما يكون قد غيّر كلمة المرور.

حملت جازية الحاسوب الذي كان في حجرها، وضعته فوق الطاولة بعد أن أزاحت مزهرية صغيرة، وقالت: لا أعتقد، فموقع Gmail يعلن أنه ليس هناك حساب بهذا الاسم.

وماذا عن الأبحاث التي كان يجريها على الانترنت، هل تحتفظ ذاكرة الحاسوب بأي منها؟

انحنت مجددا نحو لوحة المفاتيح، وبعد دقيقة اعتدلت ونظرت نحو حميد قائلة: لقد قام بمسح كل أثر لمروره على النت.

اعتدل حميد وقال مهونا الأمر: لا بأس، سنعثر على طريقة ما لإيجاد ما كان يشغله.

وفرك ذقنه متفكرا، ثم نظر إلى ساعته وقام وفي نيته المغادرة: أظن أنه عليّ الذهاب الآن.

قالت جازية وكأنها تفاجأت: ألم تقل إنك تود استجواب أمي؟

عاد حميد للنظر إلى ساعة يده وهو يقول: عليّ الذهاب الآن، ربما أزوركما في وقت لاحق، فهل سأجد أمك هنا؟

أجل فأمي ستبقى معي لعدة أيام.

وقبل أن يغادر تذكر سؤالا لم يرد تأجيله، فقال: هل لي أن أعرف فقط، أين كانت أمك ساعة ارتكاب الجريمة؟

ردت جازية بدلا عن أمها: كانت عند صديقتها، وهي جارة قديمة لنا قبل أن ترحل إلى مكان آخر، هي تقيم الآن في حي قريب بباش جراح.

شكرا لك سيدتي، وعذرا على الإزعاج.

09

في الصباح الموالي انتظر حميد حتى الساعة التاسعة، وحين علم أن المحقق شولي لن يلتحق بالعمل لذلك اليوم، أخذ إحدى سيارات الشرطة وتوجه لزيارته في بيته بمدينة القبة، والذي كان من بين الشقق التي انتقل إليها السكان حديثا، بعضهم كمستأجرين، وبعضهم بعقود ملكية كما كان عليه حال شولي.

ولم يكن من الصعب على حميد أن يعرف إلى أين يتجه، فقد سبق وأن زاره خلال حفلة أقامها بمناسبة ختان ابنه، انتظر لدقيقة إلى أن ظهر شولي في ملابس النوم، كانت تبدو ملامحه متعبة، وإحدى عينيه تميل للاحمرار، ورغم ذلك أشرق وجهه قليلا لرؤية زميله، وقال مع ابتسامة ترحيب: سررت بزيارتك "حميد"، تفضل فليس هناك سواي في البيت.

قال حميد ممازحا وهو يخطو إلى الداخل: إذن فقد تركوك لتحرس البيت... لهذا السبب لم تأت للعمل.

ضحك شولي وأشار إلى قاعة على يمين رواق قصير: وماذا عساي أن أفعل، حكم القانون بأن أبقى في البيت، وعليّ أن أمتثل.

وحين استقر حميد على إحدى الأرائك المصطفة على طول الجدار، تساءل بجدية: كيف حالك؟ أرجو ألا تكون مريضا؟

لا لست كذلك، ولكن وددت أن أستريح هذا اليوم، فلم أعد أقوى على العمل كما كنت في السابق.

وماذا عن القضية التي من المفترض أننا نحقق فيها معا؟، لا تقل إنك تريد أن تتركني أتخبط فيها بمفردي.

ضحك شولي وقال: قبل أن نكمل الحديث، ماذا تريد أن تشرب؟

اجلس يا رجل، فلست غريبا حتى تضيّفني.

تبتسم شولي ووضع يده متكئا على مقبض الباب: كنت أحضّر القهوة على أي حال قبل أن تصل، سأجلب لك فنجانا معي.

وحين عاد بفنجانَي قهوة، جلس بالقرب من زميله وقال: أصدقك القول، فقبل مجيئك كنت أفكر جديا في غلق القضية وتسجيلها ضد مجهول.

شعر حميد بالصدمة، ورد غير مصدق لما يسمع: أتغلق القضية بعد يوم واحد من التحقيق؟!

وضع شولي وسادة كانت فوق الكنبة خلف ظهره، وقال: لم أكن أنوي غلقها الآن، ولكن كنت سأنتظر مدة كافية وأفعل ذلك.

هل أنت جاد؟

أخذ شولي رشفة من فنجانه وأجاب: أنت جديد على المهنة يا بني، ولا تزال غير مدرك تماما لما يجري من حولك، فالكثير من القضايا أغلقت ولم يبذل المحققون فيها ساعة واحدة بعد لحظة المعاينة، ولست أدري إن كان يمكن لوم الجميع، فبعضهم تعرض عليه خمس قضايا في اليوم، وهذا هو الذي لا يمكن أن نتصوره، أي بمعدل مائة وخمسين قضية في الشهر، أو ما يقارب ألفي قضية في السنة، قد تكون بهذه الأرقام الكثير من المبالغة، ولكن لك أن تتخيل حتى مع سدس هذا العدد، كيف يستطيع المحقق أن يفكر في حل أي منها؟ وبهذا تهدر دماء الناس وحقوقهم، ويجد المجرمون بيئة آمنة للعمل دون خوف من العقاب. وقس على هذا كيف سيكون حال

الطبيب الذي يعرض عليه مئات المرضى في اليوم، وكيف سيضطر إلى تقديم الحد الأدنى من الرعاية من أجل إنقاذ حياتهم، وماذا سيكون حال المعلم أو القاضي أو الإداري... إن كان كل واحد منهم يُحمَّل مالا طاقة له به؟، وبهذا نعود للتساؤل الذي بتنا نطرحه دائما؛ كيف ستنهض هذه الدولة؟ وكيف يطلب من القاطن فيها أن يكون منظما، وهو يعلم أنه إن وقف محترما للقانون، فلن يصل إلى المقصد أبدا.

ثم وضع فنجان القهوة، وأخذ كأس الماء قبل أن يضيف: وعندما قلت أنني فكرت في التخلي عن القضية، فهذا لأنني لم أعد أحتمل، فبالأمس، وفي الوقت الذي كان من المفترض أن أستريح فيه، تلقيت اتصالاً من المفتش فريد صياف يطلب مني التوجه إلى منطقة عين النعجة للتحقيق في قضية سرقة سيارة، ثم اتصال آخر بشأن حادث مرور، ورغم أنه كانت في نيتي ألا أذهب لأي منهما إلا أنني وجدت نفسي مضطرا الى التوجه لعين النعجة، وهناك بقيت حتى الليل، لأن الحادث وقع حوالي الساعة السادسة مساء، فقلت في نفسي: إن كانوا يودون أن أصبح كاتب تقارير، فسأكتفي بفعل ذلك، وبهذا لن يشِّكل لي الانتقال من قضية إلى أخرى أي إشكال.

أحس حميد بخيبة أمل، وقال: إذن فستتركني أواصل هذه القضية بمفردي.

فكر شولي لبعض الوقت، ثم أجاب: لن أتخلى عنك، فأنت في أول الطريق، لهذا سأشرف عليك طيلة التحقيق.

وهل تعتقد أنني أستطيع الوصول إلى الجاني؟

اعتدل شولي في مجلسه وأحنى رأسه قليلا، ثم قال: إذا بذلت الجهد الكافي، فستصل إلى نتيجة بلا ريب، يمكنك أن تجعل هذه القضية كتحد لإثبات الذات، وهذا سيكون له أثر طيب في مسيرتك المهنية كمحقق.

وأشار بيده نحو الأمام ثم استدرك: دعنا الآن نسمع ما قمت به مساء الأمس.

وسرد حميد عليه ما دار بينه وبين جازية، فقال شولي: هناك شيء غفلت عنه، وهو استجواب الجيران، فقد يكون أحدهم شاهد القاتل يدخل أو يخرج، أو ربما سيارة مشبوهة تقف بجوار المنزل.

لا، لم أسهُ عن ذلك، وإنما طلبت من نوفل أن يقوم بهذه المهمة، وذلك بعد أن وجدت فيه اهتماما للمشاركة في التحقيق.

من الجميل أن تتعاونا معا، فهذا سيجعل العمل أيسر، ويوفر مساحة أوسع للاختلاف في الرأي، مما يسلّط الضوء على القضية من زوايا مختلفة.

وفرك شولي ذراعه، ثم حرك الساعة في معصمه وقال: هل توفرت لدينا أدلة كافية لنوجه أصابع الاتهام لأي شخص؟

في الحقيقة ليس لي القدرة على اتهام أحد، ولا على استثناء أحد. فالسيدة جازية تدعي أنها لم تسمع أي شخص يدخل حين كانت في غرفتها، ولكن لا أحد يستطيع إثبات ذلك، وهذا يجعل منها محلا للشكوك، وابن خالتها كان هناك أيضا ولم يعثر له بعدها على أي أثر، ويمكن تفسير ذلك بعدة فرضيات، أولها كونه هو القاتل أو من ساعد على الجريمة، وثانيها أن يكون قد اكتشف القاتل فقام هذا الأخير باختطافه، والدافع في كل الحالات فهو المال. وكان من الممكن أن أضيف احتمال السرقة، ولكن عدم وجود أثر عراك في المكتب يجعلني أرجح أن القاتل لم يكن غريبا، وهذا يضيق دائرة

المشتبه بهم، كما يساعدنا على إضافة المحامي سعدي، فقد قالت جازية أنه كان يمكنه الدخول إلى المنزل كأنه فرد من العائلة. ولكن للرجل حجة غياب قوية، حيث أن بعض الموظفين شهدوا أنه كان في المكتب من الساعة الثامنة صباحا إلى الوقت الذي تلقى فيه اتصالا من السيدة بوشو.

قال شولي الذي كان يراقب حميد باهتمام: لازلت تحتاج إلى مزيد من البحث عن الأدلة حتى تستطيع حصر قائمة المشتبه بهم بدقّة، وهذا من خلال تحديد مكان تواجد كل واحد منهم زمن ارتكاب الجريمة، بما فيه ذلك مكان تواجد حليمة التي ادّعت أنها لم تبت في بيتها.

تبسم حميد ولم يستطع إخفاء شعوره بالإحباط: إذًا لن يكون الأمر بالسهولة التي توقعتها.

قام بوشو من مكانه وتوجه نحو النافذة وهو يشعل سيجارته الأولى لذلك اليوم: لا يوجد شيء أصعب من معرفة الحقيقة، ولكن النتائج التي نصل إليها أحيانا لا تقدر بثمن، فهناك أناس أمضوا العمر كله وهم لا يعلمون أنهم كانوا يعيشون في عالم من الوهم والخداع، لهذا وحتى تستطيع أن تقوم بعملك بشكل جيد، عليك أن تقدر قيمة الواجب الذي تقوم به وتشعر حياله بالحب والرغبة، والأمر الذي يساعد على حب المهنة هو الاعتماد على الابتكار والابتعاد عن الروتين الممل، والتحلي بالصبر وعدم التسرّع للوصول الى النتائج، وكذلك عدم أخذ كل مراحل العمل دفعة واحدة؛ حتى لا تلتبس عليك الأمور فتقع في التشويش وتشعر بالعجز، ومنه أرى أن تنظم الأدلة التي تحصل عليها، ولا تنظر إليها ككتلة في أول الطريق حتى تظهر علاقة فيما بينها. وكذلك الأمر بالنسبة إلى القضايا، فأنصحك ألاّ تحقق في قضيتين إلا إذا ظننت أنهما مرتبطتان، هذا إذا كنت تود حل

كل منهما، أما إن كنت مجرد كاتب تقارير مثلما أصبحت عليه أنا الآن، فالأمر مختلف.

قال حميد بفضول: ولكن في بداياتك لم تكن الأمور على ما عليه الآن؟

أرسل شولي نفسا مطعما بالنيكوتين، وبدا أن السؤال قد عاد به إلى سنوات عديدة مضت: "حين أتذكر الماضي، تأخذني الذكريات مباشرة إلى شخص معين، كنا نسميه المحقق كولومبو.. هه، فقد كان يرجع له الفضل في دخولي هذا المجال، كما أنه من وقف إلى جانبي حتى أصبحت قادرا على الاعتماد على نفسي في حل القضايا الجنائية، ولكن أصدقك الرأي، ففي تلك الفترة من السبعينات والثمانينات، كان العمل ممتعا، لم تكن هناك الكثير من الجرائم كما هو الحال اليوم، فالمجتمع كان يحتفظ بالقيم الأخلاقية المبنية على الدين واحترام الأسرة، وهذا لم ينف وجود بعض القضايا الجنائية المتعلقة بالسرقات، وأما من كانوا يقومون بها، فيعدون على الأصابع ومعروفين لدى الشرطة. ولكن بعد العشرية السوداء، ودخول الإعلام ووسائل الاتصال لتلعب دور المروّج للأعمال القذرة، تزعزعت بعض هذه القيم. كما كان لتزايد عدد السكان، أثر في ازدياد نسبة جرائم القتل والسرقة و الاختطاف. وأنت ترى بأم عينك ما نحن نعيشه من فساد".

وتوقف شولي، وقد انتبه أنه على وشك اشعال سيجارة أخرى دون أن يشعر، وكان حميد يتساءل وهو يستمع لكل ذاك الحديث، ويرى هيئة شولي التي كانت تدعو للرثاء: "هل سأصير إلى ما صار عليه هذا الرجل البائس بعد سنوات طويلة من الخدمة؟" فمن الصعب أن يمنّي المرء نفسه وهو داخل إلى نفق، بمنزلة أفضل ممن هو على وشك أن يخرج منه، وتمنى أن يأخذ سيجارة هو الآخر، ولأنه كان لا يدخن فقد ارتشف آخر ما تبقى

من فنجانه، وبدأت الشكوك تراوده في إمكانية بقائه في هذه المهنة طوال حياته، وحينها سمع شولي وكأنه يجيب على أفكاره: ولكنني أظن أن الأمور ستتحسن في المستقبل، كما أن المشكل الذي أحدثك عنه يوجد هنا في العاصمة، فإن عملت في مناطق أخرى، فقد تشتاق لحل قضية واحدة.
وساد صمت قصير كان خلاله شولي على وشك ان يلقي بعقب سيجارته الثانية من النافذة، ثم نظر إلى حميد وشعر بأنه بدأ يحس ببعض الإرهاق هو الآخر، فقال محاولا أن يخفف عنه: دعنا من أمور العمل وحدثني إن وجدت ما كنت تبحث عنه.
أجاب حميد كمن أفاق من غفلة: أبحث عن ماذا؟
ألم تقل إنك كنت تريد شراء أرض للبناء؟
آه، بلى ولكن وجدت الأسعار هنا جد غالية.
إذا أردت أن تشتري بأسعار أقل، فعليك البحث في الضواحي، أو في الولايات المجاورة، فهناك الكثير ممن يرغبون البيع في ولاية البليدة.
رد حميد وهو يحدق في شرود ناحية الأرضية: سألت عن تلك الأراضي وقيل لي أن معظمها بدون عقود ملكية.
جلس شولي بالقرب منه، ورائحة السجائر لا تزال عالقة في ثيابه الخفيفة: في رأيي ضع طلبا من أجل شراء الشقق التي تقوم ببنائها الدولة بصيغة عدل واستفد من التخفيضات، فالكل يفعل ذلك.
نظر حميد إلى شولي وأجاب: أنت تعرف أنني لا أحب العيش في العمارات، لهذا أود أن أبني بيتا بنفسي، يتوفر على فناء يمكنني أن أستمتع فيه بأشعة الشمس، كما أحب أن أكون صاحب السطح والأرضية، لا محاصرا من الجيران من كل الجهات.

أخشى أن يطول بك الأمر وأنت تستأجر غرفة هنا وهناك كما تفعل الآن، فلا أحد يفضل العيش في عمارة، ويترك البيت الفسيح ذا الباحة والحديقة كما تقول، فالكل مضطر إلى التأقلم مع الظروف، والسكن في عمارة أفضل من التشرد في الشارع أو العيش في أحد الأحياء الفوضوية.

كما قلت، الاقامة في العمارة خيار من اضطرته الظروف لذلك، وأنا لا أزال أملك الخيار.

مد شولي يده ليأخذ كاس الماء من الطاولة، وقال: أتمنى أن تعيش في المسكن الذي تحلم به، ولكنني أخشى أن يطول الأمر حتى تفعل ذلك، فأنت الآن وحيد، ويمكنك المبيت في أي مكان، ولكن السنوات تمر بسرعة، وأخشى أن يكون ذلك سببا في تأخرك عن الارتباط وتأسيس أسرة.

وشرب بعض الماء من كأسه، ثم سأل: كم عمرك الآن؟

خمسة وعشرون سنة.

أنت في السن المناسب لتبحث عن زوجة، فلا تجعل مسألة السكن تؤخرك.

وساد صمت آخر ثم عاد شولي للقول: ابني الآن في مثل سنك، ولكنه لا يظهر أي نية في بناء مستقبله وهذا ما يقلقني، فقد تخلى عن الدراسة في الثانوية، والتحق بمركز التكوين المهني، وهناك لم يستقر على تخصص معين، حتى تخلى أخيرا عن كل شيء دون أن يخرج بأي شهادة، والآن هو مثل بقية الشباب التائه، يعمل ليوم أو يومين ثم يترك العمل.

شعر حميد ببعض الملل وفكر في المغادرة، ولكن آثر ألا يستأذن في وسط الحديث، فسأل: كم لديك من الأولاد سيد أحمد؟

أربعة، بنتين وولدين.

أعرف ذلك الصبي الذي قمت بختانه منذ أقل من سنة، كما أذكر بنتا في مثل سنه تقريبا، أظنها لا تزال في المرحلة الابتدائية.

رد شولي موافقا: أجل، وهناك أخرى لا تزال رضيعة، وابني الأخير رياض، الذي كنت أحدثك عنه.

قال حميد: تبارك الله، أتمنى أن يكونوا كلهم ناجحين إن شاء الله. ثم قام من مكانه، وهو يقول: عليّ أن أغادر الآن. متى ستأتي الى القسم؟

قام شولي هو الآخر وسار معه إلى الباب: لست أدري، ولكنني مضطر إلى العودة بسرعة، فأنت تعلم أن كل شيء متوقف عليّ هناك.

تبسم حميد وقال: لم يبق لك الكثير وتتقاعد، حينها لن يزعجك أحد.

لا أظن ذلك، فقد تبيّن أن الدولة ألغت التقاعد النسبي، وعليّ الآن أن أكمل العمل حتى أصل إلى الستين.

لا تشغل بالك، فربما تستيقظ في الغد لتجد أن الحكومة تراجعت عن هذا القرار، فأنت تعلم أن معظم القوانين هنا ارتجالية ولا تخضع لأي معايير واضحة.

أتمنى أن يحدث ذلك يا بني. سأتصل بك إذا جد شيء.

توجه حميد إلى مركز الشرطة، وحين هم باستئناف العمل أحس بإحباط كبير، ولم يستطع أن يفعل شيئا، وفي المكتب مكث ساعة من الزمن ممسكا بأوراقه دون أن يستطيع التفكير، صار يشعر بثقل كبير على كاهله بعد أنسحب المحقق شولي من القضية، أخيرا وضع كل شيء وقرر أن يتوجه إلى البيت ليأخذ هو الآخر قسطا من الراحة.

في المساء اختار حميد القيام بهوايته المفضلة بدل التفكير في العمل، وذلك بالتدرب على حركات الكابويرا 'Capoeira'، وهي رياضة قتالية برازيلية تعتمد على حركات مثيرة تجمع بين الرقص والقتال، ورغم حبه لهذه الرياضة، إلا أنه لم يلتحق يوما بنادٍ رياضي للتمرن عليها، كانت رياضة غير شائعة بالبلد، كما أن عدد النوادي التي تهتم بها قليلة جدا، منها نادٍ قريب سمع عنه ولكن لم يزره أبدا، كان دائما يؤجل الزيارة، ولذلك فقد اعتمد في تعلم الحركات على مقاطع الفيديو على موقع 'YouTube' منذ ما يقارب الخمس سنوات، والحقيقة أن هذه الرياضة جلبت له الكثير من المتاعب، حيث اضطر من أجل التدرب عليها إلى تغيير مكان إقامته أكثر من مرة، حيث أن الموسيقى المصاحبة للتدريب، والقفزات العالية التي تعتمد عليها الحركات، سببت إزعاجا لأصحاب المنازل التي كان يستأجر غرفا بها، ففي العاصمة كان يفضل التدرب في أماكن مغلقة أين لا يمكن أن يراه أحد، وذلك عكس ما كان عليه حين كان ببيت العائلة بقسنطينة، فهناك كانت توجد مساحات واسعة من الحقول تحيط بالحي الذي كان يقيم فيه. وعلى بعد كيلومتر كانت توجد غابة بجوار مزرعة صغيرة، كان يلتقي هناك بأحد زملاء الدراسة، ثم ينطلقان للركض معا، ومن ثمة للتمرّن على بعض الحركات القتالية، كان صديقه مهتما برياضة الكونغ فو Kung fu، وكان كثيرا ما يتعلم منه بعض المهارات المفيدة، وخلال انتقاله لدراسة القانون بالعاصمة، انضم إلى نادي الكراتيه Karate ولم يستمر طويلا، ثم انتقل إلى

ناد للكيك بوكسينغ Kickboxing وتدرب هناك لمدة ثلاثة أشهر، ثم جرّب رياضة التايكوندو Taekwondo ثم الجودو Judo، ولم يستمر في أي ناد أكثر من أربعة أشهر، واستمر على تلك العادة حتى بعد انتقاله إلى مدرسة الشرطة، فاكتفى من كل رياضة بمجموعة من الحركات، ثم توقف كليا عن ارتياد النوادي، وقرّر الاعتماد على نفسه في التدريب، وبذلك أستغل كل ما تعلمه في تطوير مهاراته القتالية، فحاول أن يجمع مزيجا من المهارات اعتقد أنها مفيدة في الدفاع عن النفس، وأجرى كذلك بحوثا على مواقع الإنترنت، فأعجب إلى جانب الكابويرا Capoeira برياضتي الآيكيدو Aikido ، وهي تعتمد على القوة الكامنة في جسم الإنسان للدفاع عن النفس، والجو جوتسو Jujutsu التي تعد مزيجا من الحركات الهجومية، ورغم كل ذلك فهو لم يخض نزالا حقيقيا، وكان يصعب عليه أن يلتزم بقواعد لعبة معينة، لهذا لم يشارك في أية بطولة بصفة رسمية، ولكنه فكر لأكثر من مرة في الانضمام بشكل جدي لنادي الكابويرا، بيد أن ما كان يمنعه هو المهام الكثيرة التي صارت على عاتقه، كما أنه صار يمقت الالتزام ببرنامج معين.
وكان المنزل الذي يقيم فيه مناسبا للقيام بهوايته، فقد كان عبارة عن شقة بغرفتين في الطابق الأرضي، قام باستئجارها من سيدة كبيرة في السن فضلت العيش لفترة مع ابنتها، كما كان قريبا من مكان العمل، ولم يعترض الجيران يوما على الموسيقى، فاشترى بساطا خاصا بالرياضة (tapie de sol) للتخفيف من صوت القفزات، وخصص إحدى الغرفتين للتدريب والنوم، والأخرى جعلها مطبخا، وكان يضع في العادة مرايا كبيرة في الغرفة، ثم غيّر كل ذلك بأخرى متوسطة الحجم، وذلك لارتطام رجله منذ ما يقارب السنة بالمرآة، عند قيامه بحركة لولبية، الأمر الذي أحدث فيها جرحا غائرا لا تزال

آثاره ظاهرة بوضوح، وكان يفضل أن يتدرب بحيث يمكنه رؤية عضلاته، فارتدى سروالا قصيرا 'Shorts' يصل إلى الركبة، وأبقى صدره عاريا.
نظر إلى المرآة وابتسم لنفسه وهو يرى عضلاته التي صارت أكثر بروزا، وحدق بوجهه الذي بدا أكثر وسامة وهو يتعرق، عينان بنيتان صغيرتان، وشعر أملس أسود، مع حواف تميل إلى اللون البني، أما طوله فكان يفوق المتر بخمسة وسبعين سنتمترا، ورغم هذا الارتفاع الجيد، إلا أنه كان يبدو قصير القامة مقارنة بالمحقق شولي، قام أول الأمر بحركات إحمائية دامت أكثر من نصف ساعة، ثم شغّل جهاز 'MP3' متصلا بمكبر صوت صغير، وبدأ التدرب على حركات تدعى الإسكيفا (the Esquiva) وهي حركة دفاعية جميلة في فن الكابويرا؛ حيث قام بمد ذراعيه في اتجاهين متعاكسين مع القدمين، ثم راح يخطو للأمام والخلف دون أن يتحرك من مكانه بما يشبه الرقص، وبعدها توجه إلى جهاز الموسيقى واختار نغمة خاصة تعوّد على الاستماع إليها حين يتدرب على حركات المروحة (Helicoptero) و تعني إدارة الساقين في نفس الوقت الذي يقوم به بعملية الشقلبة، وهي حركة بهلوانية تعتمد على مهارة بدنية عالية، وبعد عدة دقائق خيل إليه أنه يستمع إلى نغمة غريبة تتخلل الإيقاع، فأوقف الموسيقى وأصغى من جديد، كانت النغمة تعود إلى هاتفه المحمول في الغرفة المجاورة، حين نظر إلى الشاشة أحس بالحيرة، فقد كان المحقق شولي هو المتصل، ضغط على زر الاستلام وقال: نعم سيد شولي.
أين أنت الآن؟
في البيت، ماذا هناك؟
أرسلت من يصطحبك إن لم تكن منشغلا.

نظر حميد إلى الساعة وقال متسائلا: ليس من العادة أن تتصل في مثل هذا الوقت.

حينما تأتي ستعلم كل شيء، كن مستعدا، ستصل السيارة إليك في أية لحظة.

قال حميد بقلة صبر: أرجو أن تكون الأمور بخير.

وجاء صوت شولي موضحا ما حدث: وجدنا جثة نعتقد أنها لهشام جازم، ابن خالة جازية بوشو، أريدك أن تأتي لتعاينها بنفسك.

نظر حميد مرة أخرى إلى الساعة في الهاتف، فرأى أنها تجاوزت الخامسة بسبع دقائق، توجه إلى الحمام واغتسل بسرعة، ثم غير ثيابه وانتظر أسفل العمارة التي كانت تقع بحي يدعى لاروز، وبعد أقل من عشر دقائق ظهرت سيارة فولكس فاجن 'volkswagen' بيضاء تابعة لقوات الأمن، وبالرغم من أنه كان مدركا أن مقتل هذا الشاب سيشكل منحنى في سير التحقيق، إلا أنه لم يستطع طوال مدة السير أن يحدد إلى أين ستغدوا الأمور. ونظر عبر النافذة بعد أن أفاق من أفكاره، ليرى السيارة تجاوزت النسيج العمراني، وراحت تبتعد عن الطريق السريع نحو مناطق ريفية، التفت إلى السائق، وسأل: ذكرني أين وجدتم الجثة.

حوش جورج، وهي منطقة تابعة لولاية البليدة جهة الشرق.

هز رأسه كمن تذكر المكان، ولكنه في حقيقة الأمر لم يكن قد سمع بذلك الاسم من قبل، وبعد أن انعطفت السيارة نحو طريق ترابي ضيق، استطاع أن يلمح من بعيد مجموعة من سيارات الشرطة والحماية المدنية قرب كوخ صغير، تبين فيما بعد أنه مبنى صغير لمضخة ماء معطلة، كان المكان معزولا تماما، وكان هناك بستان لأشجار التفاح بدت يابسة ومهملة.

حين نزل من السيارة شاهد رجلا نحيلا بشارب أشيب ووجه شاحب، كان ذلك الضابط هو فريد صياف، المسؤول عن القسم الذي يعمل به، والذي لم يكن شولي يكف عن الشكوى منه، لحسن الحظ أنه لم يلاحظ قدومه، فلم تكن له رغبة في التحدث إليه. توجه مباشرة إلى مدخل المبنى، حيث كانت حوله أشرطة الشرطة (police tape)، طلب إذن الدخول وانحنى ليعبر تحت الشريط مع شرطي يحمل كاشفا ضوئيا، كان المكان معتما، ولسوء حظه، فقد تم نقل الجثة إلى سيارة الإسعاف قبل وصوله، كانت بقايا المحرك تأخذ الجزء الأكبر من مساحة الغرفة، وفي الجزء المتبقي، حدد بواسطة طلاء المكان الذي كانت به الجثة، كان هناك أيضا كرسي خشبي لا يزال سليما رغم أجزاء مهترئة عند حوافه العلوية، وبعض الحبال وبراميل مازوت فارغة ملقية في الزاوية، جال بنظره في المكان ثم توجه إلى سيارة الإسعاف التي كانت على وشك المغادرة، طلب من السائق الانتظار لدقائق وفحص الجثة، ثم استدار لأحد رجال الحماية بالقرب منه متسائلا:
أظنه قتل بسبب التفاف حبل حول عنقه، أرى الآثار لا تزال واضحة.
أشار الرجل برأسه موافقا، فاستدرك حميد: ومتى حدّد وقت الوفاة؟
من خلال معاينة أولية، أظن أنه مرت ثلاثة أيام على مقتله.
عاد حميد لتفحص الجثة ثم شكر المسعف وخرج من السيارة، وحين نظر من حوله، رأى أن العتمة بدأت تلف المكان، فقد كان الزمن خريفا، والأضواء الزرقاء والحمراء فوق سيارات الأمن تزيّن كل شيء من حولها، كما أنيرت كاشفات صغيرة بالقرب من غرفة المحرك، ومن خلال ضوئها استطاع ان يرى القامة الفارعة للمحقق شولي مع شاب بدا أنه نوفل، حين لاحظ شولي اقترابه استدار نحوه، وقال: منذ متى وأنت هنا؟

منذ دقائق فقط.

تصافح مع الرجلين وبعدها قال شولي: أرى أننا قطعنا عليك استراحتك كما حدث معي بالأمس.

لم يكن حميد منزعجا فاكتفى بالقول: هذا من طبيعة عملنا، فقد تُستدعى في أي وقت.

ثم توجه بالحديث الى نوفل: يسرني ان أجدك هنا، كيف حالك؟

بخير، شكرا لك.

وأشار شولي نحو سيارة الاسعاف التي كانت تبتعد: "هل رأيت الجثة؟"

أجل.

عثرنا عليها وهي مقيدة على الكرسي، أحدهم قام بفعل ذلك ثم خنقه بحبل من الخلف.

وكيف عثرتم عليها؟

تلقينا اتصالا من أحد العمال بهذه المزرعة، وقد أخبرنا أنه كان بحاجة إلى إحدى البراميل الفارغة، وحين وصل وجد الباب مغلقا بمزلاج من الخارج، ولم يعرف بوجود جثة حتى اقترب منها، فكاد يجن المسكين من الفزع.

وهل تأكدتم أن الجثة تعود لهشام جازم فعلا؟

هز شولي كتفيه، ثم قال: رغم أن ملامح الضحية واضحة، إلا أنني أرى ضرورة التيقن من خلال تطابق البصمات.

نظر حميد إلى الأفق المرصع بالنجوم، ونحو أنوار البنايات خلف أشجار الشوح التي كانت تتغامز من بعيد، أحس بتيار خريفي بارد، فسرت في جسمه رعشة خفيفة، وبعد أن أقفل بعض أزرار معطفه، عاد الى وجه

شولي المزين بالأضواء: "هل تعتقد حقا أن لهذه الجريمة علاقة بمقتل بوشو؟"

أجاب شولي كمن كان ينتظر مثل هذا السؤال: أظن ذلك، فقد حددت ساعة الوفاة في اليوم نفسه الذي قتل فيه بوشو، أي ليس من الغريب أن يكون قاتل الرجلين هو شخص واحد.

هذا محتمل، ولكن من الصعب أن ندرك العلاقة بين الجريمتين، فكل ما نعرفه أن هشام كان في منزل بوشو قبل وفاته، ولو أننا عثرنا على الجثتين في مكان واحد لكان من السهل علينا استنتاج أن هشام كان ضحية وجوده مع المستهدف الأول، أقصد رضا بوشو بلا شك، إلا أن ما يحيرني هو وجود هذه الجثة في مكان كهذا؟

أخفى شولي يده في جيبه وأخرج سيجارة يزيل بها صداعا بدأ ينتابه، ثم قال: لا يمكننا الجزم بشيء حتى نتأكد من أن هؤلاء الصعاليك الذين كان يصاحبهم لم تكن لهم علاقة بالأمر، فمن المحتمل أنه توجّه إليهم حين خرج من منزل بوشو، ولسبب ما قاموا بقتله في هذا المكان.

قال نوفل أخيرا بعد أن وجد فرصة للمشاركة في الحديث: لا أعتقد أن أيا منهم كان يستطيع قتله تلك الصبيحة.

انتبه إليه الرجلان فسأل شولي باهتمام: لماذا؟

تم استجواب الجميع، والكل كان يملك دليلا على مكان وجوده يوم الجريمة، وقد ثبت عدم وجود هشام في أي من تلك الأماكن، إضافة إلى أنه تم اعتقال الجميع صباح الأمس بتهمة حيازة المخدرات والمتاجرة بها، وذلك بعد أن اعترف معمر بن لحسن بجميع الأماكن والأسماء، مقابل خروجه من السجن.

صمت شولي لبرهة، ثم قال: دعنا نفكر قليلا، فقد عثرنا على جثة هشام مقيدة على كرسي، وعلى وجهه بعض الكدمات، وهذا يوحي بأنه خضع للتحقيق قبل أن يشنق، بمعنى أن القاتل كان يريد أن يعرف منه أمرا ما قبل قتله.

رد حميد وهو يتكئ على مؤخرة سيارة شرطة: هذا ما يريد منا القاتل أن نعتقده، ولكن ما رأيته على الجثة يشير إلى غير ذلك، فهناك خدوش حول المكان الذي لف عليه الحبل، مما قد يدل أن هشام كان يحاول التخلص من الحبل حول عنقه بيدين طليقتين قبل مقتله، أي أنه رُبط بعد أن شنقه وليس قبل ذلك، وهذا يعني أمرين، أن القاتل أخذ هشام على حين غفلة، وذلك في الوقت الذي لم يكن الضحية يتوقع هجوما من شخص يعرفه، والأمر الثاني أن القاتل كان يود إيهامنا بان هشام خضع للتحقيق.

ولكن لماذا فعل ذلك؟

لست أدري.

وضع نوفل يديه في جيبه بعد أن بدأ يشعر ببعض البرد، ثم قال: قمت هذا الصباح باستجواب جيران بوشو وأكدت لي سيدة عجوز أنها شاهدت من شرفة منزلها السيد بوشو يعود إلى بيته حوالي الساعة الثامنة والنصف من ذلك الصباح.

قال شولي باهتمام: لم تذكر جازية أبدا أن زوجها غادر المنزل ذلك اليوم. ربما كانت لا تزال نائمة حين فعل ذلك، كما كانت هناك سيدة أخرى، قالت إنها خرجت من البيت لتقتني بعض الأغراض، فرأت سيدة غريبة تنظر ناحية المنزل حوالي الساعة العاشرة صباحا.

علق حميد: قد تكون أي امرأة جذبها جمال البيت وتمنت أن تحصل على مثله.

رد شولي: حتى لو افترضنا أنها كانت تراقب البيت وأردنا التحري عنها، فكيف لنا تحديد هوية كل النساء اللواتي مررن بطريق عام ذلك اليوم؟ ما يهمني الآن هو لماذا غادر بوشو المنزل ثم عاد بتلك السرعة؟ إلى أين ذهب؟ وهل كان معه لقاء مع شخص ما في المنزل ثم تطورت الأمور إلى جريمة؟

قال حميد: رغم أن موظفة الاستقبال ذكرت أن المدير لم يأت ذلك اليوم، إلا أنه علينا التحقق مع بقية الموظفين إن كان أحدهم قد رآه ذلك الصباح، وإلى أن نقوم بذلك، أرى أن نعود للتركيز على قضية هشام قليلا، فأنا أرى أنه كان يعرف قاتله بلا شك، وسواء أكان هو من قتل بوشو أم لم يكن، فعلينا أن نعرف الأشخاص الذين التقى بهم في المدة الأخيرة، وخاصة فيما يتعلق بأصحاب الأموال.

تساءل شولي ودخان السيجارة يتراقص مع الأنوار من حوله: أتظن أن أحدهم استخدمه لارتكاب الجريمة ثم قضى عليه؟

هذا ما اعتقده.

وأين يمكن أن يلتقي بهؤلاء الأشخاص إذا كان بلا مال ولا مستوى علمي جيد.

رد حميد دون تفكير: ليس من المهم أن يكون هو من يبحث عنهم في هذه الحالة، فصلته بالسيد بوشو كانت واضحة، لهذا أظن أن القاتل هو من اتصل به وأقنعه ببعض المال.

تساءل نوفل بعد أن خطا إلى الخلف مبتعدا عن دخان السجارة: لا زلت أرى في هذا الاستنتاج بعض الغرابة، فكيف يعقل لقاتل أن يأتي بثيابه

للعيش في منزل الضحية؟ أليس من المنطقي أن يكون بعيدا عن مسرح الجريمة وقت ارتكابها.

هم حميد بالكلام، ثم توقف بعد أن أخذت السيارة التي كان يتكئ عليها تبتعد، وحين لاحظوا أن الجميع يستعد لمغادرة المكان، قال شولي وقد أحس بازدياد الصداع في رأسه: دعونا نكمل الحديث في وقت لاحق، ما رأيكم لو تأتون للعشاء عندي في البيت هذه الليلة؟

رد حميد: بل أنا من سأدعوكما إلى مطعم يقدم أطباقا جيدة، فكما تعلمون ليس لي من يطبخ في البيت.

قال شولي: حسنا سأقبل الدعوة، على أن أدعوكما أنا للغداء يوم الغد، وأنت؟

ونظر إلى نوفل، فقال هو الآخر: لا بأس سأقبل الدعوة أنا أيضا.

11

حينما قاربت الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، كان حميد ونوفل قرب حي فايد بسيارة بولو 'polo' الخاصة بنوفل، كانا ينتظران الإذن بتفتيش بيت رحمة، ومن أجل ذلك أرسلا شرطيا ليكلمها في هذا الشأن، كان يمكن لحميد أن يتصل بجازية ويحصل على الموافقة، إلا أنه لم يكن يرغب بذلك لسبب ما.

نظر نوفل إلى ساعة يده، وقد أحس بالضجر: "ألم يكن من الأفضل أن نذهب إليها بأنفسنا؟"

استمر حميد ينظر نحو المارة الذين كانوا يراقبون السيارة بريبة، وأجاب: لم أشأ أن أكون من ينقل لجازية وأمها خبر وفاة هشام.

أرجو ألا يتأخر سمير أكثر.

رد حميد وهو مستمر في النظر من الزجاج الأمامي بشيء من التهكم: لعله يستقبل التعازي معهما الآن.

فتح نوفل باب السيارة، وقال بقلة صبر: سأتصل به.

واستمر واقفا بالقرب من السيارة حتى أنهى الاتصال، ثم أحنى رأسه نحو النافذة، وقال: يبدو أن المرأة العجوز أصيبت بصدمة عنيفة، وسقطت مغمى عليها، يقول سمير أنه اتصل بالحماية المدنية، وهم الآن ينقلونها إلى المستشفى.

رد حميد غير قادر على إخفاء قلقه: وماذا عن جازية؟

لم تصل حالتها إلى ذلك الحد، ولكنها سترافق أمها إلى المستشفى.

شعر حميد بالارتياح، ثم أشاح بنظره نحو المقود مبديا إحساسا آخر بالإحباط: وماذا سنفعل الآن؟

سندخل على أي حال، فجازية لم تعترض حين أخبرها سمير بما ننوي فعله، بل إنها أخبرته أن المفتاح عند جارة تدعى حليمة.

بعد دقائق قليلة خطت أقدام المحققين في فناء بيت رحمة، وعلى بعد مترين من المدخل استقبلتهما حجرة بدت أنها مطبخ وغرفة نوم في آن واحد، كان انطباعهما يشير إلى وجود فوضى رغم لمسة رحمة الواضحة في تنظيم المكان، فكر حميد في كون حقارة الأثاث هي الباعث على ذاك الشعور، أوانٍ مكدسة في صندوقين، وفرن موصول بقارورة غاز، رف مثبت بمسامير على الجدار، وفي الجهة المقابلة سرير صغير عليه بعض الأغطية، لا شيء من تلك الأغراض أثار انتباههما.

وفي الزاوية كان هناك باب صغير يقود إلى حجرة أخرى، بدت أنها أفضل من الأولى، بها ثلاجة قديمة، وتلفاز على صندوق خشبي، ومزهرية مهشمة الفم. جال حميد بنظره في المكان، ثم توجه خلف الباب أين كان الفراش مكدسا على كرسي متوسط الحجم، أعاد بصره مرة أخرى نحو بقية الأثاث وقال: أعتقد أن هذه آخر الحجرات في البيت.

وكان نوفل هو الآخر يحدق بالمكان، ولكن بإحساس مغاير لإحساس المحقق: "يؤسفني أن هناك من يعيش بهذا الشكل."

رد حميد ويداه تحاولان فتح الثلاجة: رغم تواضع هذا البيت، فقد يكون حلما لمن ليس لهم مكان للمبيت، ثم أضاف وهو ينظر إلى داخلها: "هذا ما توقعته، لا يوجد غير الماء."

تبسم نوفل وقال معيدا أحد الكتب قرب التلفاز: وهل ظننت أنك ستجد وثائقا داخل الثلاجة.

لن أتفاجأ إن وجدتها هناك.

رد نوفل وهو يتجه ناحية الباب: لا تنس أنهم فقراء وليسوا مجانين.

واستمر البحث لبضع دقائق إلى أن قال نوفل: لا وثائق، لا صور، لا شيء، لا بد أنهم يحتفظون بالأوراق المهمة في مكان آخر، فكل ما يوجد في البيت من أوراق لا تعدو أن تكون كتبا قديمة أو بعض النتائج المدرسية الخاصة بهشام.

عادا مرة أخرى إلى المطبخ، ولم يكن به مكان يصلح للبحث غير علب كانت تحت السرير، وباستثناء الأحذية وأدوات النظافة، كان هناك صندوق صغير به كتب ممزقة.

أبدى نوفل حيرته مرة أخرى وهو يحمل حزمة من الكتب المدرسية: هل يعقل أن يكون البيت خاليا من أي وثائق إدارية؟

جلس حميد على السرير ولم يجب، وبعد أن وضع يده على الغطاء، تحسس شيئا صلبا، فقام بسرعة ورفع الفراش لتظهر محفظة بنية قرب الجدار.

شعر بارتياح كبير، فأخذ المحفظة ثم أعاد الأغطية إلى مكانها قائلا: أرجو أن نجد بين هذه الوثائق ما يساعدنا على اكتشاف شيء مهم.

وبينما هو يفرغ كل محتوياتها، أحضر نوفل كرسيا من الغرفة الثانية وجلس بالقرب منه. بعد فترة من البحث أشار نوفل إلى إحدى الوثائق: "هناك ورقة مدون عليها شركة بوشو لأجهزة التبريد."

نظر إليها حميد ثم وضعها جانبا: "لا أظن أن لها فائدة، وددت لو نجد نسخة من سيرة مهنية، أو شهادة عمل تشير إلى الأماكن التي عمل بها هشام

فيما مضى، حينئذ قد نعرف الأشخاص الذين اتصل بهم، والذين قد تكون لهم مصلحة في مقتل بوشو."

كانت معظم الأوراق وثائق قديمة خاصة بهشام، ولم يكن يوجد بينها ما يثير الانتباه، أشار نوفل إلى وثيقة أخرى: أهذا ما تبحث عنه؟

مد حميد يده باهتمام: أرني.

ناوله نوفل شهادة عمل في شركة بوشو، مؤرخة منذ سنة ونصف.

تفحّصها حميد ثم وضعها جانبا: جيد، ولكن لا أظننا اكتشفنا شيئا جديدا، فقد سمعت أنه عمل بهذه الشركة لبعض الوقت، كما أن صاحبها لا يمكن أن يكون مشتبها به، لأنه الضحية.

بعد أن فرغا من التحقق من كل الوثائق، أعادا البحث مرة أخرى في المطبخ والحجرة المجاورة لعلهما غفلا عن شيئ ما، ولكن بلا فائدة. قال حميد بعد أن عاد مرة أخرى إلى المكان الذي كان يجلس فيه: يحيرني كيف لم نعثر على أي وثائق لجازية ولا ولأمها هنا، حتى الصور لا وجود لها.

قد تكون كل الوثائق المهمة في بيت جازية.

هذا محتمل، ولكن المفترض أن تكون هنا وليس هناك.

وعادا إلى السيارة، وهناك استدار نوفل نحو حميد وسأل: ماذا سنفعل الآن؟

أرى أن نزور شركة بوشو، فهناك الكثير مما علينا اكتشافه في ذلك المكان.

وماذا عن بيت جازية؟ ألن نفتشه؟

ليس الآن، فالوقت غير مناسب.

ولكن لا أحد في البيت، يمكننا أن نفتشه دون أن نزعج أحدا.

شغّل نوفل المحرك فيما قال حميد: أرى أن ننتظر حتى تعود، فإن أعطتنا ما نبحث عنه، فسنكون بذلك قد وفرنا على أنفسنا الكثير من الجهد.

وقبل أن يضغط على دواسة البنزين، أخرج حميد هاتفه الخلوي، وقال وهو يطلب رقم مؤسسة بوشو: سأتصل لأرى إن كان سعيد كريفالي، نائب المدير بشركة بوشو في مكتبه.

بعد لحظة انتظار، أجابت موظفة الاستقبال بأن السيد كريفالي ليس بمكتبه.

ومتى يمكننا التحدث إليه؟

سيعود بعد يومين، إن كنت تود أخذ موعد، فسأحاول الاتصال بك لأبلغه.

أخشى أن يظهر ما يشغلني عن الحضور حينها، سأعاود الاتصال بك حينما يعود.

حسنا، هل من شيء آخر سيدي؟

أود أن أعرف إن كنت تستطيعين الوصول إلى قوائم الموظفين في الشركة خلال السنتين الأخيرتين.

صمتت لدقيقة ثم أجابت: عليّ التحدث إلى سكرتيرة المدير في هذا الشأن، ولكنها لم تأت اليوم أيضا.

وكيف يعقل أن تبقى المؤسسة من غير مدير أو نائبه، أليس وفاة السيد بوشو أمرا طارئا يستدعي عودة السيد كريفالي على الفور.

لقد عاد فعلا سيدي حين علم بالأمر، ولكنه سافر مجددا صباح اليوم لإتمام عمله، ولأجل ذلك فقد أوكل لكل رئيس فرع ما يجب القيام به.

شكرا سيدتي.

بعد أن أنهى المكالمة، نظر إلى نوفل وقال: سنعود إلى مركز الشرطة، فالرجل الذي كنت أود الحديث معه ليس هناك.

حين وصلا إلى هناك، توجه نوفل مباشرة إلى أول مكتب على اليمين فوجده فارغا، وحين مر على مكتب مجاور سمع صوت رحاب يأتي من الداخل: كميليا لم تأت اليوم.

وكان حميد يتقدم نحوهما، فتبسم وقال ممازحا: سيكون من الصعب على البعض أن يحتملوا هذا الغياب.

وتظاهر نوفل بأنه لم يسمع ذلك، وتوجه بالحديث إلى رحاب متسائلا: لماذا لم تأت؟

هزت كتفيها وعادت لتكتب على جهاز الحاسوب: "قالت إنها منشغلة."

وحين غادر نوفل توقفت عن الكتابة، ونظرت إلى حميد مبتسمة: أحب أحيانا أن أضايقه، ولكنه شخص هادئ ولا يثور بسهولة.

قال حميد وهو يستند على كرسي قرب المكتب: "بل يثور حين يتعلق الأمر بالعمل."

وأين وصلتم بخصوص القضية؟

مال حميد برأسه قليلا إلى الخلف وأجاب: ليس كثيرا، كلما اعتقدنا أننا نقترب من الحل، نجد أنفسنا لازلنا تائهين.

ضحكت رحاب ضحكة رقيقة، وعلقت: أظن أنك لم تعتد بعد على حل القضايا، فهي عادة كالمطاط؛ كلما جذبتها نحوك تتمدد ولا يصير لها شكل واضح، لهذا عليك الصبر.

وفجأة قامت كمن تذكر شيئا، وتوجهت لتجلب ملفا فوق خزانة معدنية على يسار المكتب: "قبل أن أنسى، أوصتني كميليا بأن أعطيك هذا الملف."

استلم حميد الملف، وقال باهتمام: ما هذا؟

النتائج المتعلقة بالبصمات في مكتب بوشو.

تطلّع حميد إلى الأوراق وهو يتمتم: ظننت أنها لن تظهر أبدا.

وبعد دقائق رفع رأسه ونظر نحو رحاب: "ليس هناك غير بصمات بوشو وجازية"، ثم أضاف قبل أن تستطيع رحاب قول شيء: ألم يأت شولي بعد؟

كان هنا في الصباح، ولكنه غادر بعد أن تلقّى اتصالا عاجلا من المفتش فريد صياف مباشرة.

أبدى حميد تعاطفه قائلا: لابد أنها قضية جديدة، أخشى أن يدفعوا بالرجل إلى حافة الجنون قبل أن يتقاعد.

ولكنه يعرف دائما كيف يتكيف في مثل هذه الظروف.

وتذكر حميد ما أخبره شولي في بيته عن إقفال القضية، وكيف صار في المدة الأخيرة مجرد كاتب للتقارير حول الجرائم، فأحس بالسوء والنقمة على من تسبّب في هذا الوضع، ولكن لم يرد أن يتعكر مزاجه بمثل هذا التفكير، فرد قائلا: هذا صحيح، سأتصل به لأعرف ماذا يفعل.

وبعد أن غادر حميد إلى مكتبه، رفع سماعة الهاتف وسمع صوت شولي مباشرة بعد الرنة الأولى: حميد؟

أجل.

هل اطلعت على نتائج البصمات.

نعم، وأنا..

أظن أنه لا داعي لمواصلة التحقيق، فقد اكتشفت أدلة مهمة تشير إلى أن زوجة بوشو هي القاتلة.

واستطرد قبل أن يتمكن حميد من الاستفاقة من المفاجأة: فالسيد سعدي خلال تحضيره لملف الميراث، اكتشف أن اسم جازية لم يكن اسمها الأصلي، وإنما هناك احتمال أنها غيرت اسمها لغاية لم نتحقق منها بعد، ولكن الأمور في رأيي تبدو جد واضحة.

غمغم حميد في حنق: يا إلهي، أيمكن أن تكون هي؟ وأعاد تعديل الهاتف على أذنه ثم قال: سآتي إليك على الفور، أين يمكن أن أجدك؟

لا داعي لذلك، سأصل بعد خمس دقائق.

وبالسرعة نفسها التي بدأ بها المكالمة أقفل الخط.

عاد حميد مسرعا إلى مكتب زميله وأخبره بالخبر، علق نوفل بنبرة هادئة: لم أكن أظن أبدا أنها قد تكون هي القاتلة.

سار بقرب المكتب، وقال محركا يده بشيء من العصبية: دعنا نفكر بهدوء. يظن شولي حسب ما فهمت أن جازية غيرت هويتها لترتبط ببوشو، ثم تآمرت مع ابن خالتها ليقتلا الرجل المسكين من أجل الحصول على الميراث، ولسبب ما قامت بقتل ابن خالتها، وبهذا تكون قد حلّت القضية، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، فشولي يريد حسم القضية في أقرب وقت، لهذا فهو مستعد لتبني أي دليل يمكن أن يفسر به ما حدث، كما أن هناك الكثير من الأسئلة لم يعثر لها أي جواب، فلماذا مثلا غيرت هويتها إذا كانت ستأخذ الميراث على أي حال؟ فالرجل بلا أولاد، مما يعني أنه ليس له وريث غيرها.

قاطعه نوفل وهو يقوم من مكتبه: قد تكون الغاية من ذلك أنها كانت تنوي أن تحوّل كل الأموال لهويتها الأصلية وتختفي.

إذا كانت بعيدة عن الشبهة فما الداعي للهروب؟

ربما خشية احتمال عثورنا على أدلة جديدة، ومن ثمة وقوعها في شرك الاتهام.

حسنا هذا احتمال وارد، وقد تكون قد لجأت إلى ذلك بنية تحويل ما تقع عليه من أموال زوجها إلى حسابها الحقيقي أثناء حياته، ولم يكن في نيتها قتله، ولا من قامت بذلك، أي أن تغيير الاسم ليس دليلا على القتل، وإنما دليل على الاختلاس، كما أننا إذا افترضنا أنها تعاونت مع ابن خالتها لقتله، فماذا عما قالته الجارة عن المرأة التي كانت تحوم حول البيت خلال وقت ارتكاب الجريمة؟

لنقل إنها استأجرتها واتفقت معها على مراقبة أي زائر غير محتمل.

أو قد يكون الشاب المسكين وقع ضحية سوء الصدف، وخلاصة القول: إننا لا نملك إلا فرضيات لا تستند لأي دليل قاطع، وليس من اللائق أن نتهم المرأة بجريمة القتل لمجرد أنها قامت بإخفاء هويتها.

ولكن إذا قامت بجريمة التزوير، فما المانع من أن تقوم بجريمة أخرى؟

جلس حميد على حافة المكتب، وقال: صحيح، يمكن أن تقوم بجريمة قتل، ولكن السؤال الأهم هو: هل قامت فعلا بجريمة القتل؟ وهذا ما علينا أن نكتشفه.

وماذا تنوي أن تفعل؟

سأنتظر لأسمع مزيدا من التفاصيل من شولي، وبعدها نتفق معا عما يجب فعله.

ودخلت رحاب المكتب وهي تتحدث إلى رجل كان خلفها: ها هما الشابان اللذان كنت تسأل عنهما.

وظهر شولي بقامته الفارعة يكاد يسد كل المدخل، وحين اقترب من المكتب قدّم له حميد مقعدا وهو يسأل: هل أنت متأكد أن جازية هي القاتلة؟

مسح شولي العرق على جبينه بكفه العريضة، وقال ببساطة: "هذا ما نعتقده".

استعجل حميد برأيه قبل أن يستمع إلى مزيد من التفاصيل: "في الحقيقة إن كنت تعتقد أن جازية هي الفاعلة بمجرد أنها قامت بتغيير اسمها، فهذا ليس بالدليل القوي ضدها."

رد شولي مظهرا هذه المرة شيئا من المرونة في الحكم: قد لا تكون هي الفاعلة، ولكن ما اكتشفه سعدي أثار حقا اهتمامي، وجعل تلك المرأة في وضعية لا تحسد عليها من الشبهة، فما يحيرني أن الوثائق التي عثرنا عليها كلها تبدو أصلية، وجميع بياناتها مدونة على السجلات الالكترونية، أما ما يدعو إلى الجنون، فهو كيف استطاع سعدي أن يكتشف أن الاسم مزور رغم كل ذلك؟

سأل نوفل: وما هو اسمها الأصلي؟

هذا ما لم نعرفه بعد، فحين قصدنا مكان الازدياد بين عكنون، لم نجد في سجلات البلدية الخاصة بمواليد 1993 أية معلومة عن جازية باديس، وهذا يعني أن هناك شخص متواطئ معها في هذه العملية.

ولكن عدم وجود معلومات عنها لا يعني أن اسمها غير صحيح؟

الأمر في غاية الخطورة فلا تحاول التهوين منه، فتغيير مكان الميلاد يجعلنا في حاجة إلى تفقد عشرات البلديات عبر ثمانية وأربعين ولاية، وقد لا نصل إلى الشخص المطلوب أبدا.

وماذا عن الدفتر العائلي، هل اطلعتم عليه؟

لا، لم يكن في البيت، وحين استجوبنا جازية أنكرت أن تكون قد زورت أي شيء وأن أمها هي من كانت تستخرج الوثائق، وبأنها كانت تحتفظ بكل شيء ولا تعطي لها إلا ما تحتاجه فقط.

حمل حميد قلما من المكتب، واتجه حيث كانت رحاب قرب الباب: "نحن أيضا فتشنا بيت رحمة ولم نعثر على أي أثر لذلك الدفتر، فأين يمكن أن تكون قد أخفته".

رد شولي مبديا اهتماما مفاجئا: أظن أن السؤال الأهم هو لماذا أخفته؟ وهذا يعطي لنا فكرة بأنها كانت على علم بهذا التزوير.

وساد صمت وجيز إلى أن قال نوفل: إذا صدقت جازية في أن والدتها كانت تخفي عنها الدفتر، فهذا يعني أن رحمة هي من كانت تقوم بالتزوير وليست جازية، أي أن الجواب عن كل هذه الأسئلة عند رحمة.

وهل تعتقد أنها ستعترف ببساطة أنها زورت اسم ابنتها وأخفت الوثائق.

لا أراها ستعترف، ولكن الإنكار بمعرفتها مكان الوثائق سيفضح كل شيء.

قال شولي واضعا حدا لهذا الجدال: هذا إن استطاعت أن تتحدث، فالمرأة في غيبوبة منذ أن علمت بمقتل هشام، ولا أدري كم سيمر من الوقت حتى تستفيق.

فكر حميد بسرعة، وقال: هل تم تغيير هوية رحمة في تلك الوثائق؟

أخبرني علي سعدي أنه تحقق من اسم رحمة عواد، ولكنه لم يجد أي معلومات خاصة بالشخص المدون على أنه والدها.

قالت رحاب وهي تغادر المكتب بابتسامة ودودة: أستأذنكم، فلا أظنني استفدت كثيرا من هذا الحديث، أتمنى لكم التوفيق.

بعد أن انصرفت قال نوفل: إذا كانت رحمة تحاول إخفاء الوثائق عن ابنتها، فهذا يعني أنها من قام بذلك التزوير، ومن المحتمل أيضا ألا تكون جازية تعرف بذلك مطلقا.

أحس شولي أن الإرهاق بدأ يؤثر على أعصابه مجددا، وتمنى أن يقتنع الجميع أن جازية هي القاتلة فينتهي كل شيء، ولكن كانت بعض الفضول لا يزال يدفعه إلى طرح مزيد من الأسئلة: هذا محتمل، ولكن لماذا فعلت رحمة كل ذلك؟

رد حميد: هذا ما يجب أن نكتشفه.

وعاد شولي للتساؤل من جديد، وكأنه أصبح تلميذا أمام شرطيين عديمي الخبرة: ولكن إن كانت رحمة من فعل ذلك، فكيف استطاعت أن تزور الوثائق بذلك القدر من الدقة، فهي كما نعلم امرأة أمية وفقيرة.

قال نوفل بدون تفكير: ربما استعانت بشخص يحترف التزوير.

وماذا عن ملفاتها الالكترونية، هل يعقل أن للمرأة شبكة علاقات واسعة تمتد لتصل معظم المؤسسات الرسمية؟

وأضاف حميد بشيء من التهكم: أو أنها تعتمد على أحد عباقرة الهاكرز، والذي استطاع أن يتسلل إلى البيانات الحكومية ويعبث بها، ثم استدرك وهو يحرك القلم بين أصابعه: أيها السادة، ربما كانت كل المعلومات الخاصة بجازية صحيحة، وما قصة التزوير إلا فرضية ليس لها أي علاقة بالواقع.

قام شولي وقال بتبرم: دعونا من هذا كله الآن، ولنتناول بعض الطعام الذي أحضرته في طريقي إلى هنا.

قال حميد مازحا: تعجبني حين تحضر لنا مفاجأة مثل هذه، أتوق لأتذوق طعام زوجتك.

رد شولي وهو يغادر المكتب: لم يكن لي الوقت الكافي لأعود إلى البيت، لذلك اشتريت سوندويتشات من المطعم المقابل.

وحين جلسوا على طاولة بإحدى القاعات بالمخفر، تلقى شولي اتصالا من مستشفى عبد القادر محمودي وأبلغ بأن رحمة استفاقت من الغيبوبة. قال نوفل: هل نذهب لنتحدث معها الآن؟

أشار شولي بيده وقال: اجلس وتناول طعامك، وبعدها يمكنك الذهاب مع حميد لاستجوابها.

ألن تذهب أنت؟

لا داعي إلى ذلك، فقد أصبحتما تعرفان ما يجب عليكما البحث عنه.

12

توجهت ممرضة إلى غرفة في نهاية الممر بصحبة حميد ونوفل، وحين اقتربت من الباب توقفت واستدارت نحوهما: "كنت قد تركتها مستيقظة قبل قليل، وأرجو ألا تزال كذلك."

تساءل حميد وهو يخطو إلى الداخل: هل يمكنها الحديث؟

هزت المرأة كتفيها واكتفت بالقول: لم تقل أية كلمة إلى الآن، ولكن لا بأس بالمحاولة.

حين اقتربوا من السرير رأوا عينيها مغمضتين وجسمها يبدو أكثر نحولا، علقت الممرضة بينما كانت تزيح بعض الستائر: أظن أنها لا تزال مستيقظة.

حاول حميد أن يوقظها فناداها بصوت خافت حتى لا يفزعها، وبعد لحظات فتحت عينيها وبقيت شاخصة للسقف. أحس حميد أنها مثل الأموات، ولكنه أعاد المحاولة راجيا أن تسمع ما يقوله: رحمة... هل تسمعينني؟ نحن من قسم الشرطة ونريد التحدث بشأن جازية، هي الآن في مشكلة كبيرة، وقد تساعدينها إن زودتنا ببعض المعلومات.

بقيت رحمة ساكنة من غير حراك، فحاول حميد أن يتحدث إليها مرة أخرى قبل أن تقاطعه الممرضة: أرى أنك تتعب نفسك سيدي، فالصدمة التي أصابتها أثرت فيها بشدة، لا سيما وأنها لم تكن الأولى.

وبدا أن حميد لم يستمع إليها، فردد مجددا: سيدة رحمة، أرجوك تحدثي إن كنت تسمعينني.

وساد صمت لم تحرك فيه رحمة شفتيها، فقال نوفل: دعنا نذهب، فلا أظن أنها ستتكلم.

وأمسكه زميله من يده إلى خارج الغرفة، وهناك قرب الباب عبر حميد عن خيبة أمله: لو أنها أخبرتنا بسبب تزوير الوثائق لكانت أنقذت ابنتها.

وضع نوفل يده على كتف حميد، وقال محاولا أن يخفف عنه: سنجد طريقة أخرى لمعرفة ذلك فلا تضغط على نفسك.

وظهرت الممرضة من الغرفة بقوام نحيف، وشعر بالكاد يظهر تحت قبعة بيضاء، نظرت إليهما وقالت بنبرة هادئة: لقد عادت للنوم، لهذا أرجو ألا تحاولا التحدث إليها.

أراد حميد الكلام ولكن نوفل كان الأسبق إلى القول: لا داعي للقلق، فلا أظنها ستتحدث على أي حال.

أتودان شيئا آخر قبل أن أغادر؟

قال حميد في نغمة يائسة: إذا تحسنت حالتها فأرجو أن تتصلي بنا.

حسنا.

حين غادرت المرأة ظل حميد يرمقها للحظة وهي تبتعد، وكان عقله حينها عاجزا تماما عن التفكير، فقرر العودة إلى البيت، ولكن نوفل كانت له أفكار جديدة: "ماذا عن والد هشام؟ ألم تخبرني من قبل أنك كنت تود زيارته؟"

كنت أود ذلك في الوقت الذي كان هشام مفقودا، أما وقد وجدناه، فما الجدوى من ذلك؟

لعله يعرف شيئا عن هوية جازية الحقيقية.

أحس حميد وكأنه أخذ جرعة أعادت إليه بعض الوعي، فشعر بامتنانٍ لم يرد أن يظهره، ثم قال: "أظنك محقا؟" وأضاف وكأنه يحدث نفسه: إذا

قابلت ذلك الرجل، فقد يخبرنا بما نريد سماعه، أو على الأقل يرشدنا إلى شخص يعرف بعض أسرار تلك الأسرة.

لم يرد نوفل أن يفسد حماس زميله، ولكن كان لابد من القول: أخشى أن يكون التزوير قد حدث بعد مغادرة الرجل لزوجته، وهذا يجعله بمنأى عن الأحداث التي نسعى إلى اكتشافها.

أخذ حميد يسير نحو المخرج، ولم يعد يهتم باستفاقة رحمة هذه المرة: "على كل حال، لابد من استجواب الرجل، فأي معلومة يضيفها قد تكون مفيدة في التحقيق."

ثم استدرك بعد لحظة قصيرة من التفكير: وددت لو كان يسكن في منطقة قريبة لنزوره مباشرة. ومع ذلك أرى أن اذهب اليوم إلى ولاية الشلف، وإن وصلت متأخرا، فسأبيت هناك واتصل به في الغد، هل تريد أن تأتي معي؟

أرى أن أبقى هنا لأتحقق أين كانت وجهة السيد بوشو قبل عودته إلى البيت ساعة مقتله.

لا بأس، وبذلك يمكننا أن نربح بعض الوقت، ولكن أرجو أن توصلني قبل ذلك إلى محطة آغا بسيارتك، فأنا أنوي الذهاب بالقطار.

***

انطلق القطار على الساعة الثالثة مساء، وبعد ما يزيد عن الساعتين ببضع دقائق كان حميد يقترب من حي عمراني بمدينة الشلف، لحسن حظه أن الرجل معروف بمحل لتصليح الأحذية، كان الوقت يبدو متأخرا رغم أن الساعة لا تزال الرابعة وعشرين دقيقة، وفكر في أن الرجل لابد أن يكون في

منزله الآن، ولكن أحد الجيران أكد له أن مختار لا يعود إلى بيته حتى الساعة السادسة.

وكان المحل يبعد بمسافة مائتي متر عن البيت، لهذا كان على حميد أن يسير لبعض الوقت بين الشوارع الصغيرة التي كانت قد أنيرت أضواؤها. مر بمحل لتقديم الوجبات السريعة فخطر له أن يتوقف ليسدّ جوعه، ولكنه فضّل أن يتحدث إلى الرجل أولا ثم يبحث له عن مكان للأكل وربما المبيت.

و في زاوية قرب موقف لنقل المسافرين وجد المحل أخيرا، ولكن لم يكن مختار جازم هناك، كان بدلا عنه شاب يافع يمسح الأحذية بالقرب من المدخل. سأل حميد عن صاحب المحل، فأجاب الفتى أنه خرج منذ نصف ساعة وسيعود في أية لحظة، وفيما كان حميد منشغلا بالنظر إلى الأحذية وبعض معدات الاسكافي، دخل رجل في الخمسين من العمر، يكاد يكون طوله بمثل طول شولي، أصلع مع شعيرات في مؤخرة الرأس، شاربين كثيفين يزينان وجها بيضويا مع جبهة عريضة، لم يكن حميد يعلم إن كان قد وصله نعي ابنه أم لا، ولكن ذلك لم يكن ليقلقه، فالرجل لم يهتم يوما به، ولا يظن أنه كان يسأل عنه أيضا. عرّف حميد عن نفسه، وطلب منه بعضا من وقته، وحينها دخل شابان إلى المحل، فأمر مختار الصبي أن يهتم بهما وعرض على حميد التحدث في مكان آخر.

وفي مقهى غير بعيد، قال حميد محاولا أن يتأكد من هوية الرجل: أنت السيد مختار عازم والد هشام من زوجته الأولى سمية عواد؟

هز مختار رأسه موافقا، فرأى حميد أن أول ما يجب عليه أن يفعله هو إخباره بمقتل ابنه. وحين أنهى كلامه، شخص مختار بنظره، وسأل باهتمام: هشام؟

أجل.

ومتى حدث ذلك؟

منذ يومين، ولكن الوفاة كانت قبل ذلك بعدة أيام حسب ما أثبته أطباء التشريح.

ساد وجوم قصير، إلى أن قال حميد وهو يعقد ذراعيه فوق الطاولة: لم يجد من يقف بجانبه فانزلق مع بعض الشباب في هوة الإدمان والانحراف... مات ابنك بينما زج بأصدقائه في السجن.

بدأ مختار أخيرا يحس بالذنب، إلا أنه لم يجد ما يقوله، فاستمر في صمته وعيناه تتجهان إلى النادل الذي جاء متأخرا ليأخذ الطلبات. عادت رغبة حميد في أن يطلب شيئا للأكل، ولكن لم يكن هناك غير حلويات معروضة منذ الصباح، وللمرة الثانية قاوم رغبته في الأكل واكتفى بكوب من العصير. قال بعد أن غادر النادل: لا أريد أن أتدخل في أمورك الشخصية، ولكن ألا ترى أنه من غير اللائق إهمال ابنك كل هذا الوقت؟

رد مختار بنبرة بدت صادقة: كنت أود تقديم المساعدة ولكن سمية لم ترد ذلك، لقد منعتني حتى من رؤيته، وبعد وفاتها فعلت أختها الشيء نفسه، ولأنني اضطررت لتغيير إقامتي بعيدا عنها، لم أستطع أن أكون أكثر إلحاحا على رؤيته.

نظر حميد إلى ساعته، فرأى أن الوقت يمر بسرعة ولا بد ألا يضيّع مزيدا منه: "بما أنك أشرت إلى أختها رحمة، أود أن تخبرني ماذا تعرف عن تلك المرأة."

في الحقيقة أنا لا أعرف عنها الكثير، فزوجتي السابقة لم تكن تحدثني عن أهلها كثيرا، كما أنني لم أكن مهتما بالسؤال. ولكن أستطيع أن أؤكد لك أنها كانت عنيدة كأختيها، وأنها من تكفلت بتربية ابنيهما بعد وفاتهما.

فكر حميد لبرهة، ثم عاد للتساؤل: أود فقط أن توضح لي هذه النقطة إن سمحت، فحسب علمي قامت رحمة بتربية ابنك هشام إلى جانب ابنتها جازية، ولكنني لم أكن أعلم أنها قامت بكفالة ابن آخر، أو أنها كانت لها أخت أخرى.

كانت لسمية رحمها الله أخت تكبرها بعدة سنوات تدعى سعاد، أو هكذا قيل لي، فأنا لم أرها قط، كانت مثل اللغز الغامض، لا أحد يتكلم عنها أو يأتي على ذكرها، وقد سمعت صدفة من أختها أنها تزوجت ولم يعلم أحد من الجيران بذلك، ثم طلقت قبل طلاقي من أختها دون أن أعلم كذلك بالخبر حتى توفيت، وتركت بنتا كما سبق وأن أخبرتك.

ولكن لماذا في رأيك كانوا يخفون زواج أختهم حتى عليك أنت؟

لست أدري، ولم أكن من النوع الفضولي الذي كان يسعى لمعرفة كل شيء.

ونظر حميد إلى شخص بدا يشبه نوفل، ثم عاد للحديث: يبدو أن هذه الأسرة لا تزال تخفي الكثير من الأمور، فخلال لقائي مع جازية لم تذكر أن لها خالة أخرى متوفاة، وكذلك حين تحدثت عن حياتها، لم تتطرق لتلك الابنة التي تتحدث عنها.

ربما تزوجت، فقد مرت سنوات عديدة لم أسمع أخبارا من هناك، ولا بد أن أمورا كثيرة قد حدثت منذ ذلك الوقت، فحين تركتهم لم تكن رحمة قد تزوجت بعد، وها أنا ذا اسمع منك أنه صار لها هي الأخرى ابنة.

نظر حميد باهتمام إلى وجه مختار المضطرب، ثم قال: هل أنت متأكد أنها لم تكن متزوجة حين طلقت أختها.

قد يكون هذا هو الأمر الوحيد الذي أنا متأكد منه.

وفكر حميد متسائلا عن الوثائق الذي تذكر أن رحمة هي والدة جازية، ثم تذكر أنها وثائق مزورة، وهذا يعني أنه لم يكن الاسم فقط غير الصحيح، وإنما حتى هوية الوالدين، فكيف يعقل أن جازية أكبر من هشام وأمها لم تتزوج إلا بعد وفاة أم هشام؟ كان كل ذلك يدعو إلى مزيد من الحيرة، زواج في السر، وتغيير هوية الابنة، لماذا فعلوا ذلك؟ لم يكن يبدو أن مختار قادر على الإجابة على هذه التساؤلات، ولكن اليأس دفع حميد إلى القول: وهل أنت متأكد أنك لا تعرف هوية زوج سعاد؟

هز رأسه ببطء وأجاب: كما قلت لك، لم أكن أعلم بوجود تلك المرأة، فما بالك بمعرفة حياتها الخاصة.

نظر كل منهما إلى الآخر في حيرة، إلى أن قال حميد: سأجري مزيدا من التحريات، وإن احتجت إليك سأتصل بك.

تبادلا أرقام الهواتف وتوجه حميد بعدها مباشرة ليأخذ سيارة أجرة إلى العاصمة.

***

وصل حميد إلى المنزل قبل منتصف الليل، إلا أنه لم يستطع أن ينام إلا ساعتين قبل أن يرن المنبه في السادسة، كان أهم شيء يود أن يقوم به ذلك اليوم هو زيارة للحي الذي تقيم به رحمة من أجل مزيد من التحريات، قام من فراشه وتوجه إلى المطبخ، وهناك حضّر مزيجا من الحليب والقهوة

كإفطار خفيف، ثم ارتدى ملابسا رياضية وانطلق للتريض عبر شوارع المحمدية التي كانت لا تزال هادئة، وبعد ساعة من الركض، اكتفى ببعض الحركات الخفيفة ثم توجه لأخذ حمام دافئ.

وبدل أن يستدعي سيارة الشرطة، اعتمد على الحافلات للتنقل إلى محطة تافورة، ومن ثمة إلى باش جراح، سار بعض الأمتار من المحطة إلى شارع ممتد يوجد في نهايته منعطف صغير يقود إلى حي فايد، نظر إلى ساعته فوجد أنها الثامنة والنصف، كان وقتا غير مناسب تماما لإجراء المقابلات مع الجيران، فالجميع سيكون قد غادر إلى عمله، ولكن ما كان يود أن يسأل عنه لن يتطلب شخصا منشغلا على الدوام، بل شخص دائم المكوث في الحي وليس له همّ إلا تقصي أخبار الجيران، كان إذًا يعرف جيدا عمن يبحث، توجه إلى بيت المرأة التي كانت تراقبهم بالأمس، وحين اقترب وجدها تكنس الرصيف الترابي قرب باب منزلها، لم تتفطن إليه في البدء، ولكن حين لمحته يقترب منها أسرعت إلى البيت وأوصدت الباب، لم يتوقع أن تفعل ذلك، فبالأمس لم يكن يبدو عليها الحياء، إضافة إلى أنها لم تكن في سن تخشى أن ترمقها الأعين أو أن تهفو نحوها القلوب، دنا من الباب وطرقه بلطف، فسمع المرأة تقول: من أنت وماذا تريد؟

أيقن أنها تنظر إليه من ثقب ما في الباب، فقال دون مقدمات: أنا من الشرطة وأود أن أسألك بعض الأسئلة عن جارتك رحمة.

لماذا تريد أن تسأل؟

أظنك قد سمعت بوفاة ابن أختها هشام، وقد جئنا بالأمس لنتفقد بيته لذلك السبب.

صمتت المرأة لبرهة، ثم سمع صوتها مجددا: ماذا تريد أن تعرف؟

هل أنت من الساكنين الأوائل لهذا الحي؟

أجل.

وماذا عن رحمة وأسرتها؟

أقمنا هنا قبلهم، ولكن ببضعة أشهر فقط.

هذا جيد، كم كان عدد الأسرة حين قدموا هنا لأول مرة؟

وما علاقة هذه الأسئلة بمقتل هشام؟

أرجو أن تجيبي على هذه الأسئلة سيدتي، فالأمر جد معقد ونحتاج إلى معرفة بعض التفاصيل عن هذه الأسرة.

حسنا، كانت هناك أم وثلاث بنات سمية وسعاد ورحمة، توفيت بنتان وأمهما ولم تبق إلا رحمة.

وماذا عن هشام وجازية، ابنا من هما؟

هشام هو ابن البنت الوسطى، وتدعى سمية، فيما جازية هي ابنة رحمة.

وكان حميد قد قلّب الأمر على كل وجوهه فقال مشككا: ولكنني علمت أن رحمة كانت غير متزوجة حين تطلقت أختها سمية، فكيف لها أن تنجب بنتا أكبر في السن من هشام.

سمع حميد صوت ارتطام خفيف بعد أن أصابت المرأة الباب بمرفقها، ثم سمعها تتحدث بانفعال: هذا ما أعرفه، وإن كنت تشكك في كلامي، فلست مضطرا للحديث معي.

أدرك حميد أن المرأة تحاول إخفاء بعض الحقائق، ولكنه قرر مواصلة الأسئلة: "أرجو المعذرة سيدتي، ولكنه مجرد سؤال آخر، كيف تفسرين أن تكون ابنة رحمة أكبر من ابن سمية الذي ولد قبل زواج خالته؟"

لست أدري.

وماذا عن ابنة سعاد، الأخت الكبرى لرحمة وسمية؟
ومن أخبرك أن لتلك المرأة أولاد؟ فقد ماتت قبل أن تتزوج.
صمت حميد متفكرا، وحينها ظهرت امرأة في نهاية الزقاق تنظر إليه بريبة، لم يكترث لنظراتها الجريئة، وواصل حديثه بنبرة صارمة: اسمعي سيدتي، لست أدري ما تريدين إخفاءه، ولكن تأكدي أنك تعبثين مع الحكومة، وأننا سوف نكتشف كل شيء، وستعاقبين إن كانت الحقائق على خلاف ما ذكرت، فالكذب على الشرطة خلال عملية التحقيق جرم يعاقب عليه القانون.
انتظر حميد ولم يتلق أي رد، ثم سمع جلبة أحدثها الباب، وفتح على وجه المرأة التي كانت تكلمه، كانت تبدو في السنوات الأولى من عقدها الخامس، لها وجه نحيل وعيون ذكية، تخفي قطعة قماش معظم شعرها الأشيب، وترتدي على عادة ربات البيوت جبة خفيفة، لم تبدو أنها خائفة، نظرت إليه بأعين حادة، ثم قالت: تأتي لبيتي متوسلا بعض المعلومات، ثم تتهمني بالكذب وتهددني.
أوقعت كلماتها الواثقة بعض الاضطراب في نفسه، ولكنه رد بهدوء: إذا كنت تحاولين التستر على أمر، فيمكنك إنكار كل شيء دون اللجوء إلى الكذب، ففي هذه الحالة ستضللين العدالة وتبعديننا عن معرفة الحقيقة.
إن كان هذا ما تريده فانْسَ كل ما سمعته، واسمع مجددا ما سأقوله.
وأشارت بحركة عدوانية، وأضافت: لا أعرف شيئا عن تلك المرأة، ولا أي معلومات عن أسرتها.
لم يجد حميد ما يجادل به المرأة فأشاح بنظره عنها مبتعدا عن منزلها، كان غير واثق مما سيفعله، وفي نهاية الزقاق كانت المرأة الثانية في انتظاره، ما إن

صار بمحاذاتها حتى قالت بجسارة: اسمع أيها الشرطي، سمعتك تتحدث مع تلك المرأة، وفهمت ما الذي تريد أن تعرفه، فإن كنت لا تزال مهتما، فأنا مستعدة للإجابة على كل أسئلتك.

لم يرتح حميد لها من أول نظرة، ولكنه كان في أمس الحاجة إلى مزيد من المعلومات، حدجها بنظرة حازمة، وقال محاولا إخفاء اهتمامه: أي معلومات تقصدين؟

استمرت في تثبيت نظراتها الجسورة نحوه وأجابت: معلومات عن أسرة رحمة، أليس هذا ما تريد معرفته؟

أجل، وماذا تعلمين عنها؟

أود أن يكون سؤالك أكثر تحديدا، ماذا تريد أن تعرفه أنت بالضبط؟

أريد أن أعرف مصير ابنة سعاد.

وهل يعقل أن يخفى على محقق ذكي مثلك أن جازية هي نفسها ابنة سعاد؟!

لم يبد حميد متفاجئا، فقد حدثته نفسه أكثر من مرة بذلك.

ولكن لماذا الكل يدعي أنها ابنة رحمة؟

هذا من أجل مصلحة الطفلة، حتى تعيش حياة طبيعية ولا تخجل من كونها...

وصمتت المرأة، ثم واصلت بنبرة أخرى: حسنا، فالقصة قديمة بعض الشيء، ولكن بعض الجيران يعرفونها ويكتمون ذلك، وأقصد بالجيران من سكن هذا الحي أول مرة، فقد كان هذا المكان قبل أكثر من عشرين عاما، مجرد أرض مليئة بالنباتات الشوكية، وكان أول كوخ بني، ذلك الذي هناك، وأشارت إلى كوخ في نهاية الزقاق من الجهة المقابلة، ثم تبعناه نحن، وبعد عشر سنوات كبر الحي ليصبح على ما تراه اليوم، وما يهمنا أن سعاد ابنة

عائشة، أي أخت رحمة، قد فرّت من البيت مع رجل مجهول، أو هذا ما يقولونه، وعادت بعد سنتين ببنت ادعت أنها نتيجة زواج، ولكن ما يكشف العكس، أن البنت كانت دون لقب، ولهذا وبطريقة ما تم تسجيلها على أنها ابنة رحمة، رغم أن رحمة كانت هي الأخرى غير متزوجة، أما سعاد فقد اختفت مجددا إلى أن سمعنا ذات يوم بموتها.

كم كان عدد الجيران الذين يعرفون هذه الحقيقة؟

فكرت المرأة لدقيقة، ثم أجابت: أظننا كنا أربعة. أنا وتلك المرأة التي كنت تتحدث إليها، وأشارت مرة أخرى إلى منزل قريب، وقالت: وتلك العائلة، إضافة إلى عائلة أخرى رحلت من هنا قبل عدة سنوات.

ولماذا جعلت سعاد ابنتها باسم أختها ولم تسجله باسمها، بالرغم من أن كليهما كان غير متزوج كما ذكرت.

هذا ما لا أعلمه.....

وهل تعلمين كيف استطاعت أن تغير الوثائق؟

لا.

وماذا كانت تعمل؟

من؟ سعاد؟

أجل.

وما أدراني ماذا كانت تعمل بعد أن اختفت، ولكن أغلب الظن أنها كانت تعمل في مهنة غير شريفة، أرجو أن تفهم ما أقصده.

فهمت قصدك سيدتي، شكرا جزيلا لك.

***

اتصل حميد بشولي ليطلعه على ما وصل إليه، ولكنه طلب منه التريث هناك إلى حين وصوله، وبعد عشرين دقيقة، اقتربت سيارة الشرطة إلى مكان انتظاره، عند مفترق طرق قرب محطة باش جراح، وظهر شولي خلف المقود يبتسم: "كنت أظن أنك لا تزال في الشلف، لا تقل إنك وصلت من هناك الآن فقط؟"

جلس حميد على المقعد الأمامي، وقال هو يصافح شولي: عدت إلى البيت ليلة الأمس، وفي الصباح جئت إلى هنا للتحدث مع جارات رحمة.

أدار شولي المقود نحو الطريق السيار، وقال: كنت على وشك أن أتصل بك لأطمئن عليك.

أشكرك.

والآن حدثني عما وصلت إليه.

وحين أخبره بما اكتشفه، تساءل شولي: لا أزال متحيرا كيف استطاعت تلك المرأة أن تخفي كل ذلك عنا، فمنذ الأمس ونحن نبحث في سجلاتنا عن هويتها دون جدوى، هل يعقل أن تختفي كل المعلومات عنها بهذا القدر؟

ربما لم يسبق أن سجلت نفسها منذ الولادة، فبعض الناس يولدون في البيت، ولا يقوم أولياؤهم بتسجيلهم..

وماذا عن اسمها المدون في وثائق جازية باديس؟

سبق وأن أخبرتك أن كل ما ورد في تلك الوثائق مزور، وليس فقط اسم جازية، أي أنه حتى هوية الوالدين ليست حقيقية، وهذا يعني أنه قد تكون جازية ابنة سعاد من دون زواج..

تنفس حميد بعمق، وقد أحس بالإشفاق على جازية: من الصعب عليها أن تتقبل الحقيقة.. أظن أنه علينا إخراجها من الحجز وتوفير رعاية خاصة لها.

وخلال فترة صمت، نظر حميد عبر النافذة إلى السيارات المارة على الطريق السريع، وتساءل مرة أخرى في نفسه: "كيف أن الأمور تزداد غموضا بدل أن تحل...؟ كيف يعقل لرحمة -تلك المرأة الفقيرة البائسة- أن تضلل رجال الشرطة وتخفي هويتها عن الجميع؟ وكيف استطاعت أن تزور وثائق رسمية وتصل إلى سجلات الإدارة والشرطة وتعبث بها؟"

أما شولي فقد أدرك حزن زميله على المرأة الشابة، فقال محاولا أن يخفف عنه: قد تكون والدة جازية تزوجت سرا وليس للأمر علاقة بما يعتقده الجيران.

رد حميد وهو لا يزال ينظر من النافذة: وما الذي قد يدفعها إلى ذلك؟

لست أدري.

حتى ولو افترضنا ذلك، فسنضيف لمجموعة تساؤلاتنا سؤالا آخر ليس له إجابة، لماذا نسبت البنت إلى رحمة رغم أنها غير متزوجة؟

وساد صمت آخر إلى أن ضرب حميد لوحة القيادة بقوة وصاح: ولم لا؟!

استدار شولي نحوه وقال متسائلا: ما بك؟

أجاب حميد بحماس: خطرت لي فكرة، فإن افترضنا أن سعاد قد تورطت مع رجل نافذ في الدولة، فهذا يفسر كل شيء. فالكثير من المسؤولين تربطهم علاقات محرمة مع نساء فقيرات، ولكنهم لا يريدون أن يسمع بعلاقاتهم أحد حفاظا على سمعتهم، وهذا ما يكون قد حدث مع سعاد عواد، أي بعد أن أنجبت له طفلة، لم يرد هذا المسؤول الكبير أن تضيع ابنته، فقام

باستغلال نفوذه وخلق لها أما وأبا على الوثائق، كما قام بحذف كل المعلومات التي قد توصل إلى الحقيقة.

هذا منطقي جدا، ولكن لا ينفي مطلقا أن الفتاة لقيطة، فإخفاء العلاقة هو ما يؤكد أنها كانت غير شرعية، ولكن ما خمّنتَه عن مركز الأب قد يكون صحيحا، وهو التخمين المفسّر لعدم قدرتنا على اكتشاف الوثائق التي تساعدنا في التحقيق.

تنهد حميد وقال: إذا كان الأمر صحيحا كما ذكرت، فمن الصعب أن نصل إلى شيء.

تبسم شولي وقال: مع كل السنوات التي قضيتها في التحقيقات، لا أزال أتساءل أحيانا؛ لماذا أحاول الإجابة على أسئلة تبدو بعيدة عن القضية التي أحقق فيها؟ فكما ترى من قضية قتل إلى التحقيق في هوية والد ارتكب خطيئة منذ أكثر من عشرين عاما.

ارتكب تلك الخطيئة، وحاول تصحيحها منذ ذلك الوقت، أي أن الرجل الذي نبحث عنه قد يكون الآن بعيدا عن السلطة.

القرب أو البعد عن السلطة والقوة ليست خيطا يمكننا الاعتماد عليه، فحتى إن كان الرجل الآن متقاعدا، فليس من الصعب عليه أن يقوم بأي شيء، وذلك اعتمادا على العلاقات والصلات القوية التي لا تزال تربطه مع الشخصيات النافذة.

وهل تعتقد بأن لهذا الرجل النافذ علاقة بالجرائم التي ارتكبت؟

لا أستطيع حتى التخمين.

لو أن رحمة تتكلم فربما عرفنا من يكون.

لا أظنها ستفعل ذلك بسرعة، فشخص فقد أختين وقريب بمثابة الابن، ليس بالأمر الذي يسهل تحمله.

إذن علينا الاعتماد على أنفسنا، ولن تكون المهمة سهلة علينا نحن أيضا.

أجل.

ومن الضروري كذلك أن نبحث في طريق مختلف تماما.

بل سيكون علينا البحث في أكثر من طريق.

قال حميد: إلى أين نحن ذاهبَين الآن؟

كنت سآخذك إلى مكان ما، ولكنني أرى أن أدعك تعود لتستريح، وسأعمل أنا على إخراج جازية من الحجز هذا اليوم.

13

لم يستيقظ حميد في الصباح الباكر كما اعتاد أن يفعل؛ دخل مكتبه بمركز الشرطة، ثم جلس على كرسيه الجلدي المريح، وراح يحدق في السقف واضعا إحدى ساقيه على الأخرى، كان يحاول أن يفكر في القضية مجددا. رجل من كبار رجال الدولة، يقيم علاقة مع امرأة فقيرة وينجب منها طفلة قبل أكثر من عشرين عاما، ثم يشعر بالشفقة لحال ابنته، فيستغل نفوذه في خلق هوية لها، ويبدو أن الابنة التي صارت امرأة ناضجة الآن، لا تعرف إلى حد الساعة بهذا الماضي. ولكن السؤال الذي يحيّره هو: ما علاقة كل هذا بوفاة زوجها؟ من الصعب أن يستمر في البحث في الاتجاه نفسه كما سبق وأن ذكره لشولي، ولكن أي اتجاه سيسلك؟ وتذكر كل ما قام به مع شولي ونوفل من تحريات، ورسم في ذهنه قائمة بالمشتبه بهم، من الذين قاموا باستجوابهم ومن الذين لم يفعلوا بعد، وأخيرا رأى أنه من الأفضل أن يعود إلى شركة بوشو من أجل التحدث مع نائبها، والذي يكون الآن قد عاد من السفر، وحين كان متوجها إلى هناك، مر على مكتب نوفل فوجده يشتغل على حاسوبه، دخل قبل أن ينتبه إليه، وقال دون تحية: أراك مشغولا؟

نظر نوفل نحوه وقال: ليس بالأمر المهم، كنت أود أن أصل إلى شيء فيما يخص قضيتنا، ولكن يبدو أنك كنت دائما الأسبق لفعل ذلك.

تبسم حميد واقترب أكثر من المكتب: يبدو أن شولي قد أخبرك بما حدثتُه به، ولكنها لا تتعدى مجرد تخمينات، ولحد الساعة ليس لدينا أي دليل قوي

نفسر به السؤال الأهم الذي نبحث عنه، من قتل السيد بوشو وقريب زوجته هشام؟

عاد نوفل للنظر إلى شاشة الحاسوب، وقال: كنت أحاول أن أعرف مَن مِن رجال الدولة أشبه بجازية، يبدو الأمر سخيفا إلا أنه قد يفيد.

ضحك حميد من هذه الفكرة الغريبة، وقال: أظن أن جازية تشبه والدتها أكثر من والدها.

وهل تعرف أنت والدتها؟

لا، ولكن أعرف خالتها، فهي أقرب شبها برحمة.

دعك من هذا الآن وأخبرني ما الذي تود فعله؟

جئت في الحقيقة لأسألك إن كنت تود الذهاب معي لشركة بوشو، من أجل التحدث مع مديرها المؤقت سعيد كريفالي.

وهل تعتقد أنه سيفيدنا في شيء؟

لا أعلم، ولكن علينا المحاولة، هل ستأتي؟

قام نوفل من مكانه وهو يرفع سترته عن ظهر الكرسي.

بالطبع سوف آتي، فلم يعد لي نية في البحث عمّن يشبهون جازية بعد الآن.

عند نزولهما السلالم، قال نوفل: مررت البارحة بشركة بوشو، وحين سألت الحارس عن زيارة بوشو للشركة يوم مقتله، قال إنه جاء بالفعل، ثم عاد أدراجه حتى قبل أن يخرج من سيارته.

لابد أن القاتل استدرجه للعودة إلى البيت، ولكن من الغريب أنه لم يتصل بسبتي ليعتذر عن عدم حضور الاجتماع.

ربما الأمر الذي عاد لأجله إلى البيت، أنساه كليا ذلك الاجتماع.

هذا محتمل، غير أنه من الصعب أن نكتشف من يكون ذلك الشخص.
علينا ألا نتسرّع في تتبع الأدلة حتى لا تختلط علينا الأمور، لهذا علينا الآن أن نقابل السيد كريفالي، ثم نرى ما يمكن فعله.
وسارا صامتين للحظات إلى أن خطر لحميد خاطر، كان قد نبع من عاطفة لم يتحقق من حقيقتها بعد: "تراودني فكرة زيارة جازية في طريقنا إلى الشركة، فقد اتصلت بشولي ليلة الأمس، وأخبرني أنه استطاع أن يخرجها من الحجز وأنها الآن في بيتها".
وما الذي ستبحث عنه هناك؟
تردد حميد قليلا قبل أن يجيب: لا عليك دعنا نذهب مباشرة إلى الشركة، وإن دعت الحاجة إلى التكلم معها، فلن يكون صعبا الاتصال بها.
أخشى أن تغير مكان إقامتها، خاصة وأنها أصبحت وحيدة.
لا أظن أنها ستفعل ذلك، فقد لمست لديها إرادة قوية للصمود أمام التحديات التي تواجهها، ولهذا أرى أنها ستبقى، وحتى وإن غادرت فلدي رقم هاتفها المحمول.

وبعد نصف ساعة كانا في مقابلة سعيد كريفالي بمكتبه، وهو مكتب بوشو نفسه قبل وفاته، وكان رجلا يوحي لمن يقابله أنه شخص في منتهى الذكاء، تغطي بدلة سوداء جسمه الممتلئ، وله شاربين خفيفين على وجه مستدير، رحب بالرجلين، ودعاهما للجلوس وهو يقول: أبلغتني الموظفة أنكم اتصلتم بي خلال غيابي، ولهذا كنت أتوقع زيارتكم في أية لحظة.
شكرا لك سيدي وأتمنى ألا نأخذ من وقتك الكثير.

عاد كريفالي إلى مجلسه خلف المكتب، وقال وهو يتناول بعض الأوراق:
أرجو ألا تمانعا بأن أرتب بعض الوثائق خلال الحديث.
أحس حميد بحرج، ولم يشعره ذلك بالارتياح: "إن كنت مشغولا فيمكننا أن نعود في وقت لاحق."
لا بأس، ليس هناك ما هو أكثر أهمية من مساعدتك في البحث عن قاتل السيد بوشو، كما أود أن أهديك نصيحة فأنت تبدو في أول الطريق.
ونظر مباشرة في عيني حميد وواصل: لا تدع أيا كان يتحجج بشغل أو عمل ليتهرب من الاستجواب، لا تسمح لأحد بفعل ذلك مهما علا شأنه، إلا في الحالات الطارئة.
شكرا لك سيدي، سأعمل بنصيحتك.
ورفع كريفالي سماعة الهاتف على يمينه، ونظر إلى المحققين مجددا: "ماذا تودان أن تشربا؟"
لا شيء، لا داعي لإزعاج نفسك.
وضع السماعة وقال: "كما تريدان"، وفيما أخذ حميد يستجمع أفكاره، بادر نوفل بالحديث: أرى أن المصنع لم يتأثر بوفاة السيد بوشو؟
رمقه كريفالي من خلف نظّارات كان قد ارتداها للتو، ثم قال: هذا لأن بوشو كان يعتمد على سياسة التسيير الذاتي للمصنع، فقد خلق نظاما هرميا في توزيع المسؤوليات واحتفظ لنفسه بمهمة تحديد السياسات العامة للشركة.
وعاد كريفالي لحمل رزمة الأوراق من المكتب، فيما قال حميد: أود أن أعرف عن علاقة السيد بوشو -رحمه الله- ومدير شركة ألجي إلكترونيك؟

أزاح كريفالي نظاراته هذه المرة، وقال وهو يوجّه انتباهه الكامل نحو محدثه: هل للرجل علاقة بالجريمة؟

حرك حميد شفتيه وأجاب: ليس على حد علمنا، ولكنه أكثر الشركاء قربا من السيد بوشو على ما أعتقد.

صحيح أن شراكتنا مع شركة ألجي إلكترونيك قوية، ولكن لم يتطور الأمر ليصل إلى المستوى الشخصي، فقد كان كل من بوشو وسبتي رجلين عمليين إلى أبعد حد، ولم يلجآ إلى توظيف لغة العواطف كثيرا في علاقاتهما، إلا فيما يتعلق بالمجاملات التي تفرضها بروتوكولات العمل.

وفكر حميد في أن الرجل النافذ الذي يفترض أن يكون والد جازية، له علاقة بكل ما يحدث فسأل: وهل كان للسيد بوشو علاقات مع رجال السياسة؟

عاد كريفالي لأوراقه بعد أن ألف طبيعة الأسئلة: "هناك الكثير من المؤتمرات السياسية التي يدعى إليها رجال الأعمال، وقد حضر السيد بوشو الكثير منها، ولا شك أنه كوّن علاقات مع بعض الشخصيات، لا سيما بعد انضمامه إلى منتدى رؤساء المؤسسات FCE."

وتوقف عن الحديث حين أمعن النظر في ورقة بين يديه، ثم عاد إلى القول: ولكن رغم ذلك فبوشو لم يكن يميل إلى السياسة، بل كان يتحاشى في الكثير من الأحيان الخوض فيها.

وماذا عن هؤلاء الساسة الذين يملكون شركات اقتصادية، لا بد أن تكون هناك معاملات تجارية بينكم وبين أحدها.

بدا أن كريفالي كان منشغلا أكثر بأوراقه، ولكن ذلك لم يمنعه من الحديث: "صحيح أن لبعض المسؤولين الحكوميين شركات كالتي ذكرت، ولكنها في

الغالب ليست شركات منتجة، وإنما هي مختصة في الاستيراد، وبحكم السلطة التي يتمتع بها مالكيها، فهي تحظى بامتيازات لا حصر لها، لاسيما فيما يتعلق بإعفاء السلع من الرسوم الجمركية، إضافة إلى بعض الأمور الخطيرة التي لا أود أن أخوض فيها".

وهل هناك تعاملات تجارية بينكم وبين هذه الشركات؟

هناك بعض التعاملات، ولكن لا ترقى إلى حد الشراكة الحقيقية، ولكن تربطنا علاقات جيدة مع بعض الأجانب الذين لهم استثمارات هنا. وإن كنت تود معرفة المزيد عن تعاملاتنا التجارية، فستحتاج إلى الاطلاع على السجلات التجارية، وتخصيص وقت كاف لدراستها، فنحن لا نزال نحتفظ بأرشيف كامل لتعاملاتنا منذ أن تأسست الشركة، أي منذ خمسة وعشرين عاما.

ورأى حميد أنها فرصة جيدة للاطلاع على بعض الشخصيات التي تعامل معها بوشو في الماضي، فقال: إن لم يكن لديك مانع فبودي أن ألقي نظرة.

لا بأس.

رفع كريفالي السماعة مجددا، وضغط على زر جهاز بقربه، وفي لحظة ظهرت الموظفة التي استقبلتهم، كانت ترتدي بدلة زرقاء مع ربطة عنق تنسدل فوق قميص أبيض، طلب منها أن تقود المحققين إلى مكتب سمير رايص، وكان المكتب في الطابق نفسه، طرقت المرأة الباب، ودعتهما للدخول بعد أن سمعت صوتا يعطي الإذن بذلك.

كان رايص شابا في الأربعين، له لحية خفيفة على ذقن عريض، كما كان يرتدي نظارات سميكة، وكان سعيد كريفالي قد اتصل به يبلغه بقدومهما، فتوجه مباشرة إلى جهاز الحاسوب فوق مكتبه، دعاهما إلى الجلوس على

الكرسيين المقابلين للمكتب، ثم قال وهو يدير شاشة الحاسوب نحوهما: تم تصوير معظم وثائق الشركة وحفظها في أرشيف الكتروني، لهذا لن يصعب علينا البحث عن أي وثيقة نريدها.

جلس حميد أولا وقال دون مقدمات: أود أن أعرف أهم الشركات التي كنتم تتعاملون معها مع بداية التسعينات.

نظر إليه الرجل وقد أرخى أنامله على لوحة المفاتيح: هناك الكثير من المعاملات في تلك الفترة، فهل تود أن تعرف شيئا محددا؟

أود أن أعرف أسماء الشركات الخاصة التي كنتم تتعاملون معها.

لم يكن سمير ممن يحبون الثرثرة كثيرا، فأعاد اهتمامه مباشرة إلى اللغة التي بدا أنه يفهمها جيدا، فتح برنامجا مثبتا على الجهاز، ثم دون على خانة في أعلى الشاشة سنة 1993 فظهرت قائمة طويلة بالمعاملات التي جرت في تلك الفترة، قال إن معظم الشركات الواردة تعود إلى القطاع العام، ثم ضغط على مزيد من الأزرار فتقلصت القائمة إلى جدول لا يتعدى الصفحتين، وأشار بمؤشر الفأرة إلى الأسماء المتبقية وأضاف: "معظم هذه الشركات لم يعد لها وجود"، ثم أشار إلى اسمين في منتصف القائمة وعاد للشرح: فمثلا لا تزال هذه الشركتين، ولكنهما لم ليستا كما كانتا في السابق، أما هذه فأعلنت إفلاسها قبل شهرين فقط.

علق نوفل بتهكم: بالمختصر المفيد بالكاد بقيت في الجزائر شركات لنبحث عنها.

رفع سمير رأسه عن الشاشة ونظر إلى نوفل: "للأسف إنها الحقيقة، فجل الشركات التي نجت من تدمير الإرهاب أغلقت، ولم تفتح عوضها مؤسسات جديدة يمكن الاعتماد عليها في مشاريع التنمية، حتى بعد تحول البلاد إلى

الخوصصة، صار الكل يلجأ إلى الاستيراد بعد ارتفاع أسعار البترول، والآن بعد أن انهارت الأسعار أنت ترى ما آلت إليه الأمور من التقشف."

وماذا عن أصحاب تلك الشركات المنهارة؟ هل تعتقد أنه لا تزال لديهم استثمارات أخرى؟

من الصعب أن تعرف إذا لم يكن أصحابها أشخاصا معروفين، أو على الأقل لا يزالون على قيد الحياة.

إذن لم يكن من بين المستثمرين الذين تعاملتم معهم شخصيات نافذة أو معروفة؟

اعتدل سمير ليريح ظهره قليلا، ثم أجاب: كانت شركتنا في تلك الفترة مجرد مصنع صغير، لذلك أرجو أن تفكّر على هذا الأساس، ولا تدع الخيال يجنح بك إلى الحجم الذي صارت إليه اليوم، فمعظم المعاملات التي جرت في تلك الفترة -والتي دونت في القوائم التي سبق وأن رأيتها- لا تتعدى عقود بيع أو شراء بمبالغ ليست ذات قيمة كبيرة.

ونظر الرجلان إلى بعضهما في صمت، إلى أن قال نوفل: ولكن معظم المعاملات التي أشرت إليها تبدأ من تاريخ 24 سبتمبر 1993م، أي بعد سنتين من تأسيس الشركة، فماذا عن العقود الأولى؟

هز سمير كتفيه حين أجاب: كانت الشركة تعتمد على الأرشيف الورقي حتى سنة 2000، وخلال عملية تصوير الوثائق لم أكن موجودا، فقد انتقلت للعمل هنا منذ خمس سنوات، ولكن السيد بوشو أخبرني أن العقود الأولى ضاعت نتيجة عدم الاهتمام الكافي بها خلال تلك الفترة، ولكنني وخلال إعادتي تنظيم الأرشيف بعد التحاقي مباشرة بالعمل، عثرت على بعض النسخ التي تعود لسنتي 1991 و1992م.

سأل حميد باهتمام: وهل لا زلت تحتفظ بها؟
حاول سمير التذكر، والمحققان ينظران إليه بترقب إلى أن قال: أذكر أنني أخبرت السيد بوشو عنها، فأمرني بأن أحضرها له على الفور، وحين سألته إن كان يريد أن أحفظها في الأرشيف الالكتروني، قال بأنه سيفعل ذلك لاحقا، ولكنه لم يفعل ذلك أبدا.
وأين تكون هذه الوثائق في اعتقادك؟
لست أدري، ولكن لابد أن السيد بوشو كان يحتفظ بها في مكان ما.

عاد الصمت للحظة، ثم سأل حميد: وهل تظن أن تلك الوثائق كانت مهمة بالنسبة إلى السيد بوشو؟
قال سمير هذه المرة مباشرة ودون تردد: أذكر جيدا أن السيد -بوشو رحمه الله- أبدى حرصا شديدا في الحصول عليها، ولكن عدم اهتمامه على توثيقها الكترونيا قد يعني بأنها ليست بتلك الأهمية التي قد نتوهمها.
سأل حميد دون الاكتراث لتعليق سمير الأخير: هل تذكر ما كان مدونا فيها؟
لا أظنها كانت تختلف عن بقية الوثائق، فقد كانت مجرد عقود بيع وشراء مع شركات محلية.
استند حميد على الكرسي بعد أن مال قليلا إلى الأمام، وقال: لازلت أظن أن لتلك الوثائق أهمية خاصة عند السيد بوشو.
قال سمير في حيرة: ولكن لماذا لم يحتفظ بها في الأرشيف الالكتروني؟ فبذلك ستكون آمن لها من الضياع.
رد حميد: ربما لأنه لا يريد أن يطلع عليها أحد، وإن صدق ظني، فقد تقودنا تلك الوثائق إلى شيء ما.

وأعاد نظرة الاهتمام إلى سمير، وسأل: أرجو أن تكون قد احتفظت بنسخة من تلك الأوراق قبل أن تعطيها للسيد بوشو.

للأسف لم أفعل، ولكنني أذكر أنني كتبت قائمة عنها، ولكن لا أذكر أين وضعتها بالضبط.

أرجو أن تتذكر سيدي، فقد تفيدنا تلك الوثائق في معرفة حقائق مهمة.

ربما أكون احتفظت بها أو ربما حتى رميتها، فقد مضى وقت طويل منذ أن قمت بذلك.

قال نوفل وهو يقوم من كرسيه: هل يمكنك أن تبحث عنها لأجلنا لو سمحت؟

سأحاول أن أبحث عنها في المساء، ويمكنكما أن تتصلا صباح الغد لأخبركما بما توصلت إليه.

قام حميد من مكانه هو الآخر، وقال: أرجو أن تبحث عنها الآن، فليس لدينا وقت كثير لننتظر الغد.

ولكن لدي عمل عليّ إنجازه الآن، ولا أظن أن السيد كريفالي سيقبل التأخير.

لا تقلق، فنحن نأخذ بنصيحة رئيسك في هذا الشأن، وسأحدثه أنك كنت منشغلا بمساعدتنا في البحث عن قاتل رئيس الشركة، ولا أعتقد أن هناك عملا أكثر أهمية من ذلك.

وبدا أن سمير اقتنع بهذا القول، فخطا نحو الباب، ثم قال كمن يحدث نفسه: ولكنني لست متأكدا من أنني سأجدها.

وبعد أن انتقلوا عبر مصعد إلى الطابق الأخير، توجه سمير إلى باب دوّن عليه قاعة الأرشيف، أدار مفتاح الإضاءة فظهرت مجموعة من الرفوف

المعدنية المثقلة بسجلات مختلفة الأحجام، توجه بعدها إلى يسار الغرفة، ثم أخرج دفترا سميكا ذا غلاف بني متآكل الجوانب، وضعه على مكتب في زاوية الغرفة، وهو يقول: أذكر أنني وضعت الورقة في سجل كهذا، ولكن لست أذكر أي واحد بالضبط.

واستمر به الوقت قرابة عشر دقائق وهو يتفحص الدفاتر، حتى تسرب اليأس إلى نفس حميد، وأخيرا استخرج ورقة مدونة بخط اليد، كلماتها تبدو باهتة اللون مهترئة الحواف، تمعن فيها لدقيقة حتى سأل حميد بقلة صبر:

هل هي ما كنت تبحث عنه؟

أظنها هي، إن كانت كذلك فأنتما جد محظوظين.

وبعد أن حاول قراءتها بصعوبة، استدرك قائلا: ولكن لا أرى أنها ستكون مفيدة بالقدر الذي تتصور، فمعظم الشركات المدونة هنا سبق وأن تعاملت معها شركتنا في فترات لاحقة، وهي مدونة في سجلاتنا المخزنة على الحاسوب.

قال حميد وهو يتناول الورقة: قد يكون سر اهتمام السيد بوشو يكمن في محتويات الصفقة وليس في اسم الشركة.

إذن عليك أن تبحث بين أغراض مكتبه بالبيت لعله لا يزال يحتفظ بها هناك.

قال نوفل وهو ينظر إلى الورقة: سبق وأن قامت لجنة مختصة بدراسة الوثائق التي كانت في بيت السيد بوشو ولم تجد بها ما يثير الاهتمام.

نظر إليه حميد بانتباه، وسأل: وماذا عن الوثائق التي بالشركة؟ هل أرسلت من يطلع عليها؟

لا ليس بعد.

قال سمير: لا داعي لتفعل ذلك فبحكم منصبي، أنا على علم بكل الوثائق الموجودة في الشركة، بما في ذلك التي في مكتب المدير، وكلها تعود إلى سنة 1993م.

وتبادل الجميع النظرات في حيرة، ثم قال حميد: لا بأس، سنتصل بك إذا احتجنا إلى شيء. وأشار إلى الورقة التي كانت بيده وأضاف: سأحتفظ بهذه القائمة إن لم يكن لديك مانع.

لا بأس، يمكنك أخذها معك.

وتوجه سمير إلى الباب وهو يخرج كومة من المفاتيح من جيب سترته، خرج الجميع فأغلق الباب ثم عادوا إلى الطابق الأرضي.

حين صار المحققان في السيارة، قال نوفل: أتعتقد أنه ستكون لتلك الوثائق علاقة بمقتل بوشو أم بكشف هوية والد جازية؟

ما رأيك أنت؟

أجاب نوفل وهو يدير المحرك: لست أدري بالضبط.

تبسم حميد وقال: أحيانا علينا تتبع أي خيط نجده مهما كان رفيعا، حتى ولو كنا غير واثقين إلى أين سيقود، فلا تنسى أن مسألة والد جازية المفترض مجرد تخمين، وقد تكون الحقيقة بعيدة كل البعد عما كنا نعتقد، ولكن أكثر ما أهمني في هذه العقود، هو حرص بوشو على إخفائها، مما يعني أنها قد تحمل أهمية خاصة أو خطورة من نوع ما.

إذا كان بوشو قد قتل لأجل تلك الوثائق، فقد يكون القاتل قد أخذها بعد ارتكاب جريمته، وهذا ما يفسر تلك الفوضى التي كانت في مكتب الضحية..

هذا صحيح، وبهذا فقد تكون تلك الوثائق هي الدليل الذي نبحث عنه لتوريط القاتل والقبض عليه، كما قد تكون مجرد عقود بسيطة لا أهمية لها.

تحركت السيارة وحميد في حيرة؛ هل كان ما يقوم به شيئا من العبث أو أنه تتّبع خيط كما كان يحاول أن يقنع به نفسه.

أجرى حميد بعض البحوث عن الشركات التي وردت في القائمة التي قدمها له سمير، والتي دونت بها تواريخ إجراء بعض الصفقات، واسم الشركات التي تم التعامل معها دون تفاصيل عن قيمة التبادل، وخلال البحث لم يجد أكثر مما ذكره سمير، بعضها عمومية وشركتين تابعتين للقطاع الخاص، وكل منهما لم يعد لها وجود في الوقت الحالي، أما عن صاحبي تلك الشركتين فلم يكن أي منهما من رجال السياسة، إلا أن ذلك لن يكون مهما في رأيه إذا كان أحدهما له علاقات قوية مع أصحاب النفوذ. واستلقى على فراشه ليعطي نفسه بعض الراحة، فقد أنهكه التفكير وراح يحدق في السقف، أغمض عينيه بعدها وأخذ نفسا عميقا، وظل على حاله لعدة دقائق، ثم اعتدل جالسا والتقط الحاسوب بالقرب منه مرة أخرى ليجري مزيدا من الأبحاث، دون على محرك البحث 'Google' اسم "كمال أوشفون" وهو الشخص الذي كان يملك شركة أوشفون لاستيراد المعدات الكهربائية، وبعد أن قرأ عدة مواقع، اكتشف أن الرجل غادر الوطن مع بداية الأزمة الأمنية ولم يرجع إلى اليوم، فكر في أنه ربما لا يزال يدير مشاريع ما من مهجره، ولكنه أخيرا صرف النظر عنه، وبعد أن اتجه بنظره إلى ساعة على الجدار، رأى أنها كانت تشير إلى الرابعة مساء، دون اسما آخر، وقرأ في أول صفحة من قائمة النتائج، "محمد شابي"، وهو الرجل الذي كان يملك الشركة الثانية، وتدعى لاكريب، وما لفت انتباهه في سيرة الرجل أنه توفي قبل أن تنهار شركته، وسبب الوفاة حسب الخبراء هو إصابته بسكتة قلبية

خلال الليل، كان ذلك بمسكنه الواقع ببوزريعة، ومع وفاة الرجل انهارت الشركة بعد قرابة سنة ونصف فقط، وتحدث التقرير الذي نشر على موقع أجنبي يدعى 'Subordinates' وهو تابع لمنظمة 'Collapse' غير الحكومية التي تعنى بأخبار بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، أن سبب الانهيار - وعلى عكس ما نشرته مواقع محلية- كان لعدم وجود وريث شرعي لصاحب الشركة وتلاعب بعض الموظفين بأمواله، إلا أن الموقع لم يذكر الأشخاص المتورطين في ذلك، من أجل ذلك قام حميد بمزيد من البحث دون أن يحصل على تفاصيل أكثر، وضع جهاز الحاسوب جانبا، وتمدد مجددا ليفكر، كان عليه أن يكتشف من هؤلاء الموظفين الذين نهبوا أموال الشركة، ثم تذكر العقود التي حاول بوشو إخفاءها، فاعتقد أنه من المنطقي أن يفعل ذلك إذا كانت تفضح تعاملات غير قانونية أو صفقات مشبوهة، تمنّى أن يكون قد تم فتح تحقيق رسمي حول ذلك، فقام بالاتصال ببعض الجهات القضائية، ولكن الجميع فنّد تحريك أية دعوى بهذا الشأن، بعد لحظات، أعاد أحدهم الاتصال وأكد أن موظف سابق بشركة لاكريب قدم دعوى في ذلك الوقت، ولكن لم يتم تحريكها، وظلت الأمور على حالها في ظل تردي أحوال البلاد الأمنية وانتشار الفوضى، إلى أن تم طي الموضوع ونسيانه، كان من الواضح أن المتورطين في نهب الشركة لم يكونوا مجرد أناس بسطاء، لذلك سأل الضابط عن هوية الموظف التي حرك الدعوى فطلب منه الانتظار لعدة دقائق، استطاع حميد خلالها أن يسمع لصوت الضغط على أزرار الحاسوب ثم جاءه الرد مجددا: يدعى "عمر كركرين"، وهو يسكن في حي الرحمة بالعلمة، وبالضبط 147 شارع سي لخضر بوخلف، وقد يكون متقاعدا الآن، لأنه في ذلك الوقت كان على

مشارف الخمسين. نظر حميد إلى الساعة على شاشة الهاتف بعد أن شكر الرجل و أقفل الخط، و قد كانت الأرقام تشير إلى مرور عشر دقائق بعد الخامسة، أي لم يبق من الوقت لغروب الشمس الكثير، كانت له رغبة ملحة في زيارة الرجل، ولكنه لم يكن يملك سيارة خاصة، كما كان عليه أن ينتظر قدوم إحدى سيارات الشرطة، وهذا سيضيع مزيدا من الوقت، ثم فكر أنه لو ذهب الآن فليس من اللائق أن يستجوب شخصا خلال الليل، وبعد أن أقنع نفسه بتأجيل الزيارة إلى الغد، أعاد الضغط على أزرار الهاتف، فظهر رقم أمه التي لم يتصل بها منذ أيام، صارت الآن وحيدة بعد أن غادر كل من في المنزل، تزوجت أخته وسافر هو، إضافة إلى التحاق أخيه بجامعة وهران العام الماضي. رن الهاتف للمرة الثانية قبل أن يأتي صوت أمه الجميل، والذي أنساه بعضا من هموم العمل..

***

في صباح الغد، وقبل أن يلتحق بمركز الشرطة، فكر في أن يتصل بنوفل ليوصله بسيارته البولو إلى مدينة العلمة، ولكنه عدل عن ذلك وتوجه إلى وكالة قريبة لكراء السيارات، وبعد نصف ساعة كان يقود سيارة من نوع رونو سامبول 'Renault Symbol' إلى ولاية سطيف، والتي كانت تبعد حوالي ثلاث ساعات من المسير، وكان الرجل الذي يبحث عنه ولحسن الحظ، يسترخي في حديقة عامة تحت أشعة الشمس كما اعتاد أن يفعل كل صباح، كان يبدو في غاية الهرم، تملأ وجهه التجاعيد، ويرتدي سروالا كاكيا رمادي اللون، وقميصا واسعا بمربعات زرقاء، كان جالسا على كرسي حجري ويتسلى بإطعام سرب من الحمام.

في البداية كان ودودا حين رد التحية، ولكن حين علم أن حميد من الشرطة، انتفض وبدت عليه تعابير غير مرحبة على الإطلاق، حاول حميد أن يهدئه قائلا: أعلم ما حدث قبل عشرين عاما، وتلك الدعوى التي رفعتها ضد بعض موظفي شركة لاكريب، وإن كنت ستحمّل أحدا المسؤولية، فلا أظن أنك ستلقي اللوم علي، فأنت ترى جيدا أنه قد كان سني يومها أقل من عشر سنوات.

ويبدو أن صوت حميد قد بعث في نفسه السكينة أكثر من كلماته، فهدأ وقال بنبرة لا تخلو من جفاء: وماذا تريدون مني الآن؟

أشار حميد إلى الكرسي وقال: هل يمكنني أن أجلس؟

رد عمر وهو يمعن النظر في وجه حميد: نحن في مكان عام وهذا الكرسي للجميع.

جلس حميد وهو يرد على تساؤل الرجل: لم أكن أعلم بقضية شركة لاكريب إلا بالأمس، وقد اكتشفت ذلك في إطار التحقيق في جريمة قتل، ولهذا أعتقد أن ما وقع في الماضي له انعكاسات على ما يحدث اليوم.

تنهد عمر، وعاد ليرمي فتات الخبز للطيور معلقا على ما سمع: إن الله يمهل ولا يهمل.

انتظر حميد أن يضيف شيئا، وحينما لم يفعل قال: لم يعد للدعوى التي قدمتها أي وجود، حتى أنني حينما سألت عن الموظفين الذين قمت باتهامهم، قيل بأنه تم التخلص من جميع تصريحاتك، ولست أدري كيف لا يزالون يحتفظون بمعلوماتك الشخصية عندهم.

من الطبيعي أن يفعلوا ذلك، إذا كنت متهما بالمشاركة في عمليات إرهابية، وتخريب منشآت عامة.

استدار حميد نحوه وقال باهتمام: أحقا فعلوا ذلك؟

ولماذا في رأيك قضيت قرابة عشر سنوات في السجن؟ كدت أن أقتل خلالها أكثر من مرة.

أدرك حميد أن من كان يتهمهم عمر، يتمتعون بنفوذ كبير وهذا ما أنجاهم من العقاب، أي قد يكون أحدهم الشخص نفسه الذي كان سببا في ولادة جازية وخلق هوية مزورة لها. وعاد الصوت الداخلي الذي لم يكف عن تأنيبه: "ما دخل قضية تزوير وثائق جازية بمقتل بوشو؟" ولكن صوت آخر في نفسه كان يحثه على المواصلة: "عليَّ تتبع الخيط وليكن ما يكون".

ونظر إلى الحمام الذي كان يتهافت على فتات الخبز، وقرر الانصياع للصوت الثاني: يؤسفني أن أسمع ذلك سيدي، ففي هذا البلد يحسن بالمرء أحيانا أن يلتزم الصمت على أن يتحدث بما يعرفه، ولكن كما قلت أنت من قبل: "الله يمهل ولا يهمل، ولابد أن ينال الظالم جزاءه"، واليوم أنا أسعى إلى معرفة الحقيقة، ولن أهدأ حتى أصل إلى من قام بتلك الجرائم.

ألقى عمر ما بيده من فتات دفعة واحدة، وقال: وهل تعتقد أنك تستطيع أن تواجههم بمفردك؟ يعجبني حماسك للعمل، ولكن هؤلاء أناس لا يقدر عليهم إلا رب العالمين، وقد سمعت أن أحدهم قتل، وهذا في اعتقادي جزاء عادل لما فعله فيما مضى.

أحس حميد بالدهشة، وقال على الفور: لا تقل إنك تتحدث عن السيد رضا بوشو؟

بدت على وجه عمر ابتسامة باهتة وهو يرد: أجل، ولا بد أنه الرجل نفسه الذي تحقق في مقتله.

اتكأ حميد وأرخى رأسه على مسند المقعد كتعبير عن عجزه في فهم ما يحدث، ثم رد بصوت ضعيف: من الصعب تصديق ذلك، أتقصد رئيس شركة بوشو لأجهزة التبريد؟

هز عمر رأسه استهزاء وقال: هذا صحيح، الشركة التي نمت اعتمادا على خيانة الأمانة والتلاعب بأموال الغير.

ونظر حميد إلى من كانوا يتجولون في الحديقة، وإلى أسراب الحمام التي كانت ترعى بالجوار.. إلى الجالسين ممن قادتهم السنوات إلى نهاية العمر، وإلى أشجار الزينة الباسقة التي كانت تظلل الساحة، ثم عاد إلى وجه عمر المتهالك وقال: ماذا تقصد؟

تحرك جسم عمر قليلا نحو الأمام، ثم قال: لا ألومك إن لم تكن تعرف ما حدث، فهناك الكثير من الأمور التي لا يعلم عنها الكثيرون أي شيء، فبوشو هذا كان صديقا للسيد محمد شابي، صاحب شركة فريدة من نوعها في إفريقيا من ناحية التطور التكنولوجي، وكانت معاملاتها تتجاوز المستوى المحلي لتصل إلى الأسواق الأوربية والكثير من دول العالم، ولكن وفاة الرجل في ظروف غامضة، وضع حدا لهذا النجاح وكانت البداية لضياع كل شيء.

ولكنني قرأت أن الرجل توفي بسكتة قلبية في منزله، فما هو الغريب في ذلك؟

قد يبدو الأمر عاديا لدى البعض، ولكن ما حدث بعد وفاته غرس في نفسي شعورا قويا بأنه قتل ليتم الاستيلاء على أمواله.

قلت إن السيد بوشو هو من استولى على أمواله، فهل هذا يعني أن بوشو هو من قتله؟

هز عمر رأسه هذه المرة بغير وعي، وقال: كان مجرد شعور، ولكن لن تكون مفاجأة لي إن تم تأكيد أنه قتل على يد ذلك الخائن.

صمت حميد للحظة، ثم قال: وكيف فعل ذلك؟ كيف قام بالاستيلاء على أموال صديقه كما ذكرت؟

تحركت يدا عمر المرتعشتان إلى لبابة الخبز داخل الكيس، وأخذ يفتتها إلى قطع صغيرة بأنامله الغليظة: "حسنا، كان محمد شابي يثق في رضا بوشو، وكذلك في رجل كان يتعامل معه يدعى علي سليمون، وهو في الأصل محامٍ كان يملك مكتب محاماة بضواحي بلكور بالعاصمة، ولفرط الثقة التي كان يضعها شابي في هذين الرجلين، فقد استأمنهما على أمواله، فصارا المسيرين الفعليين لشركة لاكريب بعد وفاته، وبناء على السلطة التي صارت مخولة لهما، فقد عقدا صفقات مشبوهة خاصة مع شركتي بوشو وشركة أخرى تدعى "يطاغن" مقابل رشاوى ضخمة، كما تم نهب الكثير من التجهيزات الحديثة للشركة بتواطؤ من أمناء المستودعات و التلاعب بقوائم الجرد وبيعها لمؤسسات أجنبية بأسعار أقل من قيمتها الحقيقية، كل هذا ولا أحد تحرك لإيقاف تلك المهازل".

بدا الجو الذي كان مشرقا أكثر كآبة، وأحس حميد بأن ذاك الاخضرار وتلك الأزهار لم يعد لها أي قيمة، بدا على وجهه العبوس وتساءل: ولكن أليس من المفترض أن تقسّم ثروة محمد شابي على ورثته بعد وفاته؟

كان للسيد شابي بعض الأقارب من ذوي الصلات البعيدة، ولست أدري ما حدث بينه وبينهم من خصومات، وما يهم أنه لم تكن علاقته جيدة معهم، ولم يأت أي منهم إلى جنازته، أما عن الشخص الأقرب إلى الحصول على ثروته، فقد كانت زوجته وابنته، ولكن لم يظهر لأي منهما أثر قبل وفاته.

تساءل حميد وقد ازدادت دقات قلبه: أتعتقد أن شخصا ما قتلهما ليأخذ أموال الرجل؟

فكر عمر للحظة محدقا إلى الأرض، ثم أجاب: لا أحد يعلم ما حل بهما، ولكن شابي كان دائما يأمل في عودتهما، ولهذا كتب كل ثروته على اسم ابنته كوثر، وجعل السيد علي سليمون وصيا على أموالها إلى حين عودتها، وأنت تعلم الآن ماذا فعل هذا السليمون بعد انفراده بإدارة الشركة مع بوشو.

قال حميد: وبعد مرور كل هذه السنوات، ألم تظهر هذه البنت بعد؟

لا أظن ذلك، وإلا لكنت سمعت عنها.

تنهد حميد ونظر إلى الساعة في شاشة هاتفه، ثم قال وهو يعيد الجهاز إلى جيبه: وماذا عن شركة يطاغن؟ هل تزال قائمة الآن؟

أجل، ولا يزال صاحبها حرا طليقا يتمتع بالأموال الحرام إلى اليوم.

وأين يقع مقر هذه الشركة؟

أخرج عمر قطعة خبز أخرى من الكيس الأسود، وعاد للقول: هي ليست شركة كبيرة، لهذا هي غير معروفة كثيرا، تقع بالدويرة وتختص بتصنيع الأجهزة الالكترونية.

قام حميد من مكانه وقال: أشكرك سيدي على المعلومات التي زودتني بها، هل تريد أي شيء قبل أن أذهب؟

أود أن تعتني بنفسك، فليس من السهل أن توقع بأناس مثل هؤلاء.

سأحاول أن أكون حذرا، اعتني بنفسك.

وحين استقر حميد خلف مقود سيارة السانبول، خطر له أن يزور أمه ليطمئن عليها ثم يعود في المساء، وبعد أن اتجه بالسيارة نحو الطريق المتجه إلى قسنطية، ثبَّت سماعة هاتفه على أذنه اليمنى ثم بحث عن رقم نوفل، حين رد شريكه طلب منه أن يتحرى عن شركة يطاغن وصاحبها عليّ سليمون، وتمنى أن يصل شريكه لشيء قبل عودته من قسنطينة.

15

ركن السيد سعدي سيارته السيدان 'sedan' قرب البيت ودخل، حين صار في الردهة الواسعة توجه إلى المكتبة، وهناك اكتشف أن أحدا ما دخل وعبث بمحتوياتها، كان ذلك الشخص يحرص على عدم تفطن سعدي للأمر، فقد كان كل شيء يبدو عاديا، ولكن ليس في أعين المحامي الذي كان يعرف جيدا أبسط التفاصيل في مكتبه، لم يكن ليغفل على أن بعض الأغراض قد تحركت من مكانها، وبعد أن تأكد من شكوكه، أخرج المسدس الذي كان مرخصا، وانسلّ من المكتبة ناحية السلالم في حذر، حين اقترب من غرفته، أدار مقبض الباب ببطء ودخل مصوبا مسدسه في كل الاتجاهات، كان الجو معتما بعض الشيء، ولكنه استطاع رؤية ما حوله بفضل نور النهار الذي لا يزال يتسلل من النافذة، خطا خطوات أخرى إلى الداخل، فأحس بضربة قوية خلف رأسه ووقع مغشيا عليه.
حين استفاق لم يكن يعلم كم مرّ من الوقت وهو فاقد للوعي، كان الظلام دامسا، حاول النهوض فأحس بألم شديد في رأسه، فأغمض عينيه ولم يتحرك حتى خفّ قليلا ثم استقام جالسا، مد يده في الظلام ليعثر على شيء يستند عليه، فوقعت قبضته على حافة السرير، بعد لحظات من التشبّث استطاع أن يقف ويخطو إلى الباب، ورغم أنه تعثر بشيء ملقى على الأرض، إلا أنه استطاع أن يصل إلى زر الإنارة ويضيء الغرفة، كانت الفوضى تعم المكان بعد أن أُفرغت كل محتويات الخزانة، استجمع قوته وتوجه نحوها، وفي الجزء الأسفل منها، سحب أحد الأدراج الذي كان شبه مغلق، فتشت

أصابع مضطربة عن شيء كان يخفيه هناك، ولكنه لم يجد، أحس بالصدمة وأيقن أن اللص الذي تسلل إلى البيت قد أخذ ما جاء يبحث عنه، استلقى وسط الثياب التي كانت مبعثرة من حوله وهو لا يكاد يصدق أن كل هذا يحدث في بيته، كانت أبواب البيت مغلقة والنوافذ مدعمة بقضبان حديدية، فكيف تمكن هذا الشخص من الدخول؟ ولكن الحارس كان في عطلة ذلك اليوم، لهذا قد يكون الفاعل يعرف جيدا التوقيت المناسب لاقتحام البيت. أخرج هاتفه واتصل بدحمان البستاني، وسأله عن مكانه.

أجاب دحمان بقلق: أنا في المنزل، ما الأمر؟

حدث أمر في غاية الخطورة هنا، أرجو أن تكون على حذر. وأقفل الخط قبل أن يضيف دحمان مزيدا من الأسئلة.

وعاد للاستلقاء فأحس أن جسما صلبا تحت الثياب، تفقده بسرعة فرأى أن المسدس لا يزال هناك، كان غير مؤمّن فحمد الله أنه لم ينفجر، قام بسرعة وفتش في الجزء العلوي للخزانة ثم أخرج جواز سفره، كانت بعض النقود لا تزال هناك، أخفى الأوراق في جيب سترته وقرر أن يسافر على الفور خارج البلاد، ولكن وبينما هو يفتش عما يمكن أن يأخذه، رن جهاز الهاتف الثابت قرب السرير، رفع السماعة وهو يأمل ألا يكون قد تأخر عن الرحيل، في بداية الأمر لم يكن هناك أي متحدث، ثم جاء صوت رجل: أرجو أن تكون بخير سيد سليمون؟

رد سعدي بغضب: من أنت وماذا تريد؟

لا داعي لكل هذا الانفعال، أود أن أعتذر فقط عما حدث اليوم.

ازدادت دقات قلب سعدي ورد بانفعال أكبر: ستدفع الثمن أيها النذل، سأتصل بالشرطة.

ضحك الرجل بصوت عال، وقال: لا تثر ضحكي سليمون، فكلنا يعرف أنك لن تفعل، لهذا دعنا نتحدث بجد، لدي نسخ من الأوراق التي ستلقي بك في الجحيم، لهذا كن هادئا واسمع جيدا.

رد سعدي بنبرة أقل حدة: ماذا تريد؟

سأتصل بك لاحقا لأخبرك ما الذي أريده.

ولماذا اتصلت الآن إذن؟

اتصلت لأطمئن عليك، وأنصحك ألا تحاول الهرب، لأن ذلك لن يكون في صالحك. وأقفل الخط.

كان نوفل قد اتصل بحميد قبل وصوله إلى البيت، وقال أنه تحصل على بعض المعلومات، ولكن أجّل كل منهما الحديث إلى حين لقائهما في المساء، كان نوفل قد اقترح على زميله المبيت عنده فقبل حميد بعد تردد، وعلى الساعة السابعة مساء، توقفت سيارة الأجرة قرب بيت صغير بضواحي سعيد حمدين بالعاصمة، حين ابتعدت السيارة أخرج حميد هاتفه واتصل ليخبر نوفلَ بوصوله، وكان نوفل قد جهّز غرفة بطاولة عشاء خاصة، فرشت أرضيتها ببساط جميل، وهيئ في زاويتها فراشين متجاورين، دعا نوفل صديقه للجلوس قرب المائدة قائلا: قبل أن نتحدث في أي أمر، أود أن تأكل أولا ثم حدثني بما توصلت إليه.

قال حميد وهو ينظر إلى الطعام الكثير أمامه: لم يكن هناك داع لتحضر كل هذه الوليمة.

مد نوفل يده إلى قطعة خبز وهو يقول: كلْ ودعك من هذا الكلام الآن.

مد حميد هو الآخر يده لملعقة قرب صحن الشوربة وقال: كنت قد حدثتني عبر الهاتف أنك وجدت شيئا عن شركة يطاغن.

أخذ نوفل بعضا من الحساء ثم سأل: بالله عليك كيف استطعت أن تصل لاسم تلك الشركة، فحسب ما أذكر، لم تكن موجودة في قائمة سعيد؟

حدثه حميد باختصار عن قضية شركة لاكريب، وما أخبره به السيد عمر كركرين، فعاد نوفل للتساؤل: ومن يا ترى قتل ابنة شابي وزوجته؟

"لست أدري، ربما يكون ذلك المدعو علي سليمون"، ثم أضاف كمن تذكر أمرا: ولكن لم تخبرني أنت ما الذي اكتشفته.

قال نوفل بعد أن توقف عن الأكل: لن تصدق ما سأخبرك به.

نظر إليه حميد باهتمام دون أن يقول شيئا، فاسترسل نوفل: إنه نفسه المحامي الذي يدعى علي سعدي.

بدت علامات الحيرة على وجه حميد، وتساءل: وهل ذلك المحامي هو صاحب شركة يطاغن التي طلبت منك أن تتحرى عنها؟

أجل، وقد علمت أن هذه الشركة تعاني مؤخرا من بعض الصعوبات المالية، وتكاد تعلن إفلاسها.

فكر حميد لبرهة وهو يفرك مؤخرة رأسه: "تذكرت الآن أين سمعت بهذا الاسم، فقد حدثنا السيد سبتي عن شركة صغيرة كانت تنافس شركته على بعض الصفقات، ولكن لم يكن لها الحظوظ الكافية لتنال أيا منها."

هز نوفل رأسه في حيرة ثم عاد للطعام: "أقر بأنني عاجز عن الاستفادة مما وصلنا إليه."

رد حميد محاولا الربط بين المعطيات: دعنا نبدأ من البداية، كان السيد سعدي، أو سليمون شريكا للسيد بوشو في نهب شركة لا كريب واستثمار تلك الأموال في شركتيهما، ويبدو أن سعدي أصبح يعاني من بعض المشاكل المالية مؤخرا، فطلب من شريكه القديم بعض الاستثمارات لشركته، وبالطبع لن تكون تلك الصفقات منصفة لبوشو وشركته، فرفضها وفضل التعامل مع سبتي، ولهذا قام سعدي بقتله.

أتعني أن سعدي هو القاتل؟

وما الذي يمنعه، إذا كان قد سبق له قتل زوجة وابنة شابي لينفرد هو بثروته؟ فمن يا تراه سيستفيد من اختفاء المرأتين غيره؟ ولماذا يغير اسمه إن لم يكن لديه ما يخفيه؟

أحس نوفل بالاقتناع من ذلك الاستنتاج، فدعا زميله لمواصلة الأكل ثم أضاف: وقد يكون سبب الفوضى التي وجدناها في المكتب أن القاتل كان يبحث عن الوثائق التي كان يخفيها بوشو، والتي تورطه في التلاعب بأموال شركة لاكريب.

كل هذه تبقى فرضيات إن لم نعثر على أدلة قوية، لهذا علينا أن نفتش منزل ومكتب سعدي، ونضع أجهزة تنصت على الهواتف التي يستعملها.

وفي هذه اللحظة فتح باب الغرفة ودخلت طفلة صغيرة ذات ثلاث سنوات، انطلقت بخفة نحو نوفل وشعرها الأشقر الجميل يتماوج مع قفزاتها المرحة، أسرّت له بشيء في أذنه، وحين أرادت العودة، قال لها نوفل: ألا تقولين مرحبا لعمو.. نظرت إلى حميد وقالت: "مرحبا" ثم عادت أدراجها مسرعة، تبسم حميد وقال: هل هي أختك؟

بل ابنة أخي، إنها جد خجولة.

تبارك الله.. جميلة. العاقبة لك إن شاء الله بالذرية الصالحة.

رد نوفل ضاحكا: ادع لي بالزوجة الصالحة أولا ثم بالذرية.

إن شاء الله زوجة وذرية معا.

واستأذن نوفل لبعض الوقت، وحين عاد وجد حميد يجلس بعيدا عن الطاولة وهو يمسك بمنديل ورقي. "لا تخبرني أنك قد شبعت، فأنت لم تأكل شيئا".

في العادة أتناول في العشاء وجبة خفيفة، ولا أريد أن أزيد على ذلك.

رفع حميد سلة صغيرة، كان بها بعض البرتقال وما تأخر من قطوف العنب لذلك الموسم، وقدمها إليه: "خذ بعض الفاكهة إذن". رفع حميد يده وقال: شكرا لك، فقد اكتفيت.

هم نوفل بأن يلح عليه، ثم فكر في أن يحترم رغبته: "كما تشاء"، وجلس هو قرب الطاولة ليكمل طعامه، ثم قال: إن كانت ابنة محمد شابي حية، ألا يحتمل أن تكون جازية هي نفسها تلك البنت المفقودة؟

انحنى حميد نحو الأمام ليضع المنديل على الطاولة، ثم قال: خطرت لي هذه الفكرة ولكن لم أرد أن يجنح الخيال بي بعيدا، فإن كان بوشو قد دمر ممتلكات شابي، فكيف له الآن أن يتزوج ابنته؟ أضف إلى ذلك، إن كانت هي، فكيف لنا أن نتحقق وكل أوراق البنت مزورة؟!

لو استطعنا أن نعرف ما كان لقب زوجة محمد شابي، لأمكننا التحقق من ذلك من خلال لقب خالات جازية.

لا أظنه يصعب علينا التعرف على اسمها، فلا تنس أنها كانت زوجة رجل معروف خلال تلك الفترة، وبلا شك كانت حديث المقربين إليه أيام اختفائها.

وتمدد حميد على فراش قربه، ثم قال: كم أتمنى أن تكون جازية هي الابنة المفقودة لشابي، فذلك أفضل من كونها ابنة غير شرعية كما نعتقد.

أرسل نوفل فريقا من الخبراء لتثبيت أجهزة التنصت في منزل علي سعدي، وكان من المفترض أن المحامي سيغادر البيت على الساعة الثامنة صباحا كما اعتاد أن يفعل، ولكن الشرطي الذي كان يراقب المنزل لاحظ أن الساعة قد تجاوزت الثامنة بعشرين دقيقة، ولم يخرج المحامي بعد، استدار إلى الشخص الذي برفقته، وقال: هل تعتقد حقا أنه سيخرج من البيت؟

نظر زميله إلى ساعته وقال: أظن أن الوقت لا يزال مبكرا فلا داعي للقلق. ومرت نصف ساعة أخرى ولم يخرج الرجل، حتى أن الشك بدأ يساور الشرطيين في أنه ربما غادر المنزل في ساعة أبكر، ولكن ذلك كان غير محتمل، فهما هناك منذ السادسة، وسيارته سيدان 'sedan' لا يزال يظهر جزء منها خلف البوابة الحديدية للبيت. بدأ التململ يظهر على سلوك كل منهما، إلى أن عاد لهما بعض النشاط حين تقدمت سيارة 'BMWM760Li' سوداء اللون وتوقفت غير بعيد عن المنزل، كان الشرطيان يراقبان الرجل الذي نزل باهتمام، كانت قامته الفارعة ومنظره الذي يوحي بلياقة بدنية عالية، وجسم أقرب إلى المثالية، توحي أنه في غاية الخطورة، وقف عند البوابة لبضع دقائق إلى أن ظهر سعدي على غير طبيعته، بدا متوترا ونظراته إلى الرجل كانت غير مرحبة، تفحص الشارع بسرعة، ومن غير أن يتفطن للسيارة التي كانت تراقبه، أشار للرجل بالدخول. أدرك الشرطيان أن أمرا غريبا يحدث أمام ناظريهما، فأخرج أحدهما جهاز الهاتف واتصل

بنوفل، وبعد ما أخبره بما حدث، جاءه الرد: ابق في المراقبة وسأحاول الوصول إليكما في أقرب وقت.

ضرب الشرطي عجلة القيادة بقوة، وقال معبرا عن غضبه: لو جئنا بالأمس فقط لكنا الآن نستمع لما يقال بالداخل.

أخرج زميله منظارا صغيرا، وقال وهو يراقب من النافذة المقابلة: لنقل أننا محظوظين لأننا هنا على أي حال.

ولم يدم بقاء الرجل كثيرا، ثم ظهر مجددا في الشارع متجها ناحية سيارته.

قال الشرطي المسؤول وهو يدير المحرك: سأتبع السيارة وحين يصل نوفل سيتكفل بمراقبة سعدي.

وسارت السيارتان مسافة ثلاثة كيلومترات، ولم يبد أن الرجل المطارد قد لاحظ شيئا، ولكن حين وصلوا طريقا مفتوحا زاد من سرعته، ثم توقف تماما بسبب زحمة المرور عند مدخل أحد الأحياء، توقفت سيارة الشرطيين على بعد خمسة سيارات من السيارة الملاحقة، وفيما كانت الحركة تسير ببطء اتصل نوفل وسأل عن مكانهما، بعد دقيقة أنهى الشرطي الذي كان يدعى رابح سحنون الاتصال وقال: وصل نوفل إلى بيت سعدي ولم يجده هناك.

كان من المفترض أن أبقى أنا لأراقبه.

لا تقلق فلم يكن في وسعك فعل شيء هناك دون سيارة.

وأشار الشرطي المساعد نحو الاتجاه المعاكس للطريق، وقال: أليست هذه السيارة التي نلاحقها؟

وكانت السيارة قد انعطفت في مسلك قريب، وبدأت تختفي في الاتجاه الآخر. ضغط سحنون على دواسة السرعة واستطاع أن يتجاوز سيارتين،

ثم أدار المقود بسرعة، وقال وهو يأمل في أن يلحق بالسيارة الأخرى: علينا ألا نتركه يبتعد عن أنظارنا. ولكن لم يكن من السهل أن يستدير، فقد كان عدد السيارات القادمة كبيرا.

وبينما كان يقاوم للانعطاف نحو الجهة الأخرى، كانت السيارة البي أن دابليو 'BMW' قد غابت عن نظريهما.

لابد أنه اكتشف مطاردتنا له.

استمرت عينا رابح تراقبان الطريق، ثم قال: لقد فقدنا أثره، علينا أن نعود إلى بيت سعدي لنركب أجهزة التنصت، ولندع نوفل يتدبر أمره.

***

توجه نوفل إلى مكتب سعدي فأخبرته الموظفة أنه لم يصل بعد، وحين اتصل بحميد اقترح عليه أن يعود للمخفر ويرسل فريقا خاصا بالبحث.

بعد ساعتين وجد حميد في مكتبه يحاول دراسة بعض الملفات، نظر إليه نوفل بدهشة وسأل: هل هي قضايا جديدة؟

تبسم حميد ثم عاد لأوراقه: لا، وإنما أنا أساعد شولي فحسب.

وأين هو الآن؟

قال بأنه سيخرج لتسوية بعض الأمور ويعود.

جلس نوفل على مقعد قرب المكتب، وراح يعبث ببعض الأقلام المتناثرة فوقه.

لم نعثر على سعدي، ولا على الرجل الذي كان معه.

رفع حميد رأسه، وقال متسائلا: من في رأيك يكون الرجل؟

لا فكرة لدي، ولكن حسب الأوصاف التي أدلى بها خبراء التنصت، فيبدو أنه شخص محترف.
لا بد أن سعدي استأجره لأمر ما، ولهذا علينا أن نتحرك قبل أن تقع جريمة أخرى.
وماذا يمكننا أن نفعل؟
علينا إلقاء القبض على سعدي فورا ونجبره على الاعتراف بجرائمه.
ولكن ليس لدينا أدلة قوية لإدانته.
ثم أضاف وقد بدا عليه الإحباط: كان بودي الاستمرار في مراقبته إلى أن نمسكه في حالة تلبس، ولكن لا أظن أنه لدينا الوقت الكافي لذلك.
وفي تلك اللحظة ظهرت كميليا من الباب، وقالت: نوفل.. لديك اتصال من مكتب استعلامات النقل الجوي.
قال نوفل بسرعة: حولي المكالمة لهذا المكتب لو سمحتِ، وبعد أن استمع للمتصل باهتمام، وضع السماعة وقال: تم العثور على اسم علي سليمون في قائمة ركاب الطائرة المتوجهة إلى مارسيليا بعد ساعة من الآن.
قال حميد وهو يقوم من مكانه: اتصل بفريق البحث، واطلب منهم اعتقاله على الفور، لابد أنه الآن في مطار هواري بومدين ينتظر انطلاق الرحلة.
ورن الهاتف للمرة الثانية، رفع نوفل السماعة وعلم من قائد فريق التعقب أنهم اكتشفوا سيارة 'BMW M760Li' سوداء بنفس مواصفات السيارة التي كان يطاردها تقنيا أجهزة التجسس، هي الآن بالقرب من فيلا بمدينة أولاد فايت، وهناك ثلاث من رجال الشرطة يراقبونها، نظر نوفل نحو حميد، ثم قرر أن يتخذ القرار بنفسه: اطلب من الفريق أن يستمر في المراقبة، وتوجّه أنت مع مرافق لاعتقال سعدي.

بعد أن أقفل الخط، قال حميد: إلى أين أنت ذاهب؟

تم العثور على السيارة التي كان يطاردها رابح وأحمد، سأحرص على اعتقاله بنفسي هذه المرة. هل ستأتي؟

نظر حميد إلى الأوراق، وفكر في أن الرجل يقوم بعمل رائع: لا أظن أنه سيكون من الضروري أن نكون معا هناك، يمكنك أن تقوم أنت بذلك.

ومتى ستستجوب سعدي؟

حينما تتم عملك سنستجوبه معا.

حين اقترب نوفل من المكان الذي أشار إليه قائد الفرقة، تلقى اتصالا جديدا على هاتفه الخلوي يخبره أن الرجل تفطن للمراقبة وفر مجددا، ثار غضبا وكاد يفقد أعصابه لو لم يطمئنه المتصل أنهم لا يزالون يقتفون أثره.

حين هدأت أعصابه قليلا، قال بنبرة أكثر هدوءا: أخبرني في أي طريق يتجه وسأحاول أن أوقفه.

ولكنه من دون سيارة، وهو الآن يتسلل بين بعض الأزقة الضيقة.

وأين يتجه الآن؟

سمع نوفل صوت ارتطام، ثم جاءه صوت الشرطي ممزوجا بأنفاسه المتسارعة: نحن الآن قرب مستودع للأقمشة بحي بوريس.

سأكون هناك بعد دقيقة.

وضاعف نوفل سرعة السيارة إلى أن دخل لبعض الأحياء المأهولة، كان من الصعب عليه هناك أن يحتفظ بالسرعة نفسها، فالباعة الفوضويون يحتلون الأرصفة وحتى الطرقات، وحركة الراجلين مع حركة العجلات جنبا إلى جنب فيما بقي من الطريق، كانت سيارته وسط تلك الفوضى تصارع للخروج، والمحرك الغاضب يحرق أعصابه بدل البنزين إلى أن وجدت

مساحة ضيقة للسير مجددا، وعند المكان الذي ذكره قائد الفريق، بدت نظرات المتجمهرين وأحاديثهم تظهر أنهم يعيدون لبعضهم تجربة في غاية الإثارة. ركن السيارة في أقرب زاوية وترجّل وهو يتحقق من وجود المسدس تحت سترته، سار بخطوات سريعة نحو أحد المحتشدين، وبعد حديث قصير أشار أحدهم ناحية الزقاق في الناحية الغربية، انطلق مسرعا تحت أنظار الناس في الشارع وحتى من المنازل والمحلات، ثم توقف أمام مفترق آخر ليحاول الاتصال مجددا بفريق المطاردة، ولكن قبل أن يفعل، سمع صوت طلق ناري خلف جدار من المباني العالية، أخرج مسدسه وانطلق بأقصى سرعة ناحية الصوت، وعلى بعد شارعين استطاع أن يلمح أحد أفراد الشرطة وهو يقف قرب منزل صغير، كانت بعض المحلات في الجوار شبه مغلقة، السلع معروضة بالقرب منها ولا أثر لأصحابها، لا أحد في الشارع، ما عدا بعض عناصر الشرطة محصنين بسياراتهم أو كامنين خلف الأشجار والأسوار. تقدم نوفل بأنفاس متقطعة، وقال لشرطي كان يقف أمام جدار قريب: ما الذي يحدث؟

حين اقتربنا من الهدف أطلق أحد رجالنا النار ليجبره على التوقف، ولكنه استطاع أن يتسلل لذلك البيت ويحتمي بالداخل.

نظر نوفل إلى المنزل الذي كان في الجهة المقابلة للشارع، وقال: وهل يوجد أحد هناك؟

لا شك في ذلك، فنحن الآن في حي مأهول بالسكان، وأخشى أن يرتكب الرجل حماقة قد تأزم الوضع.

ركز نوفل هذه المرة أنظاره إلى النوافذ المطلة من الطابق العلوي، وعاد للتساؤل: وهل هو مسلح؟

أظن ذلك، ولكنه لن يحتاج إلى مسدس ليرتكب جريمة في حق أناس مدنيين. وارتفع صوت شرطي من مكبر إحدى السيارات، طلب من الرجل الخروج وتسليم نفسه قبل اقتحام المبنى، وظهر رجال الأمن فوق المباني المجاورة يسددون أسلحتهم ناحية المدخل، وساد جو من الترقب أسفله، وحالة من التأهب التام حين ظهر شخص قرب الباب، كانت امرأة في عقدها الخامس تتقدم ببطء، تضع شالا دون عناية على شعرها المطلي باللون الأحمر، وترتدي سروالا خفيفا مع قميص صوفي، حين صارت على مسافة من البناء تقدم شرطي نحوها بحذر، ثم مد يده نحوها كمن يريد أن ينتشل شخصا من الغرق، وسحبها بلطف نحو زاوية آمنة، وعندها أسرع نوفل حيث كانت لا تزال تلتقط أنفاسها داخل سيارة الشرطة، وانتظر الجميع إلى أن هدأت تماما وقبل أن يسألها أحدهم، نظرت إلى الرجال المحدقين إليها، وقالت أخيرا: طلب مني الرجل أن أبلغكم أنه لا يحمل سلاحا وأنه يريد الخروج. أعاد الشرطي عبر مكبر الصوت منح الأمان للرجل، وبعد دقيقة ظهر رافعا يدين فارغتين للأعلى، ما إن اقترب حتى حاصره الرجال واقتادوه نحو سيارة كانت تتقدم وسط الشارع.

***

أَدخل الرجل قاعة صغيرة وأُجلس على أحد الكرسيين، وهناك وضعت يداه المقيدتان على طاولة معدنية مثبتة بالأرضية، وبعد لحظات ظهر حميد ونوفل وكأنهما يدخلان اجتماعا رسميا، تفرّس حميد في وجه الرجل الذي

بادله بنظرات جامدة، ثم قال وهو يقف خلف الكرسي الثاني: أذكر اسمك ومهنتك.
رد الرجل بنبرة واثقة: كمال خرسي، متقاعد من صفوف الجيش الوطني الشعبي.
نظر حميد خلفه حيث كان يقف نوفل، ثم عاد ليواجه نظرات الرجل: لدي بعض الأسئلة، وإن كنت متعاونا، فقد نخفف عنك العقوبة أو نطلق سراحك.
أطرق كمال خرسي برأسه قليلا، ثم قال: استأجرني أحدهم للعمل لصالحه.
انحنى حميد قليلا نحو الأمام، ثم سأل: من هذا الشخص، ولماذا قمت بالاتصال بسعدي؟
لا أريد أن أضيف شيئا، سيصل هذا الشخص في أية لحظة، ويمكنه أن يجيبك بنفسه.
وكيف عرفت أنه سيأتي؟
اتصلت به حينما كنت محاصرا، فطلب مني أن أسلم نفسي وسيأتي ليسوي كل شيء.
أراد حميد أن يضيف مزيدا من الأسئلة، ولكن نوفل وضع يدا على كتفه، وقال: دعنا نخرج وإن لم يأت أحد فسيمضي ليلته في الحجز.
دخل الرجلان قاعة مخصصة للاجتماعات، كانت بها طاولة مصنوعة من خشب جيد، وتحيط بها كراسي من الجلد الطبيعي، جلس حميد على كرسي بجوار شاشة للعرض، وانتظر حتى جلس نوفل، ثم قال: أخشى أنّ الرجل يضيع وقتنا.
وقبل أن يرد نوفل دخلت شرطية وقالت: لديكما زائر.

لا بد أنه الشخص الذي تحدث عنه الرجل.

واتجه حميد بنظره مرة أخرى إلى الشرطية، وقال: سنستقبله هنا.

قال نوفل بعد أن غادرت المرأة: أتساءل من يكون هذا الشخص.

وبدل أن يجيب حميد، بقي يحدق في الباب وقد اشتد به الفضول ليعرف هويته. وبعد لحظة عادت الشرطية وهي تقول: "تفضلي".

وظهرت من خلفها امرأة كان كل منهما يعرفها جيدا. هتف حميد بدهشة: جازية؟ ماذا تفعلين هنا؟

اقتربت منه دون أن تقول كلمة، ثم وضعت على الطاولة ملفا كانت تحمله في يدها، وقالت: أليس هذا ما كنتما تبحثان عنه؟

فتح حميد الغلاف وأخذ يتصفح الأوراق دون أن يقول كلمة، ثم اقترب نوفل منه، وقال متسائلا: ماذا يوجد بهذا الملف؟ أراه حميد الأوراق، فهاله كونها عقود تجارية بين شركة لاكريب وشركتي بوشو ويطاغن، والتي تفضح رضا بوشو وعلي سليمون، أو ما اعتادوا على مناداته بسعدي في التلاعب بأموال محمد شابي. فقال بدهشة: يا إلهي هذه الأدلة كافية لإدخال سعدي السجن، كيف حصلت عليها؟

لم تجب جازية مرة أخرى، وجلست على حافة مقعد مقابل لهما، فقال حميد: أنت تعرفين جيدا أن اسم زوجك المتوفى مدون في هذه الأوراق، ألا يهمك أنّ في كشفها إضرارا بسمعته؟

نظرت جازية إليه بملامح جامدة، ثم أجابت: لا يهمني الإضرار بسمعة أحد، بقدر ما يهمني معاقبة من خانوا والدي.

وكان من المتوقع أن تحدث هذه الحقيقة صدمة لدى الرجلين، إلا أن كلا منهما بقي صامتا، ثم وضع نوفل الأوراق على الطاولة، وقال: أتقصدين أنك ابنة محمد شابي؟

ردت بشيء من الزهو: يسرني أنكما وصلتما لاسم والدي، واستطعتما أن تكتشفا التلاعبات التي حدثت لممتلكاته بعد وفاته، ولكن من الصعب أن تعرفا ماذا حدث لابنته وزوجته، لأنه من المفترض ألا يكون أحد على دراية بذلك.

قال حميد مقاطعا: ومن كان يعرف بمكانهما؟ ألم يكن اختفاؤهما غامضا للجميع؟

هذا صحيح، ولكن من الطبيعي أن تكون خالتي رحمة، والتي ادعت لسنوات أنها أمي، تعرف بذلك، وكذلك سعدي وبوشو الذي لم يكن زواجه بي بدافع الشفقة فحسب، بل لأنه كان يعرف هويتي جيدا.

تنفس نوفل بعمق، وقال: وكيف اكتشفت كل ذلك؟

أرخت جازية رباط الخمار قليلا على رأسها، ونظرت إلى الشرطية التي لا تزال واقفة تستمع قرب الباب: "قبل أن يدعي سعدي أن وثائق هويتي مزورة، كانت تراودني بعض الشكوك في أن شيئا ما غير طبيعي يحدث من حولي، فحين تقدم بوشو إلى خطبتي بدا وكأن خالتي رحمة تعرفه من قبل، فأبدت تصرفات غير ودودة اتجاهه وعارضت الزواج بشدة، ولكنه استطاع إقناعها، أو ربما هددها بفضح سرها، فوافقت على مضض، وأبدت من العواطف عكس ما كانت تخفيه من الحزن والألم، ولابد أن خالتي كانت قد التقت بذلك الرجل أيام كانت أمي برفقة والدي، وبعد أن توترت العلاقة بينهما، صارت خالتي تمقت كل من له صلة به".

تحركت شفاه حميد ليقول شيئا، ولكن جازية واصلت حديثها: وبعد أن تزوجت ببوشو زادت شكوكي حينما لاحظت أنه لم يسألني يوما عن والدي، ولم يكن له فضول لأن يعرف شيئا عن ماضيّ أو عن أسرتي، بل كان يغير الحديث كلما تحدثت عن ذكرياتي، وذلك بحجة أنني عشت أياما عصيبة، ولا داعي لتذكر ما قد يجلب لي الألم. وبما أنه كان رجلا لطيفا معي، فلم أكن بحاجة إلى محاولة معرفة ما قد يعكّر سعادتي أو يفسد حياتي، ولكن بعد وفاته ودخولي السجن، قررت أنه لا بد لي من فعل شيء لمعرفة الحقيقة وإزالة الغموض عن حياتي، ولهذا استئجار الرجل الذي قمتم باعتقاله، والذي نصحني أحدهم بالتعامل معه، وهو ليس محققا رسميا، ولكنه يتمتع بذكاء شديد وقدرة على اكتشاف الأسرار بكل سهولة، فمن خلال بحثه في جهاز الحاسوب الخاص بي، استطاع استرجاع بعض الرسائل المحذوفة، والتي تمكن من خلالها من معرفة ما كان سعدي يطالب به زوجي من صفقات لشركته، ويهدده بفضح الوثائق التي بحوزته، وفي اعتقادي، فقد كان سعدي ينوي تسليم العقود المتعلقة بشركة لاكريب فقط ليضمن البراءة لنفسه، ولكن زوجي رفض العرض وأخبره أنه يملك أيضا وثائق تفضح شركة يطاغن ولن يتردد في تسليمها.

قال نوفل مقاطعا: هذا نفس ما توصلنا إليه نحن أيضا، وقد افترضنا أن سعدي قتل زوجك لضمان صمته، وللحصول على الوثائق التي تورطه، وهو أيضا ما فسرنا به الفوضى التي كانت محيطة بالجثة.

قال حميد متسائلا: وكيف اكتشفت أنك ابنة محمد شابي؟

سعدي هو من أخبر المحقق الذي استأجرته بكل شيء، وذلك أثناء لقائهما بالأمس. فقد كان لي إحساس قوي بأن سعدي يعرف شيئا عن حياتي، فهو

من اتصل بي وعرفني ببوشو، ولا بد أن يكون كل ذلك جزءا من خطة كان ينوي تنفيذها.
قال حميد وهو يفرك ذقنه: أحتاج إلى التحدث إلى سعدي، أين هو الآن؟
قال نوفل ويداه تمتدان مجددا إلى الملف الذي أمامه: هو لا يزال في الحجز، يمكننا أن نتحدث إليه في غرفة التحقيق.
قامت جازية من مكانها وقالت: أريد أن أكون معكما خلال الاستجواب، أود أن أسمع بنفسي مزيدا من المعلومات عن والدي.
قام حميد هو الآخر وقال: يمكنك أن تأتي، ولكن عليك الاكتفاء بالاستماع دون التدخل في الحديث.
طلب منهما نوفل أن ينتظرا لبعض الوقت حتى يحضر المتهم، وبعد لحظات من مغادرته حاول حميد أن يكسر الصمت بينه وبين جازية، ولكن أفكاره بدت مشوشة كحاله كلما صار وحيدا برفقتها، وحين أحس بالضيق توجه إلى الباب، وقال: أظن أن سعدي الآن يكاد يصل إلى غرفة التحقيق، من الأفضل أن نتوجه هناك الآن.
وعلى الكرسي نفسه الذي كان عليه كمال خرسي، جلس سعدي في هيئة تدعو للرثاء، استدار إلى الخلف حين دخل حميد وجازية، ثم اعتدل بعد أن صارا أمامه، وقال محاولا أن يظهر على غير حقيقته: أرى أن الجميع جاء لزيارتي اليوم.
قدم حميد الكرسي الثاني لجازية، فيما بقي هو ونوفل واقفين. "أظنك تعرف سبب وجودك هنا".
أفضل أن أعرف منك.

وقف حميد بجانب الطاولة بين سعدي وجازية، ثم قال بعد أن مال بجسمه قليلا نحو الرجل: أنت متهم باختلاس أموال شركة لاكريب التي كنت مسؤولا عن إدارتها، وكذلك بتهمة قتل شريكك رضا بوشو.

حرك سعدي يديه فوق الطاولة، فأصدرت السلاسل التي كانت تقيده صوتا، ثم قال: أظن أنه لم يعد هناك فائدة من الإنكار فيما يتعلق بقضية شركة لاكلايب، وهذا بعد أن وقعت الوثائق بين أيديكم، ولكن أُؤكد لك أنه لم تكن لي أية علاقة بمقتل بوشو.

قال حميد: ولكننا عثرنا على رسائل تهدد فيها شريكك، حتى يمنحك الصفقات التي من المفترض أن يعقدها مع شركة ألجي إلكترونيك.

أبدى سعدي حركة مفاجئة أظهرت دهشته، ولكن سرعان ما عاد لهدوئه: "صحيح أنني هددته بفضح العقود التي كانت بحوزتي، ولكنني لم أهدده أبدا بالقتل، كما أنه لم تكن لي أية نية في التخلص منه، فقد كنت أعرف الرجل جيدا، وكنت على يقين بأنه يمكننا أن نصل إلى اتفاق يرضي الجميع."

قالت جازية: وكيف عرفت أن محمد شابي كان والدي؟

نظر إليها حميد نظرة عتاب لإخلافها بالاتفاق، ولكن سعدي لم يبد أنه اعترض: "كانت هناك إشاعة تقول أن زوجة السيد شابي وابنته اختفيتا في ظروف غامضة، ولكن الحقيقة غير ذلك، فقد حدثت مشاجرة بين السيد شابي وزوجته لسبب ما، فغضبت الزوجة وفرت من البيت مع ابنتها دون أن تعطي الرجل المسكين فرصة لرؤية فلذة كبده، وحرصا منها على ألا يكون أي اتصال بين الأب وابنته، فقد قامت بتغيير عنوانها واسم ابنتها وحتى لقبها، ونظرا للثقة التي منحني إياها محمد شابي"، وتوقف ينظر إلى جازية

التي كانت ترمقه بنظرات حاقدة، ثم واصل: فقد كلفني بالبحث عن ابنته وأعطى لي الحق القانوني في أن أكفل لها ثروتها في حالة ما أصيب هو بسوء، إلى أن يتم العثور عليها وتصبح قادرة على إدارة أموالها، وقمت فعلا بالبحث عن الابنة الضائعة، وحين وجدتها أخفيت الأمر على الرجل، وأنتم تعرفون ما حدث بعد ذلك.

قالت جازية: وكيف عثرت علي؟

لم يعترض حميد هذه المرة، فقال سعدي: صحيح أنني بذلت جهدا حينها، ولكن السبب الأول لاكتشاف مكان والدتك كان الحظ، أي أنني رأيتها يوما بالصدفة وهي تتوجه إلى أحد المحلات فتبعتها طوال اليوم حتى اكتشفت الحي الذي تقيم فيه، وهناك أجريت بعض التحريات، فعرفت الاسم الجديد الذي صاروا يدعونك به، فأبقيت الأمر سرا إلى أن ذكرتك لبوشو بعد سنوات طويلة، وقد غدوت شابة جميلة، فطلب مني أن أحاول الاتصال بك.

قالت جازية مكملة الجزء الذي تعرفه من القصة: وأرسلت إليّ تلك الفتاة التي كانت تدّعي صداقتي، فعرفتني بك وقمت بدورك بالتوسط لي عند بوشو إلى أن تم الزواج.

قال سعدي موافقا: هذا صحيح.

وقامت جازية من مكانها وقالت بغضب: يا لك من نذل! ثم خرجت مسرعة من الغرفة فيما بقي المحققان هناك، جلس حميد على المقعد المقابل وسأل: ولماذا أراد بوشو أن يتزوج بابنة محمد شابي؟

ربما شعر باستفاقة الضمير، فأراد أن يترك كل أمواله لابنة الرجل الذي اختلسه فيما مضى، فيعوض بذلك البنت على ما مرت به من أيام صعبة، ويعيد لها حقها الذي ضاع منها بسببه.

نظر حميد إلى نوفل الذي كان يغادر الغرفة هو الآخر، ثم عاد للقول: وربما لم يعجبك هذا الأمر فقتلت الرجل، ثم كشفت عن التزوير في هوية جازية لتحرمها مرة أخرى من الميراث.

رد سعدي بنبرة مضطربة: لم أكن أنا من قتل سعدي صدقني، ولم تكن لي أية نية في إيذائه.

ولماذا غيرت هويتك أنت أيضا، أليس اسمك هو على سليمون؟

حاول سعدي أن يبتسم، ولكنه لم يستطع هذه المرة: اسمي هو كما ذكرت، علي سليمون، ولكن الكل يدعونني سعدي، لأن هذا كان اسم جدي رحمه الله، وقد اعتدت على هذا الاسم فاعتمدته كاسم شهرة في عملي كمحامٍ، ولهذا من يريد التعامل معي فسيبحث عن اسم سعدي وليس سليمون.

18

كانت جمعية "كابويرا شو" تقع في مفترق طرق صغير بمدينة الأبيار، وهي عبارة عن بناء صغير يحيط به جدار منخفض مزين ببعض النباتات، تقدم حميد تحت سماء غائمة وجو بارد إلى بابها الخشبي، وقد قرر أخيرا أن يتدرب بشكل نظامي من أجل التخلص من ضغط العمل. كان الباب موصدا، فشعر بخيبة أمل وهم بالانصراف، ولكن أحد الشباب الذين كانوا على رصيف مقابل أشار إلى وجود باب آخر في الشارع الثاني. دفع حميد الباب الحديدي فكشف عن مساحة ضيقة تفصله عن مدخل آخر، لم يكن هناك أحد، طرق الباب فظهر كهل في الخمسين من عمره، له شعر وشاربان مزينان بخصلات من الشيب، وتستر جسمه المتهاوي بدلة رياضية فضفاضة، سأله حميد إن كان النادي لا يزال يستقبل رياضيين جدد، فنظر إليه الرجل باهتمام، ثم قاده لمكتب على يمين رواق قصير يؤدي إلى قاعة التدريب، حين دخل وجد المكان عبارة عن غرفة صغيرة بها بعض صور الرياضيين على الحائط، ومكتب يكاد يشغل كل مساحتها، كان يجلس بالقرب منه رجل في نهاية الثلاثينات، يرتدي قميصا خفيفا رغم الجو البارد في الخارج، وتبدو عضلات قوية تزين الذراعين والصدر، صافح حميد الرجل وجلس بناء على طلبه، أما الرجل الثاني فجلس خلف المكتب، وهو يقول: لحسن حظك أنك التقيت اليوم هنا بأحسن الرياضيين في رياضة الكابويرا على المستوى الوطني، فقد جاء ياسين بوخروبة ليزورنا بعد رحلة تدريبية قادته إلى الكثير من الدول، وقد كان مؤخرا بلبنان حيث مستوى

الرياضة جيد هناك، ولهذا نرجو أن يبقى معنا لبعض الوقت حتى نستفيد من الخبرات التي صار يتمتع بها.

كان المكان بالكاد يتسع للجميع، وجو الغرفة المعبق برائحة السجائر لا يبعث على الارتياح، نظر حميد إلى ياسين بإعجاب، وقال بابتسامة ودودة: يشرفني أن ألتقي بك سيدي، فقد سمعت عنك الكثير.

وعاد الرجل خلف المكتب يقول: ولكننا لم نتعرف عليك بعد سيدي.

وحين عرف حميد بنفسه، أبدى الرجل احترامه قائلا: يشرفني أن تكون معنا سيد حميد، أما أنا فأدعى ساعد زرواق، وأنا المدرب والمسؤول عن هذا النادي منذ أن تأسس قبل سبعة أعوام، وذلك بفضل مجهوداتي ومجهودات السيد بوخروبة، إضافة إلى مجموعة من الأشخاص لم تسمح لهم الظروف أن يكونوا معنا اليوم، والحمد لله على كل حال، فبعد مرور كل تلك السنوات بدأت هذه الرياضة تلقى بعض الرواج في العاصمة، كما صار لدينا رياضيين لهم مهارات جيدة في القتال. وقد شاركنا في بعض البطولات العالمية، واستطعنا أن نفتك مرتبتين متقدمتين، ولكن لا تزال المشاركات ضئيلة، لعدم وجود إمكانيات كافية تسمح لنا بإسماع صوتنا بين الأمم.

صمت المدرب سعد زرواق فجأة، وقبل أن يعلق حميد، سأل ياسين بوخروبة: هل سبق أن تدربت على هذه الرياضة سيد حميد؟

التفت حميد نحوه وأجاب: لطالما وددت أن أتعلم رياضة الكابويرا، ولكنني لم أتلقَ تدريبا رسميا من أشخاص محترفين، ورغم ذلك تمكنت من إتقان بعض الحركات، كحركة قويدا دي رينز والمورتال (الهلاك)، إلا أنني على يقين بأنها لا تشبه تماما الحركات الصحيحة.

مد ياسين قدميه قليلا وحركهما وكأنه أصيب بالخدر، ثم قال: عدم وجود مدرب في هذه الرياضة قد يشكل خطرا على صحة الرياضي، وقد يؤدي به حتى إلى الشلل، وهذا بسبب الحركات الفنية الخاطئة التي يؤديها البعض، وطرق الأداء الصعبة الممارسة في هذه الرياضة، ولهذا نجد الكثير من الإصابات الشائعة كإصابات في القدم والركبة والالتواء والشد العضلي، تمزق في العضلات والأربطة والأوتار.

أشار حميد إلى كتفه وقال: بسبب اعتمادي في التدريب على النصائح النظرية، تعرضت إلى إصابة في الكتف وبتقلص العضلات لأكثر من مرة.

ولماذا لم تلتحق بإحدى الجمعيات الرياضية الموجودة هنا؟

بدأت التدريب منذ أكثر من عشر سنوات، ورغم أن هذه الرياضة دخلت الجزائر في وقت مبكر، إلا أنها لم تكن توجد حينها نواد كثيرة، لا سيما في قسنطينة، حيث كنت أعيش، وبعد أن جئت إلى العاصمة أكملت في النمط نفسه الذي اعتدت عليه، كما أنني مزجت حركات من مختلف الفنون، ووجدت في ذلك متعة تفوق الاعتماد على رياضة واحدة.

سحب ياسين قدميه قليلا، ثم قال: أعلم أن هذه الحركات قد تساعدك في ميدان عملك، ولكن هل تعتقد أنها ستمكنك من الصمود في القتال الحقيقي؟

نهض ساعد من مكانه، وقال وهو يتجه إلى الباب: أرجو أن تعذراني لبعض الوقت. وبعد أن غادر قال حميد: لم أختبر نفسي بعد في صراع حقيقي، ولكنني كنت أشارك من حين لآخر في منازلات ودية في بعض التخصصات كالكراتيه، وكنت أُبلي بلاء حسنا.

أنصحك باتخاذ مدرب محترف، فمعظم الهواة في رياضة الكابويرا يتعلمون حركات أقرب إلى الرقص منهما إلى القتال.

وأحس حميد باهتزاز الهاتف في جيبه، ففضل عدم الرد لكي لا يقاطع الرجل، وحين عاود المتصل المحاولة لأكثر من مرة، سحب الهاتف ثم نظر بسرعة إلى الشاشة، كان نوفل المتصل، وكان حميد يعلم جيدا أنه ما كان ليتصل في ذلك اليوم إلا لأمر طارئ، استأذن ياسين قبل أن يضغط زر الاستقبال، ثم قال: "ما الأمر؟" أخبره نوفل أن حادثا وقع في الطريق المؤدي إلى سجن المحمدية، وأن سيارة الشرطة التي كانت تقل سعدي تعرضت لحادث، لهذا فهو في حالة خطيرة، وقد نقل إلى مستشفى عبد القادر محمودي إلى جانب رجلي أمن كانا برفقته.

سأل حميد باضطراب: وكيف حال الشرطيين؟

تلقى أحدهما مصرعه على الفور، فيما نقل الثاني إلى العناية المركزة.

اضطر حميد إلى قطع المقابلة والتوجه على الفور إلى المستشفى، كان يعلم أن الشرطيين اللذين أصيبا من الذين التحقوا حديثا بالشرطة، شعر بأسى بالغ لأجلهما، وتمنى لو لم يتصل به نوفل، ولم يسمع بذلك الخبر على الإطلاق. حين وصل علم أن سعدي قد لفظ آخر أنفاسه قبل لحظات، وأن سبب الحادث كان شاحنة من نوع بيرلي 'Berliet' سحقت سيارة الشرطة عند أحد المنعرجات، ولم يتم التعرف على هوية السائق بعد، فقد فر بعد الاصطدام مباشرة. حين سأل حميد عن وثائق الشاحنة، قيل إن الشاحنة كانت مسروقة، وأن صاحبها كان قد أودع شكوى مساء الأمس، كل ذلك ولّد في نفسه بعض الشكوك والتساؤلات، ولكن كانت صدمته أكبر من أن يستطيع التفكير في شيء.

على بعد خطوات داخل المستشفى، شاهد نوفل خلف عربة لنقل المرضى، توقف جانبا حتى مرت العربة، ثم قال: هل من جديد، نوفل؟

كنت على وشك الاتصال بك، منذ متى وأنت هنا؟

وصلت للتو.

أشار نوفل إلى المخرج، وقال: أود أن أحدثك في أمر. وسارا صامتين حتى وصلا إلى السلالم، وحين لم يستطع حميد الانتظار أكثر تساءل بترقب: "ما الأمر؟" استمر نوفل في النزول وهو يفكر كيف سيبدأ الحديث، واكتفى بالقول: تلقيت اتصالا منذ قليل من شولي...

وانتظر حميد أن يضيف شيئا ولكنه لم يفعل، واستمر في التقدم إلى أن وصلا مكانا أكثر هدوءا بساحة المستشفى، فقال أخيرا: "طُلب منا التوقف عن التحقيق وغلق القضية.. كان قد اتصل الضابط فريد صياف بشولي وطلب منه أن يبلغنا بهذا القرار".

لم يبد حميد أي حركة مما كان يتوقعها نوفل، وبدلا من ذلك قال بهدوء غريب: ومن هو المتهم المفترض لكل هذه الجرائم؟

رد نوفل كمن كان مقتنعا بذلك القرار: أظن أنه لدينا ما يكفي من الأدلة لندين سعدي وننهي الأمر.

رد حميد بنبرة لا تخلو من ضيق: لدينا بعض الأدلة عن تورط سعدي وبوشو في اختلاس أموال شركة لاكريب للأجهزة الالكترونية، ولكن ما هي الأدلة التي لدينا فيما يخص مقتل بوشو؟ فسعدي كان ينكر بشدة أن يكون هو الفاعل، وليس لدينا ضده في هذه الجريمة إلا مجموعة افتراضات، كما أن مقتل سعدي اليوم يؤكد أن أحدهم يريد ابقاء بعض الأسرار في الخفاء.

وهل تعتقد أن مقتل سعدي لم يكن نتيجة حادث؟

تقدم حميد إلى كرسي تحت شجرة كاليتوس، حيث كانت سيارة أودي أ8 'audi a8' مركونة في الجوار: "لا أظن أن ظروف الحادث كانت عادية، فالطريق الذي وقع فيه حسب ما علمت كان شبه خال من الحركة، كما أن هوية سائق الشاحنة لم يتعرف عليها بعد، وفراره من مكان الحادث دليل على أنه لم يصب بأي أذى، أي من المحتمل أنه كان مزودا بكل وسائل الحماية قبل الاصطدام".

بدا على نوفل بعض الاقتناع، ولكنه استمر في التساؤل: وما هو الهدف في رأيك من قتل سعدي؟

جلس حميد وهو يشير إلى المقعد المجاور: "أظن أن سبب قتله هو السر الذي يمكن أن يفسر جميع الغموض في هذه القضية، فقد يكون سعدي على اتصال بأشخاص يحركون الأحداث من بعيد، ولا يريدون أن يظهر لهم حتى الظل، ووقوع سعدي في يد العدالة قد يشكل لهم تهديدا، فقاموا بالتخلص منه".

ونظر إلى صاحب السيارة الذي كان يتجه نحوها، ثم أضاف: حتى أنني أشك في أن الأمر بتوقيف التحقيق لم يأت من فراغ.

قال نوفل محاولا أن يفسر ما يدور في بال صاحبه: أتظن أن الضابط فريد صياف يرى مثلك أن سعدي تم اغتياله، ومن الأفضل ألا نعرض أنفسنا نحن أيضا للخطر.

قال حميد وهو يلاحظ تحرك الأودي بعيدا عن موقفها: أو ربما تلقى أمرا بوقف التحقيق.

وهل يمكن أن يكون المتورط في هذه الجرائم بهذا القدر من السلطة؟

نزع حميد غصنا صغيرا كان يمتد من نبات خلفه، ثم قال: لا تنس ما افترضناه سابقا عن والد جازية، فبالرغم من أن هوية والدها قد انكشفت، إلا أن سر الدلائل التي توصّلنا إليها، لا تزال تكشف أن يدا قوية تعبث بالأحداث، وهذه اليد قد تكون هي من قتلت بوشو، وقريب جازية هشام، وهي كذلك من كانت وراء الحادث الذي أودى بحياة سعدي.

ومن يكون في اعتقادك هذا الرجل؟

لست أدري، ولكن أظن أن له علاقة بجازية بطريقة أو بأخرى.

قال نوفل معلقا: لولا يقيني بوفاة محمد شابي، لقلت إنه حي ينتقم من مكان ما. وضغط حميد بأصابعه على الغصن الصغير حتى تحطم، ثم قال: أظن أن بداية خيط حل هذا اللغز ينطلق من جازية، لهذا لابد أن أتحدث معها اليوم.

نظر نوفل مرة أخرى لحميد غير مصدق: "هل ستكمل التحقيق في هذه القضية؟"

أجاب حميد وبصره يحدق في الخواء: أجل سأفعل.

وماذا عن الأمر الذي تلقيناه بوقف التحقيق.

سأحاول العمل بطريقة غير رسمية، ولن أبلغ أحدا بذلك.

صمت نوفل للحظة، ثم قال: سأساعدك إن احتجت إلى شيء، ولكن إن رأيت أي خطر على حياتك فلن أتردد في منعك بنفسي.

قام حميد بعد أن رمى بقايا الغصن خلفه، وقال: سأتجه الآن لأتحدث إلى جازية.

قام حميد هو الآخر، وقال: إن كنت بدون سيارة فيمكنني أن أوصلك.

لا، لا أود أن تتواجد معي في أي مكان حتى لا تظهر متعاونا معي، كما أنني لا أريد أن أذهب بإحدى سيارات الشرطة، حتى يبدو للجميع أن ملف السيد بوشو أغلق ولم تعد الشرطة تحقق فيه.

وأخرج هاتفه المحمول من جيبه وهو يقول: سأتصل بجازية وأطلب منها أن تقابلني إن كانت تستطيع ذلك.

19

حين وصلت جازية لمكان قريب من مستشفى عبد القادر محمودي، بدت بصحبة شاب أنيق يقود بي أم دابليو في الفئة السادسة، أشارت لحميد بالصعود، وبعد بضع دقائق نزلا عند مقهى فاخر يدعى كوفي رافور، ظل حميد يحدق في السيارة التي كانت تبتعد، فقالت جازية كأنها كانت تدرك ما يجول في خاطره: صرت الآن المالكة لشركة بوشو، وهذا الشاب أحد الموظفين لدي.

اكتفى حميد بكلمة: "مبارك"، وأراد أن يضيف شيئا وهما يدخلان المبنى الأنيق، ولكنه لم يفعل، واستمر الصمت حتى جلسا بطاولة صغيرة في الطابق العلوي، كانت هناك نافذة يتسلل منها ضوء فاتر، وحتى يُمنع دخول البرد، أُغلق الجانب الزجاجي وأُنيرت مصابيح ملونة في القاعة الواسعة، كان يبدو الجو أشبه بأجواء السهرات، استطاع حميد التيقن من خلال هيأة جازية أنها تخطت أزماتها تماما، كما صار ينتابه شعور قوي بأنه أمام امرأة قوية لا تشبه تلك التي سبق أن قابلها.

قالت وهي تضع حقيبتها على الطاولة: كانت في نيتي أن أتصل بك لو لم تسبقني إلى ذلك، ولهذا فلك الحق أن تبدأ في الحديث قبل أن أعرض طلبي عليك.

رد حميد متجاهلا فضوله: قام أحدهم اليوم باغتيال علي سعدي، وتم على المستوى الرسمي إغلاق قضية زوجك قبل أن ينتهي التحقيق بها، لهذا أردت مساعدتك في اكتشاف مزيد من الغموض لمعرفة قاتله.

نظرت جازية إلى المحقق في صمت، ثم قالت: أظن أن الرجل الذي قتل زوجي قد أخذ جزاءه العادل، ولهذا لن استمر في التفكير في هذا الأمر أكثر مما فعلت، وإن أردت أنت أن تفعل، فلن يشكل ذلك لي أية إضافة.

أحس حميد ببعض الضيق، ولكنه رد بنبرة هادئة: أود أن أكمل التحقيق، لأن هناك بعض الأسئلة التي لا أطيق أن أدعها معلقة من غير توضيح، ولهذا لن يكون مهما بالنسبة إلي أنا أيضا أن يظنّ الجميع خلاف ما أعتقد، ولكن ما يهمني حقا هو أن أجد المساعدة التي أحتاج إليها.

انتظرت جازية حتى عادت النادلة بالطلبات، ثم قالت: طالما أود منك المساعدة، فليس من المعقول أن أرفض ما تريده في القابل.

وأشارت بيدها نحوه مشجعة على الكلام، فهز رأسه وقال: في الحقيقة ليس هناك أمر محدد، ولكنني أريد أن أعرف مزيدا من التفاصيل عن تحركات زوجك السابق قبل اغتياله، أعني أي تصرفات كانت خارجة عما ألف القيام به.

ضمت جازية شفتيها محاولة أن تتذكر، ثم قالت: فيما عدا الحالة النفسية الغريبة التي كان عليها قبل مقتله، لم يكن هناك ما أثار انتباهي غير محاولته شراء بيت بمدينة دراربة، غير أنني اكتشفت السبب الذي كان لأجله يريد فعل ذلك.

ونظرت إلى حميد لترى إن كان كلامها قد أوقع في نفسه بعض الفضول، ثم واصلت: ذهبت مساء الأمس إلى المنزل الذي كان يقيم فيه والديّ، كنت أريد أن أعرف المزيد عن المكان الذي كانا يقيمان فيه، بيد أنني لم أتمكن من الدخول فقد كانت أبوابه مغلقة، وحين سألت عن المالك الحالي، قيل لي بأن زوجي بوشو هو من اشتراه قبل موته بعدة أيام، ولا أخفيك سرا بأنني أحس

بأنه اشتراه لأجلي، ربما لأنه كان مدركا بأنني سأكتشف يوما ما الحقيقة وسأحاول البحث عن الماضي..

كان حميد يصغي بانتباه، وبعدها قال: هل كان حب الاستطلاع وحده هو من دفعك لزيارة بيت والديك؟

قالت جازية بعد أن ارتشفت بعضا من كأس العصير: في الحقيقة إن السبب الذي دعاني لهذه الزيارة هو نفسه الذي أردت أن أتحدث معك بشأنه، فأنت تذكر أن سعدي أخبرني قبل وفاته، أن والدتي فرت من البيت وقامت بتغيير هويتي لتحرم أبي من رؤيتي، وذلك لسبب ما لم يذكره، فقمت بالتحدث مع بعض الجيران الذين كانوا يعرفون والدي، فذكرت لي إحدى النساء أنها كانت تعرف أمي حق المعرفة، كما أكدت لي أن علاقتها بوالدي كانت جيدة، وبأن أبي كان يعاملها بغاية الود واللطف، لهذا شكّل يوم اختفائها صدمة كبيرة لكل من يعرفها، ومع مرور الأيام ظن الجميع أنها أصيبت بسوء وماتت.

ورفعت يديها قليلا عن الطاولة، ثم قالت مغيرة من نبرة صوتها: وكما ترى بدل أن تزيح هذه الزيارة الغموض عن سبب هروب والدتي، زادتني حيرة على حيرة، ففكرت في أنه يمكنك أنت أن تساعدني في الإجابة عن تساؤلاتي.

ولماذا لم تستعيني بذلك المحقق الذي ساعدك في اكتشاف حقيقة سعدي؟

طلبت منه ذلك، ولكنه اعتذر متحججا بانشغاله بأمور خاصة، غير أني أظن أنه صار يخشى على نفسه بعد أن تم اعتقاله كما تعلم، ولولا تدخل المحقق شولي بعد إلحاحي عليه، لكان الآن لا يزال في السجن.

نظر حميد مباشرة إلى عينيها البنيتين الواسعتين، ثم قال: وهل هناك سبب محدد تعتقدين أنه كان الدافع لفرار والدتك من بيتها؟

لا شك أنهما تشاجرا، ولكن لا أرى أنه كان شجارا عاديا، لابد أن أمرا خطيرا قد حدث، ولكن لا أعلم ما هو، وإن كان بإمكانك اكتشافه، فأنت ترى ما آلت إليه حياتي الآن، ولن يكون من الصعب عليّ أن أجازيك بسخاء.

أشاح حميد بوجهه ناحية زجاج النافذة المغلق، وقال: دعينا لا نتحدث عن المال، ولكن أصارحك أن ما تريدين أن تبحثي عنه، كان من بين الأسئلة التي طرحتها على نفسي بعد لقائنا الأخير في القسم، فاكتشاف سبب فرار والدتك قد يكون له علاقة بما كان والدك يقوم به. وقد خمنت في أنه ربما يكون والدك قد قام بأعمال غير مشروعة حينها، الأمر الذي لم ترض عنه والدتك، وكان سببا في دفعها من الفرار إلى البيت.

بدا الانزعاج واضحا في وجه جازية، وهمت أن تقول شيئا، ثم أحجمت وأخذت نفسا عميقا هدّأ من بعض حزنها، ثم تناولت بعض الماء وقالت: بعد اكتشافي أن شركة لاكريب تعود لوالدي، ومباشرة بعد أن تم تنصيبي على رأس شركة بوشو، طلبت من موظفَين بقسم الأرشيف أن يقوما بالبحث عن هذه الشركة، خاصة بعد اكتشاف الوثائق التي تفضح تورط زوجي السابق مع سعدي في تدميرها.

قال حميد بعد أن اخذ هو الآخر جرعة من كأس العصير: سبق وأن بحثنا في أرشيف الشركة ولم نجد شيئا.

قالت جازية موافقة: هذا صحيح، كما أنني كلفت أحد الموظفين بالبحث عن أي معلومات تخص الشركة في عدة جهات، كالمقر القديم للشركة، والمحاكم الإدارية التي كانت لها صلة بتصفية ممتلكاتها بعد الإفلاس، إلا أنهم أكدوا لنا أن ذلك الأرشيف أتلف وأحرقت الكثير من الوثائق المهمة، وذلك أثناء فترة الاضطراب الأمني، فلم يعد لها أي وجود.

فكر حميد بصمت، ثم قال: ماذا عن بيت والديك؟ أتعتقدين أن به ما يساعدنا على اكتشاف أي شيء؟

يؤسفني أن أخبرك بأنه لم يبق أي شيء بالمنزل، فقد ظلّ مهملا لعدة سنوات قبل أن يشتريه بوشو، ورغم أنه صار تابعا لأملاك الدولة بعد مصادرته، إلا أنه لم يحظ بالرعاية الكافية، فعبث بمحتوياته بعض اللصوص ونهبوا الأثاث وحتى بعض قطع الرخام، لهذا فقد أحزنني أن أدخل البيت بعد جهد، ولا أجد فيه شيئا يذكرني بوالدي، كنت أود أن أرى بعض الأفرشة المعبقة برائحة الوالداين، ولكن للأسف لم يبق شيئا. قالت الكلمات الأخيرة بشيء من المرارة ثم صمتت.

تناول حميد بعضا من العصير مجددا، ثم أعاد الكأس إلى الطاولة ببطء، وهو يفكر في سبيل آخر يمكن أن يكتشف به فضائح شركة لاكريب المحتملة، وعندها سمع جازية تقول: ربما لو رجعنا إلى الصحف التي كانت تصدر في تلك الفترة، فقد نعثر على شيء، فالجرائد في الغالب تهتم بفضائح الشركات والأفراد أكثر مما تهتم بانجازاتهم.

قد تكونين محقة، فبالرغم من أنني أجريت بحثا على شبكة الانترنت عن الشركة، إلا أن سبب عدم وجود معلومات عنها قد يعود لعدم انتشار الانترنت في سنوات التسعينات، ربما يكون من المفيد أن نتصل ببعض الصحف التي كانت تنشط في تلك الفترة، ولا أظن أنه سيطول بحثنا فقد كان عددها حينئذ قليلا جدا، وجلّها تابعة للقطاع الحكومي.

ونظر حميد إلى وجه جازية، فلاحظ بعض القلق يظهر عليه، ثم بدأت تميل برأسها نحوه، وقالت بصوت هامس: أرى أن ذلك الرجل على يمين القاعة يراقبنا.

حاول حميد النظر حيث أشارت دون أن يلفت الانتباه: منذ متى وهو هناك؟
لحظات قليلة من وقت دخولنا.

تفقد حميد السلاح تحت معطفه، ثم أشار إلى جازية أن تتبعه: "علينا أن نغادر الآن."

وضعت جازية مبلغا من المال فوق الطاولة، ثم أخرجت هاتفها النقال وطلبت من السائق أن ينتظرهما عند المدخل. بعد دقائق قليلة توقفت سيارة البي أم مجددا أمامهما، استقرت جازية على أحد المقعدين الخلفيين وحميد بجوارها، انتظرت حتى أغلق الباب، وقالت متسائلة: هل تعرف الرجل؟

استدار لينظر عبر الزجاج الخلفي، ثم قال: لا، ولكن هناك من لا يريد أن يستمر التحقيق في هذه القضية، ولهذا لابد أنه قد أرسل من يراقبنا ليحرص على عدم حدوث ذلك.

نظرت جازية بسرعة إلى الخلف ولم تستطع أن تخفي ارتباكها: "يا إلهي هل يزال يتبعنا؟"

لا أظن ذلك.

وحتى تشعر بمزيد من الاطمئنان، طلبت من السائق أن يضاعف السرعة، ثم توجهت نحو حميد مجددا: "ولكن من يريد إيقاف التحقيق، ولماذا يحرص كل هذا الحرص على ذلك؟"

اعتدل حميد في مقعده وأرخى رأسه قليلا إلى الخلف، ثم قال: لا بد أن التحقيق قد اقترب كثيرا ممن كان يحرك هذه الأحداث، لذلك فمن غير الممكن أن يسمح باستمراره إلى ان نكتشف هويته.

استدارت جازية نحوه كليا، تاركة جسمها ينزاح إلى حافة المقعد، ثم قالت:
وماذا علينا أن نقوم به الآن؟
لست أدري. كنت آمل أن أتمكن من فعل شيء دون أن يتفطن أحد لذلك، ولكن بما أنني تحت المراقبة، فلست متأكدا من قدرتي على إتمام التحقيق.
نظرت إلى الخلف بحركة سريعة، ثم عادت تنظر نحوه بنفسية مصدومة:
"ولماذا أنت مصر على مواصلة التحقيق؟ ألم تخبرني أن الملف طوي على المستوى الرسمي؟ فماذا ستنال من الاستمرار فيه سوى المزيد من المتاعب؟"
لاحظ حميد من النافذة بعض محلات الألبسة، فتذكر نيته في اقتناء ملابس جديدة، ولأن الوقت لم يكن مناسبا لذلك، عاد للنظر إلى المرأة المضطربة إلى جانبه، وقال: لا أدعي البطولة، لأنه ليس هناك في الحقيقة ما يستحق أن أموت لأجله، فأنت في أمان مادمت بعيدة عن المشاكل، وكما قلت فقد يكون سعدي هو القاتل، وهو الآن ميت وقد أخذ سره معه إلى قبره، ولكن طبيعتي تدفعني إلى عدم ترك الأمور معلقة، كما لا أطيق أن أطرح أسئلة ولا أجد لها حلا، فحتى إن أقنعت نفسي بترك القضية، فهناك شيء في داخلي لن يدعني أهنأ بنوم ولا بعيش حتى أصل إلى الحقيقة.
وطلب حميد من السائق أن يتوقف في مكان قريب، ونزل وهو يقول:
سأتصل بك في الغد، أرجو ألا تقلقي، فكل شيء سيكون -إن شاء الله- على ما يرام.
ردت جازية: إن أردت زيارتي فلن تجدني في البيت، سأقيم منذ اليوم في أحد الفنادق إلى أن تشفى أمي وتعود للإقامة معي.

20

سار حميد عبر شوارع مزدحمة قصد التخلص من الملاحقين، ثم توجه إلى حي قريب للبحث عن زميل سابق ليطلب منه المساعدة، وهو رجل مسن ذو خبرة واسعة في التحقيق الجنائي يدعى كرامو لعجم، كان خلال الأيام الأولى من انتقال حميد لجهاز الشرطة يقضي آخر أوقاته في الخدمة، ورغم قصر المدة التي تعارفا خلالها إلا أنه قد نمت بينهما صداقة جيدة، فاستطاع حميد أن يكسب ود الرجل وأن يحظى باهتمامه ومشورته، ولكن الأمر الذي لا يزال يأسف له إلى الآن، هو أنه بعد تقاعد زميله، لم يلتقِ به كثيرا بسبب المشاغل الكثيرة التي صارت على عاتقه.

كان منزل كرامو يقع في شارع ضيق، يمكن العبور إليه عبر طريق قريب من المكان الذي توقفت فيه السيارة، ورغم أنه كان يستطيع الوصول إلى البيت في أقل من عشر دقائق، إلا أنه استمر في السير لأكثر من عشرين دقيقة، حتى تيقن أن أحدا لم يعد يتبعه.

اقترب من باب صغير عند أقدام بناية من طابقين، ضغط زر الجرس وانتظر، وبعد وقت قصير بدت سيدة في بداية عقدها الثالث، لها شعر محسور ذو صبغة بنية قاتمة، وثوب خفيف يغطي جسما قليل التعرجات، رد على نظرتها المتسائلة وهو يشيح بوجهه عنها: "هل السيد كرامو موجود؟" نظرت إليه نظرة متفحصة واكتفت بالقول: إنه مسافر.

كان من المتوقع أن يكون كذلك، فقد صار الترحال هوايته بعد تقاعده مباشرة. فكر حميد في أن يسألها عن الوقت المتوقع لعودته، ولكنه رأى أن الوقت قد لا يسعفه للانتظار إلى حين رجوعه. قال بصوت فاتر قبل أن يهم بالانصراف: شكرا لك سيدتي، أبلغيه أن حميد لعميري قد سأل عنه.

بعد دقائق كان على وشك الوصول إلى محطة الحافلات ليتوجه إلى المنزل، ولكن في لحظة خاطفة أحس بضربة على الرأس، ولم يشعر بنفسه إلا وهو ممدد بيدين مكبلتين وعينين معصبتين، استطاع أن يدرك من صوت المحرك والاهتزاز أنه ملقى في مؤخرة سيارة فانvan بدون مقاعد، افترض أن هناك من كان يراقبه فتحرك ببطء محاولا تحرير يده، ولكن الحبل كان مربوطا بإحكام، حين أيقن أنه غير قادر على فعل شيء، وضع رأسه مجددا على الأرضية الفولاذية واكتفى بالاستماع إلى أصوات السيارات الآتية من الخارج.

بعد بضعة دقائق، أحس أن سرعة السيارة انخفضت وكأنها تسير على طريق ترابي، كان التمدد حينها على أرضية السيارة غير مريح البتة، تمنى أن يصل في أقرب وقت إلى وجهتهم غير عابئ بما سيجد في النهاية. وأخيرا توقفت السيارة وارتفعت أصوات غير واضحة تأتي من بعيد، أصغى باهتمام حوله، وحين ظن أنه صار وحيدا، رفع رأسه وحاول فك وثاقه بكل ما أوتي من جهد، ولكن دون جدوى، كان الألم حول معصمه لا يحتمل، هدأ أخيرا ليسترجع أنفاسه، وقبل أن يعاود المحاولة فُتح باب منزلق، واهتزت السيارة على وقع أقدام ثقيلة بالقرب من رأسه، وفجأة شعر بيد قوية تمسك بقدميه وتفكّ الحبل الذي كان يقيده، كان سيدّعي الاغماء لو لم يُسحب بعنف خارج السيارة، اقتيد بعد ذلك عبر سلالم وممرات عديدة، حتى ألقي

على كرسي خشبي وقيّد من جديد، سمع وقع الأقدام تبتعد قليلا ثم تتوقف، حاول الوقوف على قدميه، فتلقّى ضربة قوية على بطنه قطعت أنفاسه، سقط على أرض رطبة وأخذ يسعل ويحاول بصعوبة جعل الهواء ينساق إلى رئتيه، ولم يكد يسترجع أنفاسه حتى عاد أحدهم ليمسك به ويلطمه بعنف على الوجه، كاد يغمى عليه، ولكنه استطاع الصمود أمام ضربات أخرى بدت كأنها تقع في جسد آخر غير جسده، بعد مدة من التعذيب مرت كأنها ساعات، سمع صوتا رخيما لأول مرة: لا أريدك أن تتدخل فيما لا يعنيك.

وانتظر أن يضيف الرجل أمرا آخر، أو ربما يدخل معه في حوار، ولكن كل هذا لم يحدث، وبدلا من ذلك سمع خطواته تبتعد، ومن مكان بعيد سمعه يحدث شخصا آخر دون أن يفهم ما قاله، اقتربت بعدها أقدام أخرى وأعيد إلى السيارة حيث قيدت قدميه، وبدأت رحلة متعبة على الأرضية المعدنية للسيارة، كانت أصوات السيارات في الخارج قليلة هذه المرة، فكر أنهم سلكوا طريقا آخر، وبالطبع لن يكون نحو منزله، وبعد نصف ساعة من السير توقفت السيارة وفتح بابها الجانبي، ثم سُحب مجددا دون أن تفك قيوده هذه المرة، أدرك حميد بأنها النهاية بلا ريب، وفي انتظار طلقة رصاصة ترسله إلى حتفه، سمع السيارة تبتعد، ثم بدا كل شيء صامت إلا صوت الرياح.

كان غير قادر على المشي ولا على الرؤية ولا حتى الكلام، انتظر أن يأتي أحد ليفك وثاقه ولكن بدا أن الانتظار سيطول إلى الأبد، وفجأة بدأ يشعر بألم في جميع أجزاء جسمه وبخدرٍ في قدميه، كما شعر برغبة في البكاء ولم يجد

عزاءً غير الأنين، واستمر على ذلك الحال دقائق طويلة بدت كأعوام حتى أغمي عليه.

حين استفاق وجد نفسه على سرير مستشفى عبد القادر محمودي، لم يكن أحد بالغرفة، كان الضوء المتسلل من النافذة يشير إلى أن الساعة حوالي العاشرة صباحا، لم يكن يعلم كم من الوقت مكث هناك، ولكنه تذكر بسرعة ما حدث له فشعر بالراحة لأنه لا يزال حيا، نظر من حوله، فرأى بعض الأنابيب الطبية تمتد من قضيب معدني نحو ذراعه، و بعض الأسلاك تربطه بجهاز يصدر صوتا يحاكي نبضات قلبه، كان يرتدي ثوبا أبيض يشبه المئزر، وعلى يمينه ستار يظهر وكأنه قسّم الغرفة نصفين، خلف ذلك الحاجز بدت قدم شخص ممدد على سرير آخر، حاول الاعتدال ليرى من يكون بوضوح، ولكنه سمع الباب على يساره يفتح، وممرضة في نهاية عقدها الثاني تنظر إليه، كانت نحيفة بمئزر أبيض وشعر محسور يميل للحمرة. تحركت نحو منضدة لتضع عليها ما يشبه السجل، ثم نظرت إليه مجددا وعلى وجهها المزين بالنمش ابتسامة جميلة: "كنت متأكدة بأنك ستستيقظ في أية لحظة، فحالتك الآن مستقرة ولا تدعو لأي قلق، لقد تعرضت لضرب مبرح أليس كذلك؟ "

اكتفى حميد بإشارة من رأسه، فأضافت الممرضة: لن أزعجك كثيرا، فهناك من كان ينتظر إسفاقتك ليتحدث إليك.

أدرك حميد أن رجال الشرطة هنا، ولكنه لم يكن مهتما... اعتدل قليلا في سريره ثم عاد لينظر إليها متسائلا: منذ متى وأنا على هذه الحال؟

كانت تتفقد الجهاز الموصول به حين أجابت: أتوا بك يوم الاثنين، واليوم هو الأربعاء، أي مضى عليك ليلتين وأنت على هذا السرير.

اتجهت بعدها إلى السرير الثاني، حيث أزاحت جزءا من الستار، فبدا رجل في سن متقدمة ممددا هناك، كان مغمض العينين وتبدو أنفاسه متقطعة، فكر حميد أنه في غيبوبة كاملة، قاست مؤشر نبضه وسجلت بعض الملاحظات على ورقة مثبتة على غلاف ثخين، وفي أثناء ذلك ظهر شبح شخص يمر عبر الباب، ثم سرعان ما عاد وبدا وجه يعرفه، كان نوفل، لم يجرؤ على الدخول حتى أشار إلى الممرضة طالبا الإذن، ثم تقدم بهدوء أين سلم على صاحبه، وقال وهو يجلس على حافة السرير: الحمد لله على السلامة.

رد حميد بابتسامة مودة: شكرا لك، وأنت، كيف الأحوال؟

الحمد لله، ولكن بالله عليك أخبرني ماذا حصل لك؟

وقصّ له حميد ما الذي حدث منذ أن التقى بجازية إلى أن وجد نفسه في المستشفى، فقال نوفل: أتدري كيف جيء بك إلى هنا؟

لا بد أن أحدا عثر علي في الطريق.

قالت الممرضة وهي تغادر الغرفة: سأعود بعد قليل، أرجو ألا تكثر الحديث معه.

وبعد أن أغلقت الباب، أكمل نوفل: من الغريب أن من جاء بك كان سائق أجرة، أخبر الحراس أن أحدهم دفع له مبلغا من المال، وطلب منه الذهاب إلى المكان الذي كنت فيه لإحضارك من هناك. كان خائفا، وحين استجوبناه أخبرنا أنه لم يكن ليحضرك لولا المبلغ الكبير الذي تحصل عليه.

بدا بعض الاهتمام على وجه حميد، فأراد الاعتدال أكثر، ولكنه أحس بوخز شديد في ساقه، لم يرد أن يظهر ما شعر به، لذلك اكتفى بسحبهما قليلا، ثم قال: كم كان المبلغ؟

تخيل.. عشرين ألف دينار من أجل مسافة لا تزيد عن خمسة عشر كيلومتر.

أصدر حميد صوتا يشبه الصفير تعبيرا عن دهشته، ولكن في نفسه كان يخفي شعورا آخر بالامتنان: "أتساءل من يمكن أن يدفع مبلغا مثل هذا من أجل إنقاذي؟"

يمكن لأي منا دفع المال من أجل إنقاذ حياة إنسان، ولكن الذي يدعو للتساؤل أكثر، لماذا دفع كل ذلك المبلغ في حين كان يمكنه أن ينفق مبلغا أقل من ذلك؟ وكيف عرف مكانك؟ ولماذا لم يحضرك بنفسه إلى المستشفى؟

تفكر حميد للحظة، ثم سأل: هل أخبركم سائق الأجرة عن هوية الرجل؟

لا، فقد بدا مترددا في وصفه، ثم جاء بأوصاف متباينة لم تقدنا إلى شيء، وهذا ما رجح لدي أن الغاية من كل ذلك المال، هو حرص من أنقذك على إخفاء هويته..

وهل تعتقد أنه ستكون هناك فائدة من معرفة الشخص الذي عثر علي؟

تنهد نوفل وقال: لست أدري، ولكن لم يكن ذلك الرجل ليثير اهتمامي لو لم يدفع كل ذلك الحجم من النقود حرصا على إخفاء هويته.

نظر حميد إلى السقف، وقال كمن يحدث نفسه: صار كل شيء في هذه القضية يثير الريبة، فمن يا تراه يتكبد كل ذلك العناء ليمنع وصول التحقيق إلى نهايته.

ساد صمت قصير، ثم قال نوفل: ويبدو أن من أراد توقيف التحقيق لم يكتف بجعلك تعيش أسوأ لحظات حياتك.

ثم صمت مجددا إلى أن رأى عودة الاهتمام في وجه حميد: "لقد تم نقلي إلى بومرداس لأعمل هناك، كما أن ملف شولي الخاص بالتقاعد المسبق، قُبِلَ أخيرا بعد أن رُفض لعدة سنوات".

عاد حميد لوضع يشبه الشرود، وقد كان تفسير كل ذلك واضحا بالنسبة إليه: "إذًا فقد تم إزاحة كل من له علاقة بالقضية، وهذه الإجراءات في نظري لم تكن إلا تحذيرا لنا، فإن نحن تجاهلناه فسيكون مصيرنا الموت بلا شك".

علق نوفل بعد أن ارتسمت على شفتيه علامة استهزاء: التضحية والموت من أجل دنانير تدفع لنا كل شهر، على كل حال ما كنت لأستمر في التحقيق، بعد أن بدا للجميع أن سعدي هو من ارتكب تلك الجرائم، ولكنك أنت الذي أصرَّيت على البحث، وكنت تتوقع أن تنال جائزة إن تمكنت من حل ذلك اللغز.

ثم قام من مكانه ونظر نحو السرير الثاني وكأنه انتبه لوجوده لأول مرة: "على كل حال سأعمل بنصيحة الممرضة وأدعك ترتاح قليلا، وأرجو ألا يتم نقلك أنت أيضا من هنا."

بعد أقل من أسبوع كان حميد قادرا على الحركة والمشي، بل كان يعتقد أنه صار قادرا حتى على العودة إلى العمل، إلا أن الطبيب أصر عليه بالراحة لأسبوع آخر، وحتى يطرد عنه الملل، فقد زار بعض الأصدقاء وبعض أماكن الاسترخاء، كما كانت في نيته زيارة مسقط رأسه، ولكن والدته كانت السبّاقة إليه حين علمت بدخوله المستشفى، وبعد تحسن حالته قليلا، رفضت العودة إلى بيتها حتى يشفى بالكامل، وكان حميد منشغلا في الأيام الأولى لمرضه بمعرفة أحوال جازية، خاصة بعد أن لاحظ أنها لم تكن من بين الذين تفقدوا صحته في المستشفى، وتذكر أنه تعرض للاعتداء مباشرة بعد تعرضهما للمطاردة معا، فزاد قلقه وتمنى أن يقوم بزيارتها، ولكن نوفل أكد له أنها في صحة جيدة ولا داعي لكل ذلك القلق. وكانت تتجدد رغبته في الاتصال بها مع كل إشراقة يوم جديد، ولكنه كان يخشى أنّ أي اتصال قد يجلب لنفسه ولها مزيدا من المشاكل فيحجم عن ذلك.

وارتدى ثياب الرياضة بعد فطور جيد أعدّته أمه، حيث أن وجودها معه قد أكسب الحياة من حوله نكهة كان قد فقدها منذ خمس سنوات، وركض تحت جو غائم لمدة تقارب النصف ساعة، وقبل بداية زخات خفيفة من المطر، تمكن من الوصول إلى الحديقة قرب مركز البريد، استمر هناك يقوم ببعض الحركات مدة عشر دقائق، ثم ركض نصف مسافة العودة إلى البيت، ونصفها الباقي فضَّل أن يكمله سيرا. كان يطوق للقيام ببعض حركات الكابويرا المثيرة، ولكنه لم يكن في حاجة لاستشارة طبيب هذه المرة

ليدرك مدى خطورتها على جسمه المحطم. بعد حمام دافئ، تفقد هاتفه المحمول الذي كان قد تركه في البيت، وازدادت دقات قلبه حين علم أن جازية كانت قد اتصلت به مباشرة بعد خروجه من البيت، أعاد الاتصال دون تفكير، ولكن لم يرد أحد على المكالمة، أراد إعادة المحاولة لكن الهاتف رن في يده وظهر اسم جازية من جديد. ورد على المكالمة وهو يشعر بسعادة لم يكن يتوقعها، خاصة بعد أن نادته باسمه دون ألقاب: كيف حالك حميد؟

رد بشيء من النشوة: بخير أشكرك، كنت أود الاتصال، ولكن خشيت أن أسبب لك المشاكل.

ثم أضاف ليشعرها أكثر باهتمامه: ولكنني كنت أسأل عنك باستمرار.

لا عليك، كنت أنا أيضا على علم بأخبارك.

أشعرته كلماتها بمزيد من الارتياح، ثم سمعها تقول مجددا: أين أنت الآن؟

أخبرها بمكانه فعادت للتساؤل: أرجو ألا تكون مشغولا هذه الصبيحة.

أخذت عطلة مرضية لمدة أسبوعين..

هذا جيد، سأمر عليك بعد ساعة من الآن، هل يمكن أن أجدك في البيت؟

أجل، يمكنك أن تجديني في شقة بحي..

وقاطعته قائلة: أعلم أين تقيم، زودني أحدهم بعنوانك.

وبعد أقل من ساعة كانت سيارة التيقوان تقف في الساحة الصغيرة أسفل الشقة، وكان حميد قد أخبر والدته بقدوم الضيفة، فهيئت الغرفة التي اعتاد التدرب فيها ببساط غطى معظم أرضيتها، ومدت قرب الجدار المقابل للباب أفرشة كمتكأ مع بعض الوسائد، كما وضعت مائدة صغيرة تناسب الجالس على الأرضية، وبعض الكراسي الإضافية على جانبي الغرفة لمن لا

يحبذ الجلوس المنخفض، أما لمستها الخاصة في ذلك المكان، فهي إزالة جميع المرايا شبه المحطمة على الجدران، والتي كان حميد يعلقها من أجل مزيد من الإثارة أثناء التدريب. وانطلقت المرأة المسكينة تعد الغداء للضيفة، رغم جسمها المهزول وصحتها العليلة، وقد حاول حميد إقناعها بأن المرأة لن تبقى للغداء، إلا أنها كانت ترد في كل مرة: وماذا لو وصلت وقت الغداء؟ ولكن ذلك لم يحدث، وأصرت الأم على رأيها، وحكيمة في استعدادها لأي طارئ.

كان وجه جازية يبدو مرهقا حين فتح لها حميد الباب، ترتدي معطفا شتويا وتحمل كيسا صغيرا وحقيبة يد، رحبت بها أمه التي تدعى صفية، بمودة وعطف لم تكن تدري مصدره، ربما هو الإشفاق والإعجاب بعد أن أخبرها ابنها من قبل بجزء من مأساتها، وربما كانت ترى في حياة جازية جزءا من حياة أمها المتوفاة، والتي عاشت وحيدة دون أبوين، ثم تجرعت من المرارة أصنافا بعد وفاة زوجها، وشعرت جازية بحفاوة صفية فتبسمت بود ونسيت للحظة بعض الفراغ الذي صار جزءا من يومياتها، وذلك رغم المشاغل العديدة التي صارت تقضيها في الشركة.

حين توجهت صفية إلى المطبخ، تسنى لجازية أن تعتذر لتأخرها عن الزيارة كل ذلك الوقت، وبررت ذلك بانشغالها بجنازة زوجها الذي لم تستطع استلام جثته بسهولة، وبشيء آخر مثير حدث لها.

أبدى حميد مزيدا من الاهتمام، فقالت بعد أن استلمت كأس عصير عادت به صفية من المطبخ: في الحقيقة أعلم أن ما حدث لك كان بسببي، ونظرت إلى المرأة وهي تعود من حيث أتت، ثم واصلت: أعني أنك كدت تفقد حياتك لتعرف حقائق متعلقة بحياتي.

وحاول حميد أن يرد، ولكنها رفعت يدها وكأنها تعلم ما سيقوله: "في الحقيقة أعلم أن المخاطرة جزء من عملك، ولكن ما أتيت لأحدثك به اليوم لا أريد أن أصنفه في إطار العمل، ولكن لنقل إنني احتاج شخصا له دراية بموضوع أريد أن أحصل بخصوصه على استشارة.

وأومأ حميد برأسه موافقا دون أن ينطق بكلمة هذه المرة، ولذلك عادت جازية للكلام مفضلة أن تدخل مباشرة في صلب الحديث: في اليوم الموالي من لقائنا الأخير، وحين وصلت إلى الفندق الذي صرت أنزل به بعد نقل أمي.. إلى المستشفى، وهمت بتصحيح الكلمة، ولكن رحمة كانت حقا بمثابة أم لها، ولم يمكن بمقدورها أن تناديها باسم آخر، ولهذا لم ترد تغييرها واستمرت في الحديث: قدم لي موظف الاستقبال في الفندق ظرفا مغلقا، وقال إن شخصا طلب مني أن أعطيه لك، صعدت إلى غرفتي ووجدت فيه هذه الرسالة: وأخرجت ورقة صغيرة من حقيبتها وقدمتها له.

قرأ حميد بسرعة: " أريد أن نتقابل على الساعة الواحدة قرب مدخل مترو الحراش، أرجو أن تكوني بمفردك فلدي معلومات جد مهمة. عمار".

رفع حميد عينيه عن الرسالة وتساءل: ومن هو عمار؟

لست أدري، لم أعرف في حياتي إلا شخصا واحدا بهذا الاسم، ولكن كان ذلك منذ زمن بعيد في المدرسة الأساسية، كان يدرس معي ولم أسمع عنه شيئا منذ ذلك الحين، أي من المستحيل أن يكون هو.

فكر حميد في أنه قد يكون اسما مستعارا لشخص ما، وحين أخبرها بذلك قالت: في الحقيقة لم آت لاستشارتك حول لقاء هذا الشخص بالذات، فقد سبق وأن ذهبت حيث طلب والتقيت به.

ولاحظت دهشة حميد ثم أكملت: كنت في حاجة ماسة إلى معلومات، وفكرت في أنه في مكان عام مثل محطة المترو، لن يكون قادرا على فعل أمر خطير إلا إذا كان يريد دخول السجن، ورغم ذلك فقد أخذت سلاحا مرخصا معي كاحتياط. وحين وصلت، انتظرت قرابة عشر دقائق دون أن يقترب مني أحد ثم غادرت المكان، سرت بعدها نحو سيارتي المركونة في موقف قريب، وهناك تقدم مني شاب يضع نظارات ويرتدي قبعة، شعرت بالخوف فمددت يدي نحو المسدس وانتظرت أن يقوم بأي خطوة، ولكنه عرّف نفسه باسم عمار، وقدم لي ملفا به معلومات في غاية الخطورة.
وسحبت الكيس الذي كان بقربها، وأخرجت منه أولا علبة صغيرة قدمتها إلى حميد مع ابتسامة ودودة: رأيت من واجبي أولا أن أحضر لك هذه الهدية البسيطة.
قبل حميد الهدية بكلمات خجولة، ثم أعاد اهتمامه حين مدت يدها ثانية إلى الكيس، أخرجت هذه المرة عدة أوراق محشورة بين ذراعي غلاف أصفر، أزالت المطاط الذي كان يشدها ببعضها بسرعة، وأظهرت ثلاثة أوراق: "قمت بنسخ الملف قبل أن أحمله معي حتى لا يضيع".
تناول حميد الأوراق ونظر إليها على عجل دون أن يقول شيئا، ثم أعاد تصفحها بشيء من التمعن للمرة الثانية، فيما كانت جازية صامتة تنتظر ردة فعله. وأخيرا وضع الأوراق على المنضدة ولخص ما استطاع أن يفهمه من المستندات: "كنت أعتقد أن شركتي بوشو ويطاغن فقط من تورطا في نهب شركة والدك، ولكن هذه الوثائق تعد دليلا آخر على أن شركة ألجي إلكترونيك أيضا متورطة في انهيار شركة لاكريب".

حملت جازية الأوراق وأشارت إلى ما هو أخطر من ذلك: "ليت الأمر يتوقف عند هذا الحد، فسبتي متورط مع شركة فرنسية تدعى نوفال تيكنولوجي في تدمير شركة والدي، ولكنني لست متأكدة إن كان لزوجي السابق علاقة بهذه الخيانة أم أن غايته من نهب تركة الشركة كان المال فقط".

يحزنني أنه لحد الساعة يوجد أناس يخدمون أطرافا أجنبية لأجل المال، ففي رأيك لماذا سيتورط سبتي في علاقة مثل هذه، لولا الامتيازات الكبيرة التي كان سيجنيها من ورائها.

دخلت صفية تحمل صينية طعام ثم وضعتها على المائدة، نظر حميد إلى الساعة التي كانت بالكاد العاشرة صباحا، وتعجب من عناد أمه، وربما كانت صفية تدرك أن الوقت مبكر على الغداء، فقالت محاولة أن تجعل الأمر عاديا: أعلم أنك لن تبقى حتى الغداء، فأحضرت طعاما خفيفا أعددته من أجلك.

نظرت جازية إلى الطعام، فرأت أنها وجبة كاملة لا تقل عن ثلاثة أصناف مع العصائر وبعض الفواكه، أحست بخجل كبير، فهي لم تعتد على الأكل في مثل ذلك الوقت، ولكن كان لابد لها أن ترضي المرأة ولو بتذوق شيء منه، وحتى يشجّعها حميد فقد أكل معها، وبشهية واضحة، وفي أثناء ذلك جالت في خاطره الكثير من التساؤلات، وكان السؤال الأهم هو: ماذا يمكن لجازية أن تفعل بمعلومات مهمة كهذه؟ كان متيقنا بأنها ما جاءت إلا لتطرح السؤال نفسه عليه. وكان أول ما فكر فيه هو التوجه إلى الشرطة، ثم تذكر كيف أن الرجل الذي حاول قتله كان ذا نفوذ استطاع من خلاله وقف التحقيق، وربما من أجل إخفاء هذه المعلومات قام بذلك، ولكن من جهة أخرى هناك من أنقذه، ألا يكون الشخص نفسه الذي قدم الوثائق لجازية،

أي أنهما صارا بين شقي رحى، فهو بالطبع لن يتركها تخوض الصعاب لوحدها، وبدا الشرود واضحا على وجهه بعد أن توقف عن الأكل، أحست المرأة بالذنب حين أدركت اهتمامه، وتمنت لو أنها تصرفت بنفسها ولم تقحم الشاب المسكين في ذلك، قامت من مكانها بعد أن مسحت فمها بمنديل ورقي، وقالت: علي أن أذهب الآن. أين والدتك لأشكرها على الطعام؟
وكان حميد يعلم أن جازية لم تفرغ كل ما كان في جعبتها من الحديث، فقرر أن يتصرف بسرعة: لم العجلة فالوقت لا يزال مبكرا؟
كان عليها هي أيضا أن تقول أي شيء لتتنصرف في أقرب وقت: تذكرت بعض الأشغال، لهذا عليّ الذهاب على الفور.
وتدخلت صفية بسرعة حين رأت الضيفة تنصرف. واستمر حميد يراقب المرأتين وكل منهما تحاول إقناع الأخرى بما عزمت عليه، ولكن بدت جازية أكثر إصرارا، فخطت نحو الباب وصفية لا تزال تقول: كنا نود أن تبقي أكثر، ولكن إن كنت مشغولة فلا نريد أن نعطلك. أرجو أن تأتي مرة أخرى لزيارتي، فقد ارتاحت نفسي لك منذ أن رأيتك، وأصارحك أنك صرت بحق بمثابة ابنة لي.
تبسمت جازية وقالت: "وأنا أيضا خالتي"، ثم تقدمت نحوها وقبلتها قبلتين كعادة بعض النساء قبل كل وداع. وسارت عبر الأدراج تحت نظرات صفية، ثم اتجهت إلى سيارتها برفقة حميد.
حين جلست على مقعد القيادة، رأى حميد أن يسألها عن قرارها بشأن تلك الوثائق قبل أن تغادر، ترددت قليلا ثم قالت: سأعالج الأمر بنفسي فلا داعي لأن تقلق. وشغّلت المحرك ثم حركت مبدل السرعة لتعود بالسيارة قليلا إلى

الخلف، ولكن حميد بقي واقفا قرب نافذتها المفتوحة، وحرصا منه أن تقول شيئا قبل أن تغادر، مد يده ليمسك ذراعها، ثم سحبها بسرعة.

حين نظرت إليه قال: أريد أن أساعدك فيما تعزمين القيام به جازية، أرجو ألا تذهبي قبل أن تخبريني بما كنت تودين قوله.

بدا أنها تفكر للحظة، ثم قالت مشيرة برأسها لداخل السيارة: "اصعد".

وانطلقت السيارة مبتعدة عن الحي نحو الطريق السريع، لم يكن يهم حميد وجهتهما تلك اللحظة، بل كان في غاية التركيز لكل كلمة كانت تقولها. أخبرته أنها عثرت مع الملف على ورقة دون عليها عنوان رجل يدعى "سعد بن قوية"، وقالت أن المدعو عمار أخبرني أنه من القضاة الذين تتبعوا عملية تصفية الشركة فيما سبق، وكان له اهتمام خاص بهذا الملف منذ أن بدأت المشكلات تظهر على السطح، و فيما يبدو فإن الرجل كان متعاطفا مع الشركة من منطلق معرفة سابقة بوالدي، وهو على دراية تامة بنزاهته واستقامته، ولكن كانت هناك جهات نافذة تضغط عليه لإنهاء التحقيق، وإن لم يكن ذلك ما أزعجه، فقد كان بدوره قاضيا واسع الصلات، ويستطيع أن يقف في وجه أي كان، ولكن ما كان ينقصه هي الأدلة اللازمة، وأشارت إلى صندوق المعدات تحت لوحة القيادة حيث كان الملف، ثم أضافت: والآن الأدلة في أيدينا...

ونظر حميد عبر الزجاج الأمامي، حيث كانت جازية تتجاوز سيارتين في منتهى المهارة، ثم انزلقت عيناه إلى مؤشر السرعة، فلاحظ أنه كان يخطو نحو السرعة الخمسين بعد المائة فلم يشعره ذلك بالرضا، ولكنها خففت قليلا من سرعتها حين اقتربت من مدينة زرالدة، وانعطفت نحو شاطئ

البحر، فكر حميد في أنها تقوم بنزهة فقط وستعود قريبا حين يفرغان من هذا الحديث.

بعد لحظة صمت عادت للحديث، وتركيزها لا يزال على الطريق أمامها: سألت عمار رغم أنني لم أكن في لحظة لقائي به توّاقة إلا إلى الابتعاد عنه، عن سبب اختياره لي لتقديم هذه الوثائق.. قلت لماذا لا تقدمها للقاضي بنفسك وينتهي الأمر؟ ولكنه أخبرني أن هذه القضية تخص والدي، ولهذا من الأفضل أن أثأر لمن تسبب في تدميره بنفسي، كما أخبرني أن الشخص الذي يساعدني يريد أن يكون بعيدا عن الواجهة، ولهذا ليس من داع للخوف، فالقاضي سعد بن قوية رجل قوي وسيقدّر المعلومات التي تقدمينها، خاصة إذا علم أنك ابنة صديقه القديم، كما أنه لن يتوانى لحظة في حمايتك.

وتذكر حميد الشخص الذي ساعده دون أن يعرّف بنفسه، وراودته التساؤلات إن كان هو الشخص نفسه الذي يساعد جازية الآن، ولكن لماذا يفعل ذلك؟

وبدا من بعيد خط داكن لصفحة البحر، ثم اختفى خلف بعض البنايات حين انعطفت جازية نحو طريق مزين بأشجار النخيل، وبعد لحظات عاد للظهور مجددا أكثر قربا وأكثر غضبا ورهبة، علقت جازية حينما شاهدا ذلك المنظر: أحب رؤية البحر في فصل الأمطار على عكس معظم الناس، أحب أن أرى أمواجه العاتية وقوته الهائلة، فأشعر بحقارة الإنسان وواضعة شأنه أمام هذا المخلوق العظيم، وبذلك أستشعر عظمة الخالق. وكان الجو قد ازداد عتمة، وبدا أن أمطارا غزيرة ستهطل في أية لحظة، وذلك منذ أن اكتفت السماء ببعض الرذاذ مع بداية النهار. واستمرت

السيارة في التقدم إلى أن وصلت إلى مساحة مبلطة مقابلة للبحر، كانت تستعمل كموقف للسيارات أوقات الاصطياف، واستمرا يراقبان أمواج البحر التي بدت ستبتلعهما في أية لحظة، وازدادت ظلمة المكان حتى اضطرت جازية لإنارة المصباح المثبت فوق رأسيهما، وكما كان متوقعا فقد بدأت الأمطار تضرب سقف السيارة بعنف، وماسح الزجاج الأمامي يعمل بجد ليظهر ذلك المنظر الذي كان يشعر جازية بمتعة لا توصف، أما حميد فقد كان يحاول أن يجد لنفسه الشعور المناسب، ولكن في الحقيقة كان يغلب عليه شعوران، الخوف الذي لم يكن يريد أن يعترف به حتى لنفسه، أما إعجابه بجازية فقد كان واضحا، كانت الغرابة التي بدت في تصرفاتها تضفي عليها طابعا مميزا، كان ينظر إلى الطبيعة الغاضبة للحظة، وحين تستبد به الوحشة، يعود للأنس بمنظر وجهها الباعث على الطمأنينة، واستمر الحال على ذلك بعض الوقت، لمع خلاله البرق تلو البرق، وقصفت رعود ارتج لها حتى قلب جازية الذي كان مستمتعا، وبفعل الضوضاء التي كانت تحدثها الطبيعة، بالكاد استطاع حميد سماع رنين هاتفه المحمول، كانت والدته على الخط، سألته عن مكانه في هذا الجو الماطر، فحاول أن يرفع صوته قدر ما يستطيع لتسمعه: لا تقلقي فأنا بخير، سأنجز بعض الأعمال وأكون في البيت.

نظرت إليه جازية وقالت بصوت لا يكاد يسمع: أتريد أن نتناول بعض الشاي ونكمل الحديث، هناك مركز تجاري قريب به بعض المقاهي والمطاعم.

لم يكن لحميد أن يعترض على هذا الاقتراح، فاستدارت جازية بالسيارة، وفي أقل من خمس دقائق، كانا جالسين في مكان أكثر هدوءا وشبه خال من الزبائن، كان ذلك جيدا بالنسبة إليهما. وكان الشاي الدافئ مفيدا في مثل

ذلك الجو الذي كان يزداد برودة، تذكر حميد آخر لقاء بينهما، وكيف انتهت به الأمور فانقبضت نفسه قليلا، ولكنه لم يكن يريد أن يفكر كثيرا في الأمر.
قال محاولا أن يغير موضوع العمل: هل من جديد فيما يخص حالة أمك رحمة؟

هزت رأسها في أسى وأجابت: لا جديد، لا تزال في حالة غيبوبة، حتى وإن كانت عيناها مفتوحتين.

واعتدلت قليلا ثم أضافت: زرتها قبل يومين فبدت كالميتة، لا تجيب ولا تتحرك، أخشى أن تكون قد أصيبت بشلل تام، ولكنني لا أريد أن أعرف، لم أسأل الأطباء عن مدى خطورة حالتها، ولا أريد أن أفعل ذلك، أخشى من أي إجابة لا أطيق سماعها.

أرجو أن تتحسن قريبا، فقد مرت بظروف صعبة، وسيتكفل الزمن بمحو آثارها إن شاء الله.

أرجو ذلك.

أخذ حميد ملعقة صغيرة وحركها ببطء داخل كأسه، ثم قال دون أن يرفع عينيه: وماذا عن أحوال الشركة؟ أرجو أن تكوني قد اعتدت العمل فيها.

مطت شفتيها وقالت بنبرة سريعة: لا بأس.

واستدركت حين رفع حميد رأسه نحوها: ليس من السهل تسيير شركة على أيٍ كان، لاسيما إذا كان عديم الخبرة مثلي، ولكن لدي فريق رائع وهو يعمل باجتهاد، كما أنني أتلقى نصائح من بعض المديرين التنفيذيين الذين شرحوا لي طريقة العمل، والذي يبدو من خلال توزيع المهام أن العبء لن يكون على شخص واحد، وإنما على كل موظف مهما كانت منزلته، والحق أنه نظام فريد في دولة يقل فيها الانضباط مثل بلدنا، ولكنني أؤكد لك أن نظام

العلاوات والرواتب كان له أيضا دور فعال في غرس قيم الولاء والإخلاص في العمل.

يسعدني أن أسمع ذلك، أتمنى لك التوفيق.

ورفعت كأسها بقدر ضئيل، ثم وضعته بسرعة في مكان أبعد عن حافة الطاولة، وقالت: ولكن هذا لا يعني أنني لا أصادف مشاكل أبدا.

هذا أكيد، فما من عمل إلا وبه بعض الصعوبات.

وساد صمت قصير قطعته جازية: وما هي أخبار زميلَيك في العمل، ذلك الشاب نوفل والمحقق طويل القامة؟

تبسم حميد ثم قال: تم نقل نوفل للعمل في ولاية أخرى، فيما أحيل شولي على التقاعد.

أبدت جازية تعاطفها مع الشاب قائلة: مسكين نوفل، لماذا تم نفيه بعيدا من هنا؟

رد حميد بنبرة جادة: أظن أن كل ذلك متعلق بخطة وقف التحقيق، فقد كنت أنا ونوفل إضافة إلى شولي الفريق المعني بتتبع هذه القضية، وبعد الحادث الذي تعرضت له مباشرة، وصل لكل منهما قرار الإبعاد.

تنهدت جازية بعمق، وقالت وهي تنظر إلى المستندات التي أحضرتها معها في الحقيبة: أرجو أن ينتهي كل هذا قريبا، فقد تعبت، وأريد أن أعود للعيش بلا خوف ولا أسئلة تكاد تدفعني إلى الجنون.

وماذا قررت بشأن هذه الأدلة؟

وضعت جازية على الملف -الذي لم تسعه الحقيبة- غطاءً كانت تلفه حول رقبتها، فقد كانت تخشى أن يراه أحد ويمد يده إليه دون أن تشعر: "فكرت كثيرا في هذا الأمر، ولكنني لم أتخذ قراري بعد، قمت بمزيد من الأبحاث عن

ذلك القاضي سعد بن قوية ورأيت أن حياته المهنية مثيرة للإعجاب حقا، فقد تمدرس في الكتاتيب إبان العهد الفرنسي، وتلقى خلالها تربية دينية جيدة، والتحق بالمدرسة النظامية الفرنسية، فمكنه تفوقه من الارتقاء إلى مستويات كانت حكرا على أبناء المستعمر، ولكنه لم يكمل الدراسة، والتحق بصفوف جبهة التحرير وهو لا يزال في أوائل العشرينات، وبعد الاستقلال جاءته فرصة أخرى لإتمام دراسته، فانتقل إلى بريطانيا، ومنها إلى كندا أين درس القانون وتحصل على شهادات عليا في هذا المجال، إضافة إلى جوائز عن أبحاثه في مجال النباتات التي كان يعشقها، وبعد عودته إلى الجزائر تقلد مناصب استشارية في الدولة، إلا أنه تخلى عن كل ذلك وفضل مهنة القضاء، وقد جلب له هذا العمل الكثير من المشاكل، وذلك لوقوفه العنيد أمام أقوى المجرمين وأكثر الناس نفوذا على الإطلاق، وقد أثيرت شائعات بأنه نجا من عدة محاولات اغتيال، ولكن الرجل لا يؤكد أيا منها و لا ينفي، فهو ذو مهارة كبيرة في الحوار والإقناع، وكذلك الهروب من الأسئلة التي لا يريد الإجابة عنها، والحق أن كل ذلك شجعني على الاتصال به وأعطاني دافعا قويا للشعور بالأمان كلما فكرت في لقائه، ولكن أصدقك القول أنني لازلت مترددة بعض الشيء، ولهذا أريد رأيك في الموضوع".

فكر حميد بسرعة ثم أجاب: أريد بعض الوقت لأقوم بمزيد من التحريات عن الرجل.

وأحست جازية وكأنه يوافقها فيما ارتأته، فشعرت ببعض الارتياح: "حسنا إن كنت ستقوم بذلك فعمار أخبرني أن الرجل مسافر هذه الأيام، وسيعود يوم الأربعاء القادم إلى منزله ليوم واحد فقط ثم يتجه بعدها إلى أوربا، قال

إنه لن يعود قبل عدة أشهر، فإن ضيعنا فرصة لقائه في ذلك اليوم، فربما لن نجد شخصا مناسبا لتسليم هذه الوثائق أبدا".

تنهد حميد بنفسٍ لا يكاد يلاحظ، وقال كمن وصل أخيرا إلى قرار: حسنا، سأرى ما يمكن فعله ثم اتصل بك قبل يوم الأربعاء، لدي يومان لأتحرك، وهو وقت كاف إذا عملت بسرعة.

استطاع حميد في يوم واحد أن يجمع معلومات كافية عن سعد بن قوية، وقد جعلته السيرة التي تحصل عليها، على يقين هو الآخر بأنه الرجل المناسب لإنهاء هذه القضية والزج بالمجرمين خلف القضبان، وبلا شك سيكون الأشخاص الذين هددوا حياته من بينهم، وبعد أن اقنع جازية بجهد أن يكون برفقتها للقائه، اتفقا على أن تكون صبيحة يوم الأربعاء هو الوقت المناسب، فالرجل -حسب تحريات حميد- يعود من فرنسا يوم الثلاثاء مساء، يقضي ليلته بالبيت وفي الصباح قد يغادر لإنهاء بعض الأشغال العالقة ثم يسافر في اليوم الموالي، وقد لا يعود أبدا، فقد كان معروفا جدا، ولم تكن تحركاته تخفى على أحد، وكان البيت الذي يقيم فيه يُظهر بشكل واضح ثراءه الواسع، فهو يقع على مساحة تفوق الهكتار بضواحي مدينة الشراقة، يحيط به جدار عملاق يخفي مساحات واسعة من الأشجار المعمرة، ويعود البيت في تصميمه إلى الطراز الفرنسي مع بعض المنشآت التي أضيفت لاحقا.

حين وصلت سيارة جازية إلى البوابة عبر زقاق ظليل وهادئ، شعرت وكأنها دخلت إلى البيت بالفعل، فالزقاق كان خاليا، وينتهي بمنعطف يخيل إلى الناظر أنه لا يقود لأي مكان، كما أن كثرة الأشجار المحيطة به توحي بأنه جزء من حديقة البيت، ولكن السؤال الذي كان يشغلها حينئذ هو كيف ستدخل المنزل؟ فلا يظهر أي جرس أو جهاز اتصال على أي من جانبي البوابة، كما أن البناء الرئيسي يبدو بعيدا خلف تلك الغابة الصغيرة التي

تحيط به، ومن المستحيل أن يسمع أحد طرقها من الداخل، ولم يكن حميد بأحسن من حالها ففكرا جديا في العودة، إلا أنهما لاحظا شخصا في بداية الثلاثينيات يمر بدراجة هوائية، كان يرتدي ملابس رياضية خفيفة رغم الجو البارد ويعتمر قبعة، كانت نظراته موجهة نحوهما حتى قبل أن يصل، ثم توقف بالقرب من السيارة وسأل: هل تبحثان عن السيد بن قوية؟

أجاب حميد بالإيجاب، فأضاف الرجل: لست متأكدا من وجوده بالبيت، فهو دائم التنقل في الأيام الأخيرة، ولكن إن أردتما التحقق فلا أنصحكما بالانتظار هنا، ادفعا البوابة ففي العادة تكون مفتوحة واطرقا الباب الداخلي.

تقدم حميد نحو ذلك الهيكل المعدني الضخم، ودفع جانبا منه بشيء من الجهد فانفرج قليلا، ثم نظر مجددا إلى الرجل وقال: هذا صحيح فهي مفتوحة.

قال الرجل مشجعا: ادخلا واسألا عنه في الداخل، فهنا لن يسمعكما أحد.

وفيما انطلق الشاب مسرعا بدراجته، تقدما نحو الداخل ببطء على ممر صخري واسع، وكانا وهما يسيران معا، يشعران بأنهما يقضيان نزهة جميلة في إحدى الحدائق الساحرة، فالرجل لم يكتف بغرس الأشجار، بل أنشأ حوضين للماء على جانبي الممر، والذي كان يظهر في تلك البقعة كقنطرة صغيرة تمر فوق بحيرة، وحتى يجعل تلك البحيرة المصطنعة تبدو أقرب إلى الطبيعة، قام بتزيين حواف الماء بحصى الوديان الملونة، وأطلق بعض الإوز والبط يتمتع بمياهها، حتى أن جازية توقفت هناك تتمتع بمنظر الطيور وهي تسبح بمهارة أو تسير قربها بشكل مضحك، وفكرت جديا في أن يكون

لها بركة كهذه، فهي الآن تملك المال ولن يكون إنشاؤها أمرا صعبا بالنسبة لها.

حينما اقتربا أكثر من المنزل أحسا بهيبة المكان، وأبديا احتراما لروعة العمارة وجمال التحف، وقرب باب خشبي ضغطت جازية زر الجرس وانتظرا ليفتح الباب، ولكن دون فائدة. قال حميد وقد بدأ يشعر بالإحباط: علينا أن نغادر فلابد أن الرجل خرج باكرا لأشغاله.

قد تكون محقا، ولكنني رأيت جزءا من سيارة مركونة في الساحة الخلفية، ولهذا قد لا يزال الرجل في البيت، دعني أجرب للمرة الأخيرة.

واقتربت من الزر وضغطته مرة أخرى، وحين وقفت تنتظر، أحست بأن حركة تأتي من مكان ما داخل البيت، فتبسمت وقالت: لابد أنه قادم.

وفجأة دوى صوت ارتطام كبير، فتراجعا إلى الساحة وشخصت أبصارهما ناحية النوافذ في الطوابق العليا، بدا أن الصوت يأتي من هناك. ورأت جازية حميد يخرج مسدسه، فازدادت دقات قلبها وشعرت بأن هناك خطرا ما. قالت وهي تمسك بذراعه: يا إلهي، هل تظن أن أمرا خطيرا يحدث فوق؟ وبقيت عينا حميد مركزة على النوافذ، فيما دوى صوت ارتطام آخر، اندفع حينها بسرعة نحو الباب وهو يقول: عودي إلى السيارة وسأوافيك بعد قليل.

صاحت جازية بفزع: "حميد، بالله عليك..."

ولكن حميد كان قد اختفى داخل البيت، ومن الغريب أنه فعل ذلك بكل سهولة رغم أنه كان ينوي تحطيم الباب، أما الأمر الذي لم يكن يحسب له أي حساب، فهو إطلاقه لجهاز إنذار كان مثبتا بالباب.

وقفت جازية مترددة لا تعرف ما تفعله، هل تعود إلى السيارة وتتركه هناك؟ فكرت بسرعة ثم قررت أن تدخل البيت، كان السلاح الذي سبق وأن

أخذته للقاء عمار معها، أخرجته من حقيبتها، وبيدين مرتعشتين بالكاد استطاعت أن تمسك به، كانت خطواتها إلى الداخل ثقيلة ومترددة، وأصاخت بسمعها لأي صوت غريب، ولكن لم تكن تسمع غير صوت الطيور والإوز يأتي من البركة، وحين صارت بالداخل كان المكان في غاية الروعة، لم تكن المصابيح مضاءة، ولكن نور الشمس كان كافيا لرؤية كل شيء، مساحة واسعة مكسوّة بالرخام وقطع أثاث قليلة ونادرة، لم يكن هناك أثر لحميد ولا لأي شخص آخر، وبينما هي مترددة في صعود السلم الذي ظهر كتحفة أمامها، سمعت صوت هرولة يأتي من الطابق العلوي، ثم ظهر حميد ينزل بسرعة بوجه في غاية الشحوب. خفضت مسدسها وقد استبد بها الرعب: "ماذا هناك". سحبها من ذراعها بقوة وهو لا يزال يتقدم إلى الباب. "هيا نخرج بسرعة؛ ألم أقل أن تنتظريني في السيارة؟"

حاولت أن تجاريه في سرعته وقلبها يخفق بشدة: "ما الأمر؟ ماذا وجدت هناك؟" نظر إليها دون أن يخفف من سرعته: "لقد وجدت السيد بن قوية مقتولا في فراشه. علينا أن نخرج من هنا، وبعدها نفكر فيما يجب أن نقوم به."

وقبل أن تغادر السيارة المكان، نظر حميد إلى جازية، ثم قال وهو يشير إلى زاوية أعلى البوابة: لقد تورطنا في مشكلة جديدة يا جازية. حين نظرت حيث أشار لاحظت كاميرا مراقبة لا تكاد ترى بين أوراق النباتات. كان عليهما أن يتحركا بسرعة ويتخذا قرارا في تلك اللحظة، فالوقت لم يكن في صالحهما أبدا، تمالكت جازية نفسها وقالت بنبرة هادئة: هل نتصل بالشرطة؟

نظر حميد إليها وقد نسي أمر الفرار للحظة: أنا من الشرطة، ولكن هل سيصدقنا أحد؟ لقد رصدتنا كاميرات المراقبة ندخل قبل ارتكاب الجريمة

بلحظات، لابد أن أحدا ما علم بأمر الوثائق ووصل إلى القاضي قبل أن نصل إليه، وإذا صح هذا الاحتمال فهذا يعني أمرا آخر.

بدت الدماء قد جفت من وجه جازية، فهي لم تكن في تلك اللحظة بحاجة إلى مزيد من الأخبار السيئة، ولكن كان عليها أن تعلم، فقال حميد موضحا: بما أن الوثائق لا تزال بحوزتنا فنحن كذلك في خطر.

أتقصد أن القاتل سيسعى للتخلص منا بعدما تخلص من القاضي؟

عاد حميد بمقعده قليلا إلى الخلف، وقال: إذا كان يريد أن يبقى في أمان بعيدا عن العقاب، فلابد أن يفعل.

فكرت جازية في أنّ سبتي قد يكون القاتل، فالوثائق تدينه ولا يمكن أن يبقى في أمان -كما قال حميد- إلا بالتخلص ممن يهدده. ولكن الوقت لم يكن مناسبا لمناقشة المزيد من التفاصيل، انطلقت بالسيارة بسرعة، وقبل أن تقرر الاتجاه الذي عليها أن تسلكه، تفاجأت بسيارات الشرطة تسد عليهما الطريق.

حين اقترب قائد الفرقة، أخرج حميد بطاقته وقدمها إليه معرفا بنفسه.

نظر الشرطي إلى البطاقة بسرعة، ثم أعادها إلى حميد وهو يقول: حسنا سيدي الضابط، هل يمكن أن تشرح لنا ماذا كنت تفعله في بيت السيد بن قوية؟ فقد انطلق جهاز الإنذار من البيت، ولم نتلق أي رد بعد الاتصال للتحقق من سلامة الرجل.

تردد حميد للحظة، ثم رأى أن يخبر الشرطي بما اكتشفه بالداخل. وبعدها بلحظات سمع صفارات الشرطة ثم لمح سياراتها إضافية تتقدم من الجهة الأخرى للزقاق، لم ينقبض قلبه يوما من سماع تلك الأصوات كما فعل اليوم، نظر الشرطي نحو عينيه ثم إلى جازية التي كانت بالكاد تقف على

قدميها، وقال: هذا يعقِّد الأمر أكثر سيد لعميري. أرجو أن تنتظرني هنا للحظة.

وتوجه إلى شرطي من السيارات التي قدمت للتو، تحدثا لدقيقة ثم عاد يقول: اسمع سيد لعميري، أرى أنك المشتبه الأول إن أصيب السيد بن قوية بأي سوء، ولهذا طلبت من الضابط الذي كنت أحدثه للتو، أن يعاين المكان ويحاول العثور على أدلة قد تساعد في التحقيق، فيما رأيت أن تذهب معنا أنت والسيدة للاستماع إلى شهادتكما، ومن ثمة يمكنكما المغادرة إلى أن يتم استدعاؤكما في وقت لاحق لإتمام التحقيق. ولكن قبل ذلك أود أن أحجز مسدسك لبعض الوقت إلى حين انتهاء الاستجواب، فهي مجرد إجراءات روتينية وأرجو ألا يزعجك ذلك.

أراد حميد أن يعترض، ولكنه أقنع نفسه بأنه في موضع شبهة وعليه أن يكون متعاونا، ركب إلى جوار جازية في المقعد الخلفي لسيارة الشرطة، فيما صعد المحقق مع شرطي آخر في المقدمة، وبعد انطلاق السيارة لاحظ أن سيارة أخرى للشرطة تتبعهما. قال المحقق وهو يستدير نحوهما: طلبت من الشباب أن يعتنوا بسيارتكما، لهذا لا داعي للقلق، ستكون في انتظاركما فور فراغنا من الحديث.

شعر حميد بعدم الارتياح رغم وكلمات الرجل المطمئنة، ولكنه لم يكن يدري ما هو مصدر ذلك الشعور بالضبط، وساد صمت لعدة دقائق، قال المفتش الذي عرف عن نفسه بكمال رجب: أرى أنه من المفيد أن تطلعني عن سبب وجودكما في ذلك البيت قبل أن نصل إلى القسم.

نظر حميد إلى جازية التي صارت أكثر هدوءا، وفضل ألا يطلعه على كل الحقيقة: "كنا نريد التحدث إلى القاضي بن قوية في شأن قضية أقوم

بالتحقيق فيها". قال ذلك وتمنى ألا يكون كمال رجب على علم بأمر إقفال قضية السيد بوشو، ولكنه انتبه الى أنه قد تسجل كل أقواله، وسيكون بالإمكان الاطلاع عليها فيما بعد، أحس ببعض الندم لإدلائه بهذه الحجة، ولكن ماذا كان عليه أن يقول؟ لديه أدلة تدين سبتي وشركته في التعاون مع الأجانب من أجل تدمير شركة محلية، كان هذا أيضا يمكن أن يتسبب بمشكلة أخرى، أي أن كل ما يمكن أن يقوله قد يقوده لورطة.

وفكر في أنه ما كان لأي من هذه المشاكل أن تحدث، لو لم يكن للمجرمين أذرع قوية بين من يفترض أن يكونوا حماة القانون. ونظر إلى الأسفل فلاحظ الملف لا يزال يظهر من محفظة جازية، لابد أن الشرطة ستفتشهما وتعثر عليه، حينها قد يتهما بسرقة الملف من بيت القاضي، وقد يذهب سبتي إلى المحكمة، ولكن بلا شك سيذهبان معه إلى السجن بتهمة القتل ومحاولة التخلص من أدلة مهمة.

وأغمض عينيه وتمنى ألا يتحدث إليه أحد، اختفى كل شيء، ولكنه لا يزال يحس بحركة جازية المضطربة، لم يكن نادما على المجيء معها، لأنه لم يكن يحب أن تمر بمأزق صعب كهذا لوحدها، ربما وجوده معها سيهون عليها قليلا، فقد كانت نظراتها تشي بثقتها به، وفتح عينيه ونظر إليها فبدت ملامحها جامدة كالحجر، ثم أطل من الزجاج الخلفي فلاحظ أن سيارة الشرطة الثانية لم تعد خلفهم، لم يجذب الأمر انتباهه.. وفجأة بدأ عقله يعمل بسرعة أكبر، تساءل كيف أن كمال رجب كف عن الحديث فجأة، ولكنه لم يدرك بأن الرجل سكت لأنه كان يسأل دون أن يجد مجيبا له، كان حميد شاردا كليا، فالموقف الذي كان فيه لم يكن يحسد عليه أبدا.

بعد فترة من الشرود استفاق بصدمة في مؤخرة السيارة، حين استدار لاحظ أن رجل بعضلات قوية يشير بمسدسه إلى سيارتهم بالتوقف، لابد أن سبتي قد أرسل رجاله أخيرا لأخذ الوثائق قبل أن تقع في أيدي الشرطة، أما عن سيارة الشرطة فبدل أن تتوقف، ازدادت سرعتها وتوجهت عبر طريق فرعي كثير الحفر، فكر حميد أنّ السائق قد جن ليسلك مثل هذا الطريق، وفيما كانت السيارة ترتج بين الحصى بعنف، قال الضابط كمال رجب: ابقيا منخفضين، فقد يطلق علينا النار، وأمسكت جازية ذراع حميد بقوة، حتى أنه شعر ببعض الألم ، ونظر إلى الخلف ثم سألها بصوت خافت: هل المسدس لا يزال معك؟

هزت رأسها مشيرة إلى أسفل نحو الحقيبة. وكانت الحقيبة ملقية على أرضية السيارة قرب قدمه، مال نحوها ثم سحب السلاح ببطء وأخفاه تحت ثيابه.

كانوا قد ابتعدوا قليلا عن السيارة المطاردة، ولكنها كانت لا تزال تلوح عبر الزجاج خلفهم، وظهر بالقرب منهم مستودع مهجور، كان بجواره أعمدة فولاذية ضخمة لنقل تيار الضغط العالي، أشار كمال إلى السائق أن يتوجه نحو ذلك المكان، وبعد دقيقة توقفت السيارة خلف أحد الجدران، وطلب كمال من حميد وجازية أن يتوجها إلى مكان آمن، كان الشرطيان يحملان سلاحهما وينتظران اقتراب السيارة أكثر، فلم يكن أي منهما متيقنا أن الدعم الذي طلباه سيأتي في الوقت المناسب، ويبدو أن السيارة الأخرى شعرت بالخطر فخففت من سرعتها وراحت تتقدم ببطء، راقب الشرطيان ذلك وفجأة وقف حميد بالقرب منهما يحمل مسدسا، نظر إليه كمال بدهشة وسأل: من أين حصلت على السلاح؟

نظر حميد عبر ثقب في الجدار وقال: سأوضح لك بعد الانتهاء من هذه المشكلة.

ويبدو أن المشكلة التي لم يكن يحسب لها حميد حسابا هي إظهار سلاحه أمام هذين الرجلين، فسرعان ما أشار كمال إلى زميله إشارة خفية فانسحب بخفة ناحية حميد، وفيما كان حميد يعتقد أن الشرطي سيختار موقعا جيدا لمراقبة المطارِدين، تلقى ضربة من خلفه أفقدته توازنه، اندفع بعدها كمال رجب إلى المسدس الذي في يده فسحبه منه بعنف ثم أضجعاه على الأرض. لاحظت جازية ذلك فهرولت هاربة نحو حقل مجاور، ولكن السيارة التي كانت تطاردهم تقدمت بسرعة ناحيتها، وبعد لحظات قليلة، كانت تتلوى بين أذرع رجلين قويين وهما يحملانها حيث قيد حميد قرب الجدار.

أشار كمال إلى أحد الرجال، وقال بسرعة: "الوثائق". فاتجه إلى سيارة الشرطة وأخذ المستندات فيما ألقى بالحقيبة داخل السيارة.

حين صار كل شيء تحت السيطرة، نظر كمال رجب إلى حميد وجازية، وقال وعلى وجهه ابتسامة صغيرة: لم يبق إلا أن نتخلص منكما وننتهي كليًا من هذه المشكلة.

حاول حميد الكلام، ولكن سرعان ما وضع أحدهم حول فمه شريط لاصق، قال كمال: لا داعي إلى طرح الأسئلة فأنا من سيشرح لك. أولا أود أن أقول أن توريطكما في جريمة القتل كان مخططا له منذ البداية، فأنا من قام بإرسال الوثائق عبر ذلك الشاب الذي يدعى عمار، وأشرت على السيدة أن تسلمها إلى القاضي بن قوية، وهنا أوضح أن الوثائق كانت صحيحة مائة بالمائة، أي بالمختصر المفيد: كان عمار محقا في كل ما قاله عن الوثائق وعن

السيد بن قوية، ولو وصلت إلى يدي القاضي واستطاع أن يستعملها، فهذا سيشكل مشكلة حقيقية بالنسبة للمدعو سبتي، وحرصا منا على عدم حدوث ما كنتما ترجوانه، قمنا بمراقبتكما بشكل جيد، وبدأت تحركاتنا مباشرة بعد انطلاقكما للقاء القاضي، وبمجرد دخولكما إلى المنزل قمنا بقتله، ثم تبسم مرة أخرى سرورا بنجاح خطته بشكل رائع، وأضاف كمن نسي شيئا: وصاحب الدراجة كنت أنا من أرسلته ليحثكما على الدخول، فلو أنكما ابتعدتما، فسيضيع كل شيء أدراج الرياح، وبهذا نكون قد تخلصنا نهائيا من ذلك القاضي محب المشاكل، ونكون قد ورطنا جازية في مقتله، ولن يكون لك حتى القدرة على الدفاع عن نفسك سيدتي، فبعد قتلك سنخفي جثتك ونسجل اسمك على رحلة نحو أوربا، ثم نشيع أنك هربت من العقاب، ما رأيك؟

ولم تكن جازية لتجيب، فقد كانت مكمّمة الفم هي الأخرى، ولهذا أضاف الرجل: نسيت أن أخبرك أنني أرسلت من يحضر النسخ الإضافية لهذه الوثائق من الفندق الذي كنت تقيمين فيه.

اتسعت عينا جازية وأرادت أن تصرخ ولكن بلا فائدة. وكان للرجل مزيدا مما كان يود قوله: "بعد إدانتك كليا ستكون شركة بوشو من غير مالك مجددا، وسنقوم بتصفيتها كما فعلنا بشركة لاكريب بالضبط".

نظر حميد من حوله فأيقن أنه حتى الموقع قد اختير بدقة، فقد كانوا بمنطقة منخفضة تحيط بها الروابي، وحتى السيارات المارة على الطريق العام، لم يكن لها أن ترى شيئا، فالمكان كان يختفي خلف مرتفع هائل من الأرض، كما كانت على جانبي الطريق، أشجار الصنوبر تصطف مع أشجار الزيتون لحجب الرؤية.

وقف أحد الرجال بالقرب منهما فيما اجتمع البقية قرب السيارة القولف 'Gulf' التي كانت تدعي مطاردتهم، وفيما كان يحدق حميد إلى الرجال وينتظر مصيرهما المحتوم، سقط أحدهم بالقرب منهما دون سابق إنذار، ظن أن الرجل أصيب بإغماء، ولكنه تفطن أن ثقبا دقيقا كان لا يزال ينزف في منتصف جبهته، وعيناه شاخصتان إلى السماء، أثار منظره المروع فزع جازية فأغمضت عينيها وأشاحت ببصرها بعيدا عنه، وفي أقل من نصف دقيقة كان بقية الرجال على الأرض جثثا هامدة من دون حراك.

نظر حميد إلى جازية ثم بدأ يحرك يديه ليتحرر من الحبال دون فائدة، وكان ثلاثة رجال بزي موحد، يشبه زي رجال التدخل السريع، ينزلون بسرعة الربوة المقابلة، كانوا يعلقون بنادق على أكتافهم ويتوجهون بسرعة نحوهم. حين وصلوا أخرج أحدهم سكينا كبيرا وقطع الحبل الذي يلف أقدامهما، وبدل أن يحرر أيديهما وينزع الشريط اللاصق، دس السكين في غمد معلق بحزامه، وأخرج قطعتي قماش، أعطى إحداهما لزميله فيما توجه بالثاني ليعصب به عيني حميد دون أن ينطق أيا منهم بكلمة واحدة، اقتيد حميد إلى إحدى السيارات التي تقدمت ناحيتهم، وحين صعد أحس أن جازية لم تكن معه في السيارة نفسها، ولذلك ازدادت دقات قلبه وشعر بقلق متزايد عليها، وقبل أن تنطلق السيارة سمع لأول مرة حديثا لم يتبينه يجري بين الرجال في الخارج ، ثم بعد مسافة سير قصيرة سُحب خارج السيارة ونقل إلى سيارة أخرى بدت مرتفعة عن الأولى، أما جازية فقد كان متأكدا هذه المرة أنها ليست معه. سارت السيارة دون أن يعلم أين تتجه، فتذكر بسرعة الرحلة التي قضاها معصوب العينين قبل أسبوع فقط، فتساءل هذه المرة بصدق إن كان قد أحسن حقا حين اختار مهنة التحقيق الجنائي؟؟

في غرفة واسعة يغطيها سجاد فاخر، يجلس عجوز في عقده السابع على أريكة قرب الموقد، كان يراقب ألسنة اللهب تلتهم الحطب في نهم، ويحمل في يده رواية 'RECKONING THE' لجون غريشام 'John Grisham' دون أن يقرأ منها سطرا، كان يبدو وكأنه ينتظر أحدا، يرتدي بدلة سوداء تبدو من حرير مع ربطة عنق زرقاء، طُرق الباب ثم دخل رجل أصلع قوي البنية، وقال: لقد وصلا سيدي.

أشار بإدخالهما ثم وضع الكتاب على منضدة صغيرة قربه واعتدل، عندما فتح الباب مجددا دخل رجل آخر بحجم الرجل الأول مع حميد وجازية، كانا من دون قيود، ولكن عينيهما لا تزالان معصبتين، أزال عنهما قطعتي القماش وقادهما نحو الأرائك بالقرب من العجوز. غادر الرجل فيما أشار العجوز لهما بالجلوس، ثم قال: آسف لإحضاركما بهذه الطريقة، فهي إجراءات فقط من أجل حماية الخصوصية.

كانت جازية أول من تساءلت: من أنت وماذا تريد؟

نظر العجوز إلى وجهها المزدان بحمرة كانت تنساب من الموقد بلطف، وقال برقة: لقد كبرت كثيرا يا كوثر، لنقل أنني حارسك الأمين، أو إن شئت درعك الواقي.

أظن أنك تعلم أن اسمي جازية وليس كوثر.

إذن فسعدي لم يخبرك أن اسمك الذي سماك به والداك هو كوثر. ازداد وجهها احمرارا، وتمنت لو تستطيع حينها أن تصيح بكل ما أوتيت من قوة،

أي وهم كانت تعيش فيه؟ كادت تصاب بانهيار، ولكنها صارت تملك مناعة كافية ضد الصدمات: "من أنت ومن أين تعرف والدي؟"
رفع يده وقال بصوت هادئ: على رسلك يا ابنتي، ستعرفين كل شيء قريبا، فلا داعي لكل هذا الانفعال.
وهدأت جازية أخيرا، فيما كان يفكر حميد أن ما يحدث أمامه أشبه بحديث عائلي، ولا يجب عليه التدخل. أحس العجوز بأنه سيطر على الوضع أخيرا، فوضع رجله اليمنى على الأخرى، وقال: دعيني أعرف بنفسي أولا، وإن كنت لا أحب ذكر الأسماء كثيرا حفاظا على المبدأ نفسه الذي أخبرتك به فور دخولك، إلا أنه يمكنك مناداتي بأحمد دردور، ولعلك استنتجت أنني صديق ولست عدوا، فقد كنت أكثر المقربين إلى والدك رحمه الله.
قاطعته جازية بعد أن أدركت حجم نفوذه وقوته: ولماذا لم تساعد والدي في محنته في ذلك الوقت؟
وضع كلتا رجليه على الأرض ثم أخذ نفسا عميقا قبل أن يقول: من الصعب أن أشرح لك كل شيء دفعة واحدة، ولكن كوني على يقين بأنني لم أدّخر أي جهد في مساعدة والدك، وحمايتك أنت ووالدتك.
شعرت جازية بدقات قلبها تزداد مجددا، ثم قالت بنبرة تشبه المحقق الصحفي: لم لا نبدأ من البداية سيد دردور؟
هز الرجل رأسه وقال موافقا: هذا جيد، فسرد الأحداث من أولها يساعدني على تذكر بعض الذكريات. وفتح الباب ودخل أحد الحراس الشخصيين وهو يحمل صينية بها بعض الأواني المخصصة لشرب الشاي، وضعها على طاولة كانت خلفهما ثم سحب طاولة أخرى من تحتها أصغر حجما، ووضعها بالقرب منهم، ثم عاد مرة أخرى وحمل الصينية ليضعها فوق الطاولة

الصغيرة، نظر السيد دردور إلى الشاي وقال: احتساء الشاي عادة انجليزية صارت جزءا من يومياتي، أنصحكما بتناوله فإنه مفيد في مثل هذا الجو.

لم يكن حميد وجازية في حاجة لاحتساء شيء بقدر حاجتهما لسماع الرجل، قالت جازية: سيد دردور، أرجوك أخبرني بما حصل.

اعتدل أحمد دردور في مقعده، ثم ركز نظره على جازية مجددا: "أعلم أنك اكتشفت الكثير من أسرار الماضي، ولكن لست متيقنا إلى أي مدى تبلورت لك الحقيقة، لهذا سأبدأ من البداية كما أشرت من قبل، فوالدك كان صاحب شركة ناجحة، وبالطبع للنجاح أعداء كثر، ولسوء حظ والدك، كان أعداؤه ذوي قوة ليس من السهل التغلب عليها، وأقصد هنا بلوبي فرنسي قوي في الجزائر يقوده أصحاب المصالح وبعض الشركات الخاصة، واستمرار شركة لاكريب في النجاح كان سيدمر بعض هذه المصالح، ويحرر البلاد من التبعية للأجانب، فقد كان والدك متخصص في الالكترونيات والتكنولوجيا الحديثة، ولكن كانت له رؤية للكثير من المجالات الحساسة، كانت له خطة تنموية شاملة، ولهذا فقد وجد نفسه وجها لوجه مع هؤلاء الأشخاص، وبالرغم من أنه كان يتحاشى الاصطدام بأحد، إلا أنه تعرض لحملات مغرضة لتشويه سمعته عبر وسائل الإعلام، مما ألّب الرأي العام ضده، وقد تسبب ذلك في خسائر كبيرة للشركة".

سألت جازية: وما شأن شركة ألجي إلكترونيك بكل ذلك.

واصل الرجل كأنه في مقابلة تلفزيونية: "شركة الجيكت". هذا ما كنا نسميها كنوع من الاختصار والدعابة، كانت الواجهة فقط التي اعتمد عليها ذلك اللوبي في الهجوم على الشركة، فهي وإن كانت تعمل في المجال نفسه، ومن مصلحتها ضعف شركة لاكريب، إلا أنه -وكما أشارت إليه الوثائق التي

حصلتم عليها- هناك رشاو فاقت ملايين الفرنكات الفرنسية في ذلك الوقت، لقاء لعب ذلك الدور القذر الذي أسند لها.

قام والدك بعدها بمحاولات يائسة لصد هؤلاء الناس، أو محاولة كشف بعض الفساد في شركة الجيكت ولكن بلا فائدة.

وحين سكت ليسترجع بعض أنفاسه، قال حميد محاولا أن يختصر عليه الحديث: وبعد مقتله تلاعب كل من رضا بوشو وعلي سعدي بأملاك الشركة، فنهبت ليعيشوا هم كالملوك على أنقاذ أملاك الرجل.

ونظر إلى جازية فظلت صامتة وكأنها توافقه الرأي، إلا أن السيد دردور قال موضحا: أعلم كذلك أنك قمت بالكثير من الجهد في التحقيق لكشف ماضي كل من شركتي لاكريب وبوشو، إلا أن الحقيقة مخالفة تماما لما وصلت إليه، وما يعتقده أغلب من له اطلاع على القضية. فالسيد شابي قبل مقتله كما أشرت، وعلى خلاف ما هو مدون عند الشرطة بأنه مات ميتة طبيعية، كان قد تلقى عدة تهديدات بتصفيته وتصفية عائلته بعد اكتشافه تلاعبات بأملاك عمومية واطلاعه على بعض الأسماء المتورطة، وبالرغم من أنه لم يكن يخشى على نفسه، إلا أنه أصيب بالذعر حين فكر فيما يمكن أن يصيبك أنت وأمك بسببه، بحث عن طريقة يبقيكما بأمان إلى أن وصل لفكرة كانت جد قاسية ولكنه رأى أنها عملية إلى أبعد الحدود.

ازداد فضول جازية لمعرفة المزيد عن حياتها، فازدردت ريقها بصعوبة كما لاحظ حميد أن يديها صارتا ترتعشان حتى دون أن تشعر بهما، وتمنى من أعماقه لو كان أكثر قربا منها فيأخذ بيدها لعلها تهدأ قليلا. ولكن السيد دردور عاد ليروي أكثر الأحداث جنونا. قال وهو يمد يديه حتى وصلتا طرف ذراع الأريكة: طلب مني محمد شابي أن ألتقي بزوجته وأقنعها بأن الأعمال

التي يقوم بها لها صلة بالمافيا والتزوير وحتى القتل، فاعتمدت على الأكاذيب التي كان يروجها سبتي عن شركة لاكريب لإقناعها بذلك، وأريتها ما دوّن على صفحات الجرائد، وبعض الوثائق المزورة التي تدينه في جرائم عدة، كما بالغت في تشويه صورة والدك عندها حتى كادت تصاب بانهيار، وبعد ذلك أقنعتها بضرورة الهرب من أجل مستقبل ابنتها، واقترحت عليها أن أساعدها في تغيير هويتهما حتى لا يعثر عليهما هو أو أي أحد قد يلحق بهما الأذى، فوافقت بصعوبة كبيرة، ومنذ ذلك الوقت وأنا أرعى مصالحك حتى بعد وفاة أمك، فكنت أرسل لخالتك رحمة كل شهر مبلغا لتنفق عليك دون أن تحتاجي إلى شيء.

علقت جازية بحزن بالغ: أشيع أن والدتي ارتكبت خطيئة، وهذا ما حزّ في نفسي كثيرا.

أرخى أحمد دردور ربطة عنه قليلا، فقد صارت حرارة الحديث والموقد تشعرانه بالاختناق ثم قال: ذلك جزء من الثمن الذي كان لابد من دفعه يا ابنتي من أجل حمايتك، وللأسف لم يكن ذلك هو الثمن الوحيد، فقد اضطررتم للعيش في ذلك الكوخ الحقير حتى لا يشك فيكما أحد، وحرمت من حنان الأب طوال حياتك، والأسوأ من ذلك هو وفاة والدتك الذي ربما حدث بسبب ما جرى.

ثم صمت وكأنه ندم على الاعتراف الأخير، ولكنه قد قالها ولا سبيل للتراجع: "لحسن الحظ أن والدك مات قبلها، وإلا لما كان ليسامح نفسه أبدا، كان سيحمل عقدة الذنب معه طوال حياته".

ثم أضاف مدافعا على قرار صديقه بنبرة أكثر حرارة: ولكن لم يكن بيده حيلة، كان لابد أن يفعل شيئا لحماية أسرته.

ونظر إلى جازية التي كانت الدموع تبلل عينيها، انتظر بعزاء أن تنطق بكلمة الصفح عن والدها، لعله يتحرر هو أيضا من عقدة الذنب، ولكن جازية قالت بحدة: كان بإمكانه أن يخبرها بما حدث فتختفي قليلا حتى تهدأ الأمور. تقولين ذلك لأنك لا تعرفين أمك جيدا، فما هي بالمرأة التي تترك زوجها وحيدا وقت الصعاب، كان لابد أن تتحطم صورته كليا في وجهها حتى تتركه، وهذا ما قمت به، كما أن الظروف ما كانت لتهدأ بل كانت تتدحرج نحو الهاوية.

أصرت جازية على البحث عن حلول بديلة أقل قسوة: "كان يمكنه السفر"، ولكن دردور شرح لها بدقة عدم إمكانية السفر بسبب عناد والديها واستعداد الخصوم للتحرك إذا ما تم ذلك، فهو احتمال وارد ولا يمكن أن يغيب على ذهن أحد. وأخيرا عاد الهدوء للقاعة ولم يعد يسمع غير صوت أنين الخشب تحت أنياب اللهب.

نزع السيد دردور ربطة عنقه وطرحها أمامه على الأريكة، ثم سقى لنفسه كأس ماء، وراح يشرب والعرق ينساب من جبينه وكأنه خرج من معركة، لم يكن لقاؤه مع تلك الطفلة بعد كل تلك السنوات أمرا سهلا، كان يشاهدها تكبر أمام عينيه عاما بعد عام دون أن يجرأ على الحديث معها أو الاطمئنان عليها، كانت بمثابة ابنة حقيقية له، وجزءا من شخص يكنُّ له كل المحبة والتقدير، كانت جازية كل ما بقي من صديقه محمد شابي، كما أن اعتناءه بها طوال تلك السنين بالمال والحماية لم يكن تنفيذا لوصية صديقه فحسب، وإنما تكفيرا عن الذنب الذي لا يكف عن ملاحقته، كان يشعر بأنه من تسبب في موت والدتها، فقد بالغ كثيرا في تدمير صورة الرجل الذي أحبته أمام عينيها، ولابد أنها لم تحتمل ذلك، وخطر له تساؤل لم يكن قد

فكر به من قبل، فلو أن الزمن رجع به إلى الوراء، فهل كان سيوافق صديقه على خطته؟ في الحقيقة لم تكن له إجابة مقنعة عن ذلك السؤال.
وانتظر حميد وجازية في صمت حتى استرجع الرجل أنفاسه مرة أخرى، ثم سأل حميد: وماذا عن نهب شركة لاكريب؟ أظن أنه كانت الأدلة واضحة على تصفية الشركة طوال سنتين وليس في يوم أو في ليلة، ولا أظن أنه قد خفي عليك ولا حتى على القاضي بن قوية ذلك، فما هي الأسباب التي دفعتكما لعدم التحرك؟
أشار أحمد دردور إلى حميد بأصبعه المرتعش بفعل الزمن وأجاب: سؤال جيد مرة أخرى، ولكن أظن أنك قد اكتسبت بعض الخبرة لتدرك أن الأمور في حقيقتها على خلاف ما تبدو عليه، فسبق وأن أخبرتك أن شركة لاكريب تعرضت لحملات شرسة من أجل إضعافها، فاتهمت بدعم الإرهاب والفساد وما إلى ذلك، كما تعرض السيد محمد شابي رحمه الله إلى تهديد بالتصفية الجسدية وبتصفية أسرته، وهذا أوصله لنتيجة واضحة، وهي العمل بسرعة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. كان عليه أن ينقذ أولا أسرته، وقد شرحت لكم كيف فعل ذلك، وما هو الثمن الذي دفعه الجميع لقاءه، أما الشركة فلم يكن قرار حمايتها بأسهل من ذلك أيضا، وبحكم أنه كان يفضل أن يضحي بما يحب من أجل حمايته، فقد ضحى كذلك بالشركة من أجل حمايتها.
ونظر دردور إلى الشخصين المنتصبين أمامه في تركيز تام كأنهما من جماد، ثم أضاف: أي أن كل ما اعتقده الناس أنه تصفية للشركة كان جزءا من حمايتها، وحتى يسهل لي شرح ذلك، أود أن أوضح أنه قد أوكلت لي مهمة حماية الأسرة، فيما أوكل للسيد رضا بوشو حماية الشركة.

قاطعه حميد غير مصدق: عن طريق تدمير الشركة.

أجل، فالشركة كانت قد انتهت فعلا حتى قبل وفاة السيد شابي، ولهذا أوكل للسيد بوشو أن يطلق عليها رصاصة الرحمة موهما خصومه بأنها انتهت من دون رجعة، ولكن السيد بوشو كان قد أعاد إحياءها من جديد باسمه حتى لا تثار الشكوك، ومن ثمة إعادة تدوينها باسم ابنته بطريقة لا تثير التساؤلات.

قالت جازية: ولهذا قام بالزواج بي؟

هذا صحيح، ولكنني لم أكن موافقا على هذا الزواج، فأنا كنت بطريقة ما كفيلك بعد وفاة والدك، وكنت أود أن تعيشي مثل بقية الفتيات، تتزوجين شابا تختارينه بنفسك، وسنجد بالتأكيد بعد ذلك طريقة أخرى لإعادة أموال والدك إليك، ولكن بوشو عصى أمري وفعل ما فعل. إلا أنه كان ينوي تطليقك بعد أن يكتب كل الممتلكات باسمك.

ومتى كان ينوي فعل ذلك؟ تساءلت جازية.

في الأيام القليلة قبل وفاته.

نظر حميد إلى جازية وقال مجيبا عن تساؤل سابق: ربما هذا ما يوضح تصرفاته العدوانية، فقد كان ينوي أن يعطي سببا للطلاق، كان يريد أن يدفعك لأن تكرهيه مثلما فعل والدك مع أمك، فتتقبلي فكرة الطلاق بشكل أقل قسوة.

وضعت جازية يدها لتغطي وجهها، وقالت بصوت منكسر: يا إلهي لماذا يحصل لي كل هذا؟

حمل دردور كتاب جون غراشام ولوح به نحوها: ما عشته وأسرتك ليس أقل غرابة مما هو مدون في هذا الكتاب، ولكن الفرق بين القصص والواقع أن القصص نستمتع بقراءتها، فيما الحياة شيء مغاير لذلك تماما.

مسحت جازية عينيها، وقد أحست بالارتياح حين علمت أن زوجها لم يكن متورطا في خيانة والدها: أخبرني سيد دردور، أتعلم من قتله، أعني رضا، لماذا قتل؟

وضع دردور الكتاب مجددا على الأريكة، وقال: أما عن مقتله فلست متيقنا من شيء، قد يكون سعدي، أو أحد أعضاء اللوبي الفرنسي، أو أي شخص آخر، فبعد أن خالف نصائحي وتزوجك، فترت العلاقة بيننا ولم أعد اتصل به أو يتصل بي، كان الأمر الوحيد الذي أعلمه أنه كان سيطلقك حتى تستطيعي العيش مع رجل يمكنك أن تنجبي منه الأولاد، فقد كان عقيما، ولهذا فارقته زوجته الأولى.

سأل حميد هو الآخر: ولماذا تعتقد أن سعدي يمكن أن يقتله؟ ألم يكونا جد مقربين إلى بعضهما؟

كان دردور على اطلاع دقيق بكل ما وصل إليه التحقيق الخاص بمقتل بوشو، ولهذا كان على علم بما يعرفه وما لا يعرفه ذلك المحقق المبتدئ الذي يجلس أمامه: "أظنك قد وقفت بنفسك عن الابتزاز الذي مارسه سعدي على بوشو، وتهديده بفضح الوثائق التي ظن أنها ستورطه، وذلك إن لم يعقد معه صفقة تنعش مؤسسته الصغيرة وتحميها من الانهيار، وهذا يعني أن من كان يعلم بخطة حماية الشركة ثلاثة فقط، السيد شابي وأنا وبوشو، أما سعدي فلم يكن يحظى بالثقة الكافية من الجميع، ولكن بحكم عمله المتعلق بالجانب القانوني فقد كان لزاما على شولي إسكاته ببعض

المال حينئذ، بيد أن الرجل كان جشعا وظل يطالب بالمزيد ملوحا في كل مرة بكشف أسرار التصفية، ولأن تلك الوثائق كانت تورطه أيضا، باعتبار أنه كان شريكا في المؤامرة المصطنعة، فلم يسع بوشو للحصول عليها كما فعل العميل الذي قمت بتأجيره يا ابنتي، لأنه وباختصار شديد لن يقوم بتسليمها لأحد.

ونظر أحمد دردور إلى صينية الشاي، ثم قال: أرى أنكما لم تتناولا الشاي لحد الآن. وانحنى إلى الأمام ليملأ ثلاثة كؤوس: "أنصحكما بتذوقه فقد أعد بطريقة أهل تيميمون".

وقدم لهما كأسين وقال: يمكنكما أن تضيفا له بعض العسل الطبيعي إن شئتما.

أخذ حميد كأسا من يد الرجل شاكرا، ثم قال وهو منشغل بإضافة بعض أوراق النعناع الأخضر: ألا تعتقد أن سبتي هو القاتل؟ فلا شك أنه قتل بوشو ثم القاضي بن قوية، وبعد ذلك حاول قتلي وجازية.

ضحك دردور حتى ظهر سنه الذهبي، ثم ارتشف من كأسه وقال: وهل كنت تعتقد حقا أن سبتي هو من كان وراء محاولة قتلكما؟ فالرجل لم يكن ليغامر بأوراق تدينه في خطة قد لا تنجح أبدا، فهو قد تورط فيما مضى في انهيار شركة لاكريب، وانتهى دوره بقبض أتعابه، ولكن ما لم يكن يحسب له حسابا حينها، أن الدور سيأتي عليه في يوم من الأيام، وها قد جاء ذلك اليوم، خاصة حين توسعت شركته وصارت هي الأخرى قادرة على المنافسة. وبتقديمنا ملف تورطه في الفساد والعمالة للعدالة، سنكون قد قدمنا خدمة لهؤلاء الناس، ولن يكون لهم أن يقلقوا على كشف هويتهم لأن العقود التي أُبرمت حينها كانت تشير إلى شركة فرنسية وهمية، ولكن لا أحد

سيتفطن لذلك، لأنها كانت شركة حقيقية في تلك الحقبة، أو على الأقل كانت كذلك على الورق، ودورها الحقيقي كان الوقوف كالواجهة لأعمال أصحابها المشبوهة، غير أن ما أعتقده الآن هو أن هناك من يعرف جيدا تاريخ تلك الشركة، وهو يحاول الاستفادة منه لأهداف خاصة، ولن أتفاجأ أبدا إن كان علي سعدي من يفعل ذلك.

وهل ستقدم الوثائق التي تدين سبتي للعدالة؟

أجل، حتى يكون عبرة لردع أمثاله.

قال حميد في حيرة: لا أصدق أننا وصلنا إلى كل هذه الحقائق، ولم نكتشف قاتل السيد بوشو بعد.

فضل دردور عدم التعليق على هذا السؤال، فقد كانت له نظريات في هذا الشأن، إلا أنه آثر الاحتفاظ بها لنفسه. وبدت جازية شاردة، ثم قالت كأنها تحدث نفسها: إن كان سعدي غير مشارك في خطتك وبوشو مع والدي فكيف علم بهويتي الحقيقية؟

أحس دردور بارتياح أكبر، بعد أن فكر أنه قد أخبر البنت بجل ما تود سماعه، وبذلك يكون قد أدى واجبه: لقد كان سعدي ذكيا أيضا، واستطاعت تحرياته أن تقوده إليك، ويبدو أنه ندم على كونه سببا في زواجك ببوشو، حين علم أن الرجل سيكتب كل ثروتك باسمك.

فكر حميد في أنه قد يكون هذا هو الدافع إلى الجريمة، ولكنه لم يكن متأكدا إلى اللحظة بأن سعدي هو القاتل. كان كل شيء لا يزال مشوشا في ذهنه بشأن تلك الجريمة وكأنه استلمها للتو.

سكت الجميع حتى ظن حميد وجازية أنه لم يعد هناك ما يمكن أن يتحدثوا عنه، وفكرت جازية في الانصراف إلا أن أحمد دردور قال مجددا: هناك

شيء في غاية الأهمية لم نتحدث عنه. وحين حظي بالاهتمام عاد إلى القول: لا تنسيا أنكما متورطان في جريمة قتل.
وتفحص وجهيهما اللذين تغيرا بسرعة إلى مزيج من العبوس والقلق، ولكنه استدرك مطمئنا: لا داعي للقلق...
وقبل أن يكمل أنير مصباح أحمر صغير أعلى الحجرة مصدرا صوتا كالصافرة، نظر إليه دردور وتغيرت ملامحه فجأة إلى لون شاحب، قام من مكانه بسرعة وتوجه نحو المدفأة، دس يده في مكان ما فوقها، ثم سحب مسدسا وأشار إليهما أن يتبعاه، وقبل أن يخطو خطوة واحدة، سمع إطلاق نار في الخارج، وبعدها فتح باب الحجرة وظهر أحد الحراس: "عليك أن تختبئ سيدي بأسرع وقت".
لم يستفسر العجوز عما يحدث، وكأنه كان يتوقع هذه اللحظة من قبل. توجه مع حميد وجازية حيث كان الحارس يعالج جهازا بيده، وفجأة انفرج جزء من الجدار، ثم عاد إلى مكانه بعد أن دخل الجميع خلفه، أنير مصباح كشف عن غرفة صغيرة كانت بها خزانه أسلحة متنوعة، وشاشة متوسطة الحجم على الجدار، ضغط الحارس زر آلة التحكم فأنيرت الشاشة وظهرت القاعة التي كانوا يجلسون بها، كانت هناك كاميرا مراقبة مخفية تظهر لهم كل ما يحدث فيها، قال دردور رغبة في أن يشعرهما بالطمأنينة: نستطيع أن نشاهد ونسمع ما يحدث في الخارج دون أن يتفطن إلى وجودنا أحد، فالغرفة عازلة للصوت، كما أن جدرانها غير قابلة للاختراق.
وكانوا بالفعل يسمعون أصوات طلقات تأتي من الخارج، ولكن كانت القاعة لا تزال فارغة، تفحص الحارس سلاحا بماسورة طويلة، ثم ثبت كاتم صوت على الفوهة، كما تحقق من خزان الذخيرة والمنظار الملحق بها، وبعد ذلك

أزاح صندوق الأسلحة الثقيل بجهد حتى لامس ركنه زاوية الحجرة، فظهر خلفه باب صغير أسفل الجدار، كان من غير الممكن المرور عبره إلا إذا نزل على ركبتيه ويديه، اختفى الحارس بسرعة خلف الباب فيما كان السيد دردور لا يزال يراقب الشاشة في هدوء مطَمْئن. مرت خمس دقائق على ذلك الحال إلى أن ظهر رجلان عبر الشاشة، لم يكن أحمد دردور في حاجة ليشرح حتى يعرّف الشابين أنهما من المهاجمين، كانا يضعان أقنعة ويصوبان أسلحتهما في كل اتجاه، حين أدركا أن الغرفة فارغة أخذا يتفقدان الأثاث ويتحسسان الجدران، ووصل أحدهما حيث كانوا يجلسون فرفع كوب الشاي واختبر حرارته، ثم رفع كتاب جون غريشام، نظر إلى الغلاف الخارجي للحظة ثم قذف به ناحية المدفأة، كان على يقين أن دردور مختبئ في مكان ما ولكن لا يعلم أين، بدا أنه قد خطرت له فكرة، فأطلق النار بشكل عشوائي في أجزاء مختلفة من الغرفة، حتى أنه رفع السجاد وتفقد إن كان أي باب سري خلفه، كان يبدو عليه أنه على علم بأساليب دردور في الاختباء، وفجأة وفي لحظة واحدة سقط الرجلان ميتين على البساط، تذكر حميد ما حدث لأفراد الشرطة المزيفين من قبل، وساد بعدها هدوء أظهر انتهاء المعركة، أنير مصباح أخضر، وظهرت مجموعة أخرى من الرجال المسلحين عبر الشاشة، وكذلك ودون أن يشعر أحد، ظهر الحارس مجددا بالقرب منهم.

ضغط زرا آخر قرب زر الإضاءة، فأزيح الجدار الذي كان من الفولاذ العازل للرصاص، والذي طلي بشكل يجعله يبدو جزءا من الغرفة، قال أحمد دردور حين صار وسط رجاله: أخرجوا الجثث وأمنوا بقية المناطق.

وحين خرج الجميع، توجه إلى المدفأة وحمل الكتاب الذي كان جزء منه قد اصفرّ وتآكل بفعل الحرارة، وقال بحنق: الحقير. ونفض بعض الرماد عليه ثم أغلقه، فقد كان رغم ذلك لا يزال يصلح للقراءة وقال: صدرت أول طبعة له في أمريكا قبل أقل من أسبوعين، وأرسلت لي هذه النسخة منذ ثلاثة أيام، أحب قراءة الكتب التي تصدر لتوها. ثم جالت عيناه الصغيرتان فيما حل بالقاعة من خراب وقال مجددا: لم يعد هذا المكان يصلح للجلوس فلنتوجه إلى مكان آخر.

وانتقل بهم عبر رواق واسع إلى غرفة أخرى أشبه بمكتبة صغيرة. تفقد دردور الغرفة كما فعل من قبل، وحمد الله في نفسه أنها لم تصب بأي أذى، فقد كان المكان الذي يقضي فيها الساعات والساعات وهو مع كتبه، قال مزيلا الوهم الذي افترض أنهما وقعا فيه، لدي مكتبة كبيرة في الطابق السفلي، ولكن هذه فقط مجموعة الكتب التي قرأتها للتو أو أنوي الشروع في مطالعتها قريبا.

وحدقت جازية وحميد في الغرفة، فلم يصدق أي منهما كيف لهذا الرجل الصبر على قراءة كل تلك الكتب، كان عددها يفوق مائتي كتاب موضوعة على رفين متقابلين، ومكتب يتوسطهما عليه مصباح مثبت على السطح، جهاز حاسوب محمول وكتابين، كما كانت هناك أريكة طويلة كان يستخدمها أحيانا للتمدد حين يحس بإعياء من كثرة الجلوس، أو كان يستقبل بها الضيوف كما يفعل الآن، لاحظ حميد أيضا أن معظم العناوين كانت باللغتين الفرنسية والانجليزية، وبالكاد استطاع أن يرى حرفا عربيا على أحد الكتب، وكان مكتوبا عليه ديوان المتنبي، تبسم وقال في نفسه: كتاب يتيم.

ويبدو أن دردور قد أدرك ما في نفسه فقال معلقا: كتاب واحد يعدل مكتبة. ثم أضاف وهو يدعوهما للجلوس على الأريكة: لا أظن أن أحدا يجهل أبا الطيب المتنبي، فقد كان شاعرا معتدا بنفسه إلى أبعد حد، إلا أنني أقر له بحقه في الفخر بأشعاره، وربما حتى أرضي غروره، فقد جعلت كتابه الوحيد في هذه الغرفة مع كل هذه الكتب الأجنبية.

كان يتحدث وكأن شيئا لم يحدث، ولو لم يكونا معه لما صدق أحد أن معركة وقعت للتو في بيته، مات فيها رجال وكادت تزهق روحه، كان هو المستهدف بلا شك، ولكن كيف وصلوا إليه، تساءل حميد في نفسه، فالرجل يحيط نفسه بجدران من الخصوصية كما يسميها هو، لابد أنهم عثروا عليه بعد تتبع أثرهما عند قدومهما إلى هنا.

ودخل أحد الرجال بعد طرقة واحدة، ودون أن ينتظر الإذن، انحنى نحو الرجل وأخبر بأمر ما بصوت أشبه بالهمس ثم انصرف. رفع دردور رأسه لتلك الوجوه الحائرة وراح يتحدث: لقد رأيتم قبل دقائق فقط أنه حتى أنا لست بعيدا عن الخطر، فالأشخاص الذين يهددون حياتنا على علم بطريقة ما بكل الحقائق التي سبق وأن أخبرتكما بها، ومهما كانت غايتهم اليوم فعلينا أن نكون على حذر وأن نعمل كفريق واحد، لذلك كل ما أنصحكما به هو توخي الحذر وعدم التدخل مرة أخرى، فأنا من سيتولى كل شيء.

قالت جازية: أتقصد أنه يمكننا العودة إلى حياتنا الطبيعية دون أية مشاكل.

قد تحدث المشاكل من حين إلى آخر، فهذا أمر لا يمكن التنبؤ به، ولكن سنعمل على معالجتها بأسرع وقت.

وماذا عن جريمة القتل؟ هل تضمن عدم مطاردة الشرطة لنا؟

يمكنكما أن تكونا مطمئنين من هذه الناحية، وقام من مكانه معلنا نهاية المقابلة، ولكن حميد كان يبدو في حيرة من أمر آخر: "إذا كنت على علم بتحركاتنا وتحركات هؤلاء الرجال، فلماذا لم تنقذ السيد بن قوية أيضا؟"

تبسم أحمد دردور وسأل هو الآخر: هل رأيت وجه الجثة؟

فكر حميد بسرعة ثم أجاب بالنفي.

إذن فكن على يقين أن السيد بن قوية في مكان ما الآن يدرس الملف الذي حصلتما عليه، أما الجثة التي رأيتها فهي للمهاجم نفسه الذي سبقكما إلى البيت، ولكن لسوء حظه، فقد وجد بدل القاضي من تولى أمره. وبعد مغادرتكما تولينا أمر من بقي من الشرطة المزيفين وقمنا بمحو جميع آثار الجثث وتسجيلات كاميرات المراقبة، فعاد البيت وكأن شيئا لم يحدث به. ولكن قبل أن تغادرا أريد أن أضيف شيئا آخر. عليكما الخروج بالطريقة نفسها التي دخلتما بها، حفاظا على الخصوصية كما أخبرتكما من قبل.

24

عاد كل من حميد وجازية لحياته الطبيعية، وكما وعد السيد دردور بالضبط، فلم تكن هناك أية متابعات جنائية، كانت الحياة هادئة وكأن شيئا لم يحدث بالفعل، ولكن حدث تغير بسيط من جانب حميد، فحين عودته للعمل اكتشف أنه حوّل من العمل الميداني إلى العمل المكتبي، صارت تطبع على يومياته شيء من الرتابة، ولكنه فكر في أنه سيعتاد عليها، فبعد المأزق الذي لم يصدق كيف نجا منه، من الأفضل أن يرضى بالأمن مع دفع بعض الثمن، أو على الأقل هذا ما تعلمه من التجارب السابقة، ولكن رغم ذلك لا تزال تراوده بعض التساؤلات من حين لآخر، من أين حصل أحمد دردور على كل تلك القوة؟ افترض أنه رجل نافذ في الدولة، ولكن ماذا عن التكنولوجيا المتطورة في منزله؟ هل يعقل أنه يعمل مع استخبارات أجنبية؟ هذا محتمل، ولكن من غير المحتمل أن تكون الفرنسية، كان يبدو أنه يجيد الانجليزية، وله عادات ورثها من الثقافة الانجليزية، مهتم بالأدب الأمريكي ولديه علاقات في الولايات المتحدة. فمهما يكن فالأمر أعلى من قدرته بكثير، وفكر في قرار وقف التحقيق، فوجده لأول مرة منطقيا إلى حد ما، فأمر بمثل هذه الخطورة ليس من اختصاص الشرطة الجنائية، أشعرته تلك الأفكار ببعض الارتياح، فالمسؤولية ليست على عاتقه الآن، حاول أن يقوم بواجبه على أكمل وجه حتى كادت تكون روحه ثمنا لذلك، ولا داعي بعد ذلك العبث مع الموت مرة أخرى.

تطلع عبر الصحف ليتابع ما جاء فيها حول محاكمة سبتي، ويبدو أن الخبر لم يحظ بالتغطية التي كان يتوقعها، فبالكاد عثر على مقال صغير عن القضية، وكان ذلك صدفة في إحدى الجرائد التي يكاد لا يقرؤها أحد، وحينها أدرك أن هناك قوى لا تريد أن يعلم الناس بما حدث، أراد هو أيضا أن ينسى الأمر من أساسه.

تحسنت الآن حالته جيدا، وغادرت والدته إلى بيتها، فيما عاد هو يقضي بعض الأوقات في التمارين الرياضية، ولم يعد لزيارة جمعية الكابويرا مرة أخرى، ربما بدأت تخبو رغبته في التدريب بعد الذي حدث. كما صار يتصل من حين لآخر بجازية ليطمئن على صحتها، فلم يعد هناك ما يخشاه الآن من لقائها، ولكن كما طلب السيد دردور، فالحذر يجب أن يكون دائما رفيقهما في كل خطوة.

أكمل عمله باكرا كحاله منذ أن استلم المنصب الجديد، وفكر في الاتجاه إلى البيت أوالتدريب، ولكن الأمر صار بالنسبة له مملا، فلم يعتد أن تكون له أوقات فراغ كثيرة، وكانت له خطط ليشغل نفسه بشيء مفيد، ولكنه لا يقوم بأي شيء في النهاية، كان الإحباط يسيطر عليه قبل أن يخطو أية خطوة جديدة، وقف قرب أحد المحلات واشترى جريدة ليمرر بها بعض الوقت، ثم سار في جو بدا أحسن حالا من الأيام التي مضت، وفيما هو متجه إلى البيت خطر له أن يزور جازية ويقضي معها بعض الوقت، ولكنه كاد يحجم عن فكرته حين تذكر أنها الآن على عكسه تماما، مديرة شركة عملاقة، ولا يظن أنه سيكون لها من الوقت مثلما عنده.

حين اقترب من موقف للحافلات، حدثته نفسه أن يتصل بها ويرى إن كانت منشغلة أم لا، فلم يكن له ما يخسره، بعد أن ضغط الزر مباشرة سمع

صوتها يأتي من السماعة، سألها إن كان يمكنها اللقاء، فقالت إنها متوجهة إلى المستشفى لتزور أمها، كان قد نسي أمر تلك المرأة كليا، فسأل بعد أن توقف على حافة الرصيف: وكيف هو حالها؟

لم يتحسن شيء منذ أن تركتها آخر مرة، ولحد الساعة أعتقد أنها لا تزال كذلك، فقد طلبت من إحدى الممرضات أن تتصل بي إذا تحسنت صحتها، ولكنها لم تفعل.

صمت حميد للحظة ثم قال: في أي وقت تكونين هناك؟

نصف ساعة على الأكثر، سأشتري بعض الأغراض أولا ثم أذهب.

فكر حميد في أن الذهاب بالحافلة قد يأخذ منه أكثر من ساعة من الزمن، أما إذا استقلّ سيارة أجرة فقد يصل قبل أن تصل جازية، أخبرها أنه سيأتي، وطلب منها أن تنتظره لبعض الوقت إن تأخر، وأقفل الخط.

لحسن حظ حميد أنه وصل بعد أقل من عشرين دقيقة، فقد كان الطريق المؤدي إلى مستشفى عبد القادر محمودي خاليا على خلاف الطريق المعاكس، اتصل بها عند وصوله، فقالت إنها الآن في الطريق، لم يشأ أن يصعد لرؤية رحمة حتى تأتي ابنة أختها فيزورانها معا، جلس بمقهى مقابل لبوابة المستشفى، وحين رآها تقترب نظر إلى ساعته فأدرك أنها دقيقة في مواعيدها. اقترب منها فبدت أكثر نضجا وأكثر جمالا أيضا، توجه برفقتها إلى غرفة رحمة في الطابق الثاني، وأثناء ذلك حدّث كل منهما الآخر عن حياته بعد اللقاء الأخير مع أحمد دردور، وحين وصلا للغرفة أخبرتهما إحدى الممرضات أنها نقلت لغرفة أخرى في الطابق نفسه، وبعد أن تبعاها، وجدا رحمة تستلقي على السرير وتنظر إلى السطح، وضعت جازية الأزهار على منضدة بجانبها فيما كان حميد واقفا ينظر إليها، بدا أن رحمة لم تنتبه

لوجودهما، فقد كانت عيناها لا تزال شاخصتين ولم تستدر، وقفت جازية بالقرب منها ثم قالت: يبدو أنها لا تزال كما كانت.

جلس حميد على السرير المحاذي لسرير رحمة، وراح يراقب جازية وهي تحاول الحديث مع خالتها، كان مقتنعا بأنها لن تصل إلى نتيجة، وبعد أن شرد قليلا فاجأته جازية بأن أمها قد نظرت نحوها، قام من مكانه بسرعة وحاول أن يلاحظ أية حركة، ولكن لا شيء حدث، بدأت الشكوك تتسلل لنفسه عن حقيقة ما رأت، ولكن هذه المرة رأى بعينيه حركة، كانت تحاول أن تقول شيئا، غير أن شفتيها كانت أثقل من أن تستطيع تحريكها، أمسكت جازية بسرعة بإحدى يديها ونادتها بصوت كله رجاء: أمي، هل تسمعينني؟ ماذا تريدين أن تقولي لي؟ أرجوك نحن هنا معك.

وفي هذه اللحظة دخلت الممرضة، ونظرت إلى جازية متسائلة: ماذا هناك؟ نظرت جازية نحوها وهتفت بنبرة مليئة بالأمل: لقد حركت شفتيها، كانت تحاول أن تقول شيئا.

اتسعت عينا الممرضة وقالت: حقا؟ ثم توجهت إلى السرير أين ابتعدت جازية لتفسح لها المكان، وفجأة بدا أن رأس رحمة يتحرك، فتساءلت جازية: هل هي تتحسن؟

قاست الممرضة نبضات قلبها وتحسست عينيها، ثم ردت: لا أظن أنها بخير، فدقات قلبها أصبحت غير منتظمة، كما أن ضغطها ارتفع قليلا، ربما استطاعت أن تدرك خيالك فأعاد لها ذلك بعض الكوابيس المزعجة، سأعطيها مهدئا ونتركها لترتاح قليلا.

حين أخرجت الممرضة الحقنة، ازدادت حركة رحمة وبدت وكأنها تقاوم، ولكنها سرعان ما أغمضت عينيها وسكنت حركتها بعد أن سرى الدواء في جسمها.
حين خرجا من الغرفة، أشار حميد إلى الممرضة التي كانت تبتعد، وقال: لست أدري لماذا لم أرتح لتلك المرأة. ردت جازية موافقة: وأنا كذلك، حتى أمي كانت هادئة تماما قبل أن تدخل الغرفة. وحين اقتربت منها رأيت كيف أصبح وجهها شاحبا، وكانت تظهر وكأنها تريد الهرب من سريرها.
صمتت جازية للحظة، ثم توقفت فجأة وهي تنظر خلفها: سأخرجها من هذا المستشفى في أقرب وقت.
وأين ستذهبين بها؟
لن آخذها إلى أي مستشفى، سآخذها إلى البيت واستأجر من يعتني بها، فأنت تعلم الرعاية الصحية في المستشفيات عندنا.
قال حميد محاولا إقناعها بعدم القيام بذلك: ولكنها الآن في أفضل المستشفيات في البلاد.
ردت جازية بتهكم: لو كان كما تصف لما هرب البعض للعلاج في الخارج.
وتوجها فورا إلى إدارة المشفى، وبعد دقائق من الانتظار استطاعا مقابلة المدير. كان يبدو في أواسط الخمسينات، يضع نظارة فوق شعر مغطى بالشيب، يرتدي مئزرا أبيض فوق قميص من الصوف، قام من مكانه خلف المكتب ومد يده مصافحا في حركة لم يتوقعها أحد، فقد كان إظهار الاحترام من مسؤول مثله أمرا لا يحدث دائما، جلسا على الكرسيين المقابلين له وقرآ على لافتة فوق المكتب: "الدكتور هشام زيتوني"، عرّفت جازية عن نفسها

بسرعة، ثم قالت ببساطة بعد أن سألها عن سبب الزيارة: أريد أن أنقل أمي إلى البيت.

أظهر اهتماما بالموضوع، وعاد يسأل. وهل تحسنت حالة أمك؟

ترددت جازية ثم أجابت: في الحقيقة لم تفعل، لا تزال حالتها مثل أول يوم دخلت فيه، قالت الجملة الأخيرة بنوع من اللوم للقائمين على المستشفى ككل، وكانت الرسالة قد وصلت واضحة للدكتور هشام فطلب معلومات عن اسم المريضة، وبحث عن ملفها في البيانات المدونة على الحاسوب، ساد بعدها صمت قصير، تمكن خلاله الطبيب من قراءة الملف بسرعة ثم رفع بصره، وقال محاولا أن يبسِّط طبيعة المرض بقدر الإمكان: والدتك تعاني من شلل كامل 'Paralysis'، مع فقدان للذاكرة 'Amnesia'، وهو مرض لا يمكن علاجه في يوم أو يومين، وقد يستمر لعدة أعوام، ولهذا فهي تحتاج لرعاية خاصة..

لم تجد جازية بدا من أن تصارحه بما تنوي فعله، فقالت في محاولة لإقناعه: سأشتري كل المعدات والأدوية اللازمة، وأعين من يقوم عليها خلال مدار الساعة.

تبسم الطبيب وقام من مكانه مشيرا لهما بأن يرتاحا في مكانهما، ثم سار حتى اقترب منهما وقال: أتعتقدين أن الحصول على الأجهزة الطبية سيكون بتلك السهولة؟ هناك بعض المعدات لايمكن شراؤها إلا من الخارج، إضافة إلى تكاليفها الباهضة، فهي قد تحتاج إلى رخص وما إلى ذلك... أي أنك حتى لو تحصلت عليها، فلن يكون ذلك إلا بعد عدة أشهر، وبعد ذلك ستحتاجين إلى بعض الأدوية، ولن تجديها في أي من الصيدليات؛ لأنها متوفرة فقط في المستشفيات.

فكرت جازية في أنها قد تحصل على كل ما تحتاجه في وقت أقل، ولكنها لم تكن متيقنة من ذلك، قامت من مكانها وقد قررت أن تتحلى ببعض الصبر: حسنا، سأتركها لفترة، وإن لم تتحسن فسأنقلها من هنا حتى ولو تطلب الأمر نقلها إلى الخارج.

يبدو أنك لم تستوعبي جيدا ما قلته سيدة بوشو، إن حالة أمك تتطلب الصبر، فبعض الأمراض -كما سبق وأن أخبرتك- يستمر علاجها لعدة سنوات وليس فقط في شهر أو شهرين.

بعد أن أدركت أنها لن تصل معه لاتفاق، خرجت من الغرفة، وقالت لحميد وهو يغلق الباب خلفه: إذا لم تتحسن حالتها خلال أيام فسأنقلها من هنا شاء أم أبى، ولن يكون عليَّ أن آتي لأتحدث معه، فهناك أناس أكثر إقناعا مني يمكنهم إنجاز المهمة بسهولة.

أحس حميد بأنها صارت قوية حقا وبدأت تستعمل نفوذها، ولكن كان له رأي آخر. ما رأيك أن نضع كاميرا مراقبة في غرفة خالتك، ومن خلالها نرى إن كانت تتلقى حقا ما تستحقه من رعاية أم لا، ثم بعد ذلك يمكنك أن تقومي بالإجراءات اللازمة.

بدا أن جازية أعجبت بالفكرة، فاستدارت نحوه بوجه أشعره بسعادة لم يقف على سرها، وقالت: وهل تعتقد أن ذلك سينجح؟

لا مانع من التجربة، سأطلب من صديق لي أن يقوم بهذه المهمة لأجلي، ولا أظنه سيرفض.

إذا كان الأمر كذلك، فأنا من سأوكل من يقوم بهذه المهمة، فتجربتي بعد وفاة زوجي مع الخطر، علمتني أن أجمع من حولي أناسا لهم خبرة واسعة في المراقبة.

ولكن ذلك قد يوقعك في المشاكل.

نظرت إلى عينيه وردت بنبرة هادئة: أفضِّل أن أقع في المشاكل أنا على أن تقع فيها أنت، فهذه القضية تخصني ومن الأفضل أن أتولاها بنفسي.

ولكن أرى من واجبي أن أساعدك.

تجاهلت جازية ما قاله، وكانت قد اقتربت من سيارتها ففتحت الباب، وقالت: حين يصلني تقرير عما يحدث سأتصل بك، هل تريد أن أوصلك؟

كان حميد في حاجة لمن يوصله، ولكن فكر في أن يقضي هناك بعض الوقت: "لا داعي لذلك، لدي ما أقوم به قبل أن أعود إلى البيت".

بعد أقل من أسبوع، اتصلت جازية في الوقت الذي كان لا يزال فيه حميد بالمكتب، وطلبت منه اللقاء في بيتها، وافق دون أن يسأل عن التفاصيل ثم أقفل الخط، كان يتوقع أن تحدثه عما توصلت إليه فيما يخص خالتها رحمة، ورغم أن عمله لم ينته بعد، إلا أنه لم يكن هناك من يضغط عليه ليسلمها في وقت محدد، استقل سيارة أجرة، وحين وصل وجد سيارتها قرب الباب، بعد أن ضغط على جرس الباب، ظهرت بالملابس التي ترتديها عادة عند خروجها للعمل، سترة صوفية كاجوال 'casual' مع سترة خفيفة بلون بني فاتح، وسروال قطني واسع، لم يكن يظهر على ملامحها شيء من الكدر وهذا أراحه كثيرا، قادته إلى غرفة الجلوس وتوجهت إلى المطبخ بعد أن طلب منها بعض الماء فقط، أحضرت ماء مع قهوة لكليهما، فقد فكرت في أنه قد يحتاج إليها أثناء الحديث، جلست على أريكة مقابلة، وقالت وهي تصب له كاسا من الماء: يسعدني أنك أتيت، فقد حصلت على معلومات أود أن أشاركك بها.

مد حميد يده ليأخذ الماء وهو يقول: هذا جيد، كنت أظن أنك ستحتاجين إلى وقت أطول.

أخبرتك أنني أعتمد على رجال في غاية الكفاءة، ولكن أصدقك، فإن التحقيق قد أخذ منهم الكثير من الجهد عكس ما كنت أتوقع.

نظر حميد نظرة متسائلة، فأضافت جازية وهي تسكب لنفسها فنجانا من القهوة: قمنا بمراقبة غرفة أمي بكاميرا تم تركيبها خفية ذلك المساء، وخلال

أقل من يومين اكتشفنا أمرا مذهلا، كانت حالة أمي تتحسن من ساعة لأخرى، حتى أنها بدأت تحرك يديها قليلا، وكانت تنظر إلى الكاميرا وكأنها تدرك وجودها، كنت أنظر إليها وأنا أشعر بسعادة غامرة، وفجأة جاءت تلك الممرضة، أرادت أن تحقنها ولكن أمي أبدت مقاومة أشد مما رأيناها خلال زيارتنا، وفجأة نامت، وحين فتحت عينيها بدت كالميتة تماما، كانت تلك اللعينة تحقنها بمادة ما.

ثم أضافت بنبرة أقل حدة: طلبت من عدلان شيكر، وهو الشخص المسؤول عن التحقيق أن يتحقق من تلك المادة، فقام بتعقب الممرضة واستطاع أن يحصل على عينة من الدواء.

قامت جازية نحو منضدة قريبة، وعادت تحمل بضع أوراق: "هذه نتائج تحليل قام به مختبر طبي خاص". ثم ألقت نظرة على الأوراق ورفعت عينيها بسرعة: في الحقيقة لا أفهم كثيرا ما هو مدوّن هنا، ولكن سأحاول تذكر ما أخبرني به البروفيسور علاني، اسم الدواء هو مورفيوس 'Morpheus'، وهو مزيج من مركبات عضوية أغلبها مواد مخدرة، لهذا فهو نوع من المخدرات الخطيرة والنادرة، والتي تستخدم في الغالب لأغراض غير بريئة، فإذا قدمت بجرعات زائدة، قد تؤثر في الأعصاب وحتى القلب فتؤدي بالمريض إلى الموت، ولكن يبدو أن الممرضة كانت تتحكم في الجرعات بدقة، بحيث تبقي أمي دائما في حالة شلل يمنعها من الحديث أو الحركة، كانت تفعل ذلك فيما كانت تدّعي أن أمي لم تتحسن بعد. ولحسن الحظ أننا اكتشفنا الأمر في الوقت المناسب، فلو استمرت أمي في تناول هذا المخدر لفترة أطول، فستكون النتيجة بين حالتين؛ إما الموت أو الغيبوبة الدائمة.

عاد حميد بظهره قليلا إلى الخلف، وسأل: وهل تأكدت لماذا تقوم بذلك؟

قمنا بجمع معلومات عن المرأة، فعرفنا أن اسمها هو سعيدة بن شريف، تقيم مع زوج عاطل عن العمل في بئر خادم، لها بنت تتركها في الغالب مع والدتها التي تقطن في مكان غير بعيد عن هنا، ولم يكن هناك ما يثير في حياتها الاهتمام إلى غاية نهاية الشهر الماضي، حيث اشترت سيارة من نوع "جاك s2" والتي يقدّر سعرها -مع ارتفاع الذي تشهده الأسعار- ما لا يقلّ عن مليون دينار.

خمن حميد من أين حصلت على ذلك المال، ولكنه تساءل ليتحقق من ذلك كأنه يمثل دورا مسرحيا: من أين حصلت على المال؟

أجابت جازية، ويبدو أنها كانت أيضا تستمتع بدور المحقق الذي يشرح قضية غامضة: لابد أن شخصا قد دفع لها وبسخاء من أجل أن تبقي أمي في حالتها المزرية، ولكن ما يثير حيرتي هو ما الذي فعلته أمي المسكينة لتعاقب بهذا الشكل؟

حاول حميد شرح ما يعتقده، رغم أن شيئا في داخله كان يمنعه من الحديث: أظن أن خالتك تعرف شيئا ما، وأحدهم يدرك ذلك ولا يريدها أن تبوح به. وتردد للحظة ثم أضاف: شيء متعلق بمقتل زوجك السيد بوشو.

نظرت إليه جازية بحيرة وقد وضعت كوب القهوة على الطاولة: "ولكن ما علاقة أمي بمقتل زوجي؟ لم تكن في البيت حينها."

قاطعها حميد: أجل لم تكن في بيتك، وكذلك لم تكن في بيتها، كانت إذن في بيت صديقتها، هذا ما قالته، ولكننا لم نقم بالتحريات اللازمة حيال خالتك، سجلنا أقوالها وصدقنا كل ذلك على أنها مسلمات لا تقبل النقاش، فماذا لو كانت الحقيقة على خلاف ذلك؟

قالت جازية بحدة: أتقصد أن أمي هي القاتلة؟

لم أقل ذلك، ولكن قلت إننا لا نعلم تحركاتها بالضبط وقت الجريمة.

ساد صمت خانق، فكرت خلاله جازية بجد في طرده من منزلها أو رميه خارجا، فهو لم يعد يحقق في هذه القضية، كما لم يعد أحد يفعل ذلك، ولكن تساءلت في حيرة كيف سار بهما الحديث لهذا الموضوع، كان حميد كذلك يطرح على نفسه هذا السؤال، فمن المفترض ألا يعودا للحديث عن هذا الموضوع إطلاقا، ولكن جازية على الأقل أقنعت نفسها أن هذا الأمر يخص حياتها، وهو جزء من ماضيها ولا يمكنها نسيانه هكذا ببساطة بسبب أن هناك من يريد غلق القضية، قد يكون إذن من المفيد الاستمرار في الحديث في هذا الشأن، فظهور حقائق جديدة يعني ظهور فرضيات قد تقود بدورها لحقائق أخرى وهكذا. هدّأت من توترها قليلا ببعض الماء، ثم تذكرت ما لم تخبر به حميد بعد، وهذا أيضا جعلها على قناعة بأن الخوض في المحظور أمر لا بد منه.

لاحظ حميد توترها، فشعر بالذنب لتذكر الجريمة مجددا وحاول تغيير الموضوع: "كنت أظن أنك تقيمين في فندق. متى عدت إلى بيتك".

لا أزال أقيم هناك، جئت هنا لبعض الأعمال ثم أعود.

ثم أطرقت رأسها وأخذت تمسك بإحدى يديها أصابع اليد الأخرى في توتر واضح، وبعدها قالت مستدركة: كنت أود أن أخبرك أيضا عن أمر يخص هذا البيت، وقد أخفيته عنك في المرة السابقة حتى أتيقن من شكوكي، ولكنني أخبرت عدلان بذلك.

وصمتت وكأنها لم تستطع إكمالَ الحديث. واستمر صمتها طويلا حتى ظن حميد أنها تبكي، لم يرد أن يزعجها فقد تكون بعض الدموع مفيدة لها، وبعد دقائق أرسلت أصابعها المرتجفة تحت شعرها المنسدل على وجهها،

مسحت بعض الدموع، ثم أزاحت خصلات الشعر عن عينيها، ورفعت رأسها دون أن تنظر إلى حميد: "كنت خائفة من أن أخبرك أو أن أخبر أي أحد بما رأيت، ولكن حين عرفت ما يحدث لأمي أخبرت عدلان بكل شيء".

وانتظر حميد بلهفة أن تكمل إلى أن قالت: تركت البيت كما أخبرتك وانتقلت للعيش في الفندق بصفة مؤقتة كما تعلم، وذات يوم عدت لآخذ بعض الثياب والأغراض، وقبل أن أدخل أحسست كأنني شاهدت أشخاصا في البيت، كانت بعض الظلال تظهر بجلاء من نافذة المكتب، وحتى من نوافذ الطابق العلوي، فكرت حينها في أنه ربما تكون بعض الأشباح سكنت البيت، فأنا أؤمن بعالم الأرواح كثيرا، بل إن ما دفعني لعدم المبيت في هذا المنزل هو ذات المخاوف، بيت بالكاد مهجور وقعت فيه جريمة، وأنت تعلم أن تلك المخلوقات تحب العيش حيث تكون الدماء والموت وما إلى ذلك..

اضطررت حينها ألا أدخل البيت، وعوض أن أتصل بالشرطة أو بأي شخص آخر، ذهبت لمتجر الملابس واشتريت ملابس أخرى، أخبرت عدلان كما قلت لك من قبل، فقام مع فريقه بتفتيش البيت جيدا، وبمساعدة بعض الأجهزة تخيل ماذا اكتشفوا؟

وهز حميد رأسه وهو مقر بأنها نجحت في إثارة فضوله أكثر، فقالت أخيرا: وجدوا أن البيت كان مراقبا بأجهزة دقيقة في كل أرجائه.

كان عقل حميد مبرمجا ليسمع أي جديد عن قضيته، حتى يعود ليعمل بسرعة كبيرة، ولكن كان معظم ما يفكر فيه مجرد تساؤلات، قد تكون مفيدة ولكنها صارت تشعره بالعجز، الحيرة، التوتر، وحتى الخوف، فكر في أن يوقف تلك الآلة الدقيقة في رأسه، ولكنه لم يستطع، ما فائدة مراقبة بيت بوشو يا ترى؟ أيعقل أن يكون السيد بوشو مراقبا حتى في بيته؟ هل

هناك سر كان يريد البعض الوصول إليه؟ كيف لم يتفطن رجال الشرطة لتلك الأجهزة حين قاموا بتفتيش المنزل؟

أوقفت جازية أخيرا شروده حين قالت: قال عدلان أن الأشخاص الذين رأيتهم من النافذة كانوا يزيلون تلك الأجهزة، فلم تعد لها فائدة هناك، كما أنهم لم يرغبوا أن يكتشفها أحد فتثار التساؤلات من جديد.

افترض حميد أنه لم يكن لهم الوقت الكافي لنزعها حتى هذا الوقت، أو كانوا على يقين بأنها لن تكتشف، ولكن كيف اكتشف فريق جازية وجودها حتى بعد إزالتها، سؤال آخر محير، ولكن الإجابة على كل أسئلته الأخيرة لن تجيب عليها إلا التقنيات الكبيرة للتكنولوجيا التي صارت موجودة اليوم.

ونطق أخيرا بعد فترة صمت قصيرة: إذًا فقد تم تصوير الجريمة.

وعاد الصمت، كل منهما يفكر في الغاية من ذلك، إلى أن قالت جازية: لماذا قد يصور القاتل جريمته؟

ولكن كاميرات المراقبة كانت مزروعة في كل أركان المنزل وليس فقط في المكتبة، هذا قد يعني أن القاتل ربما لم يكن على علم تماما بوجود تلك الكاميرات.

ثم اتسعت عيناها حين خطر لها خاطر جديد: "هل يمكن أن السيد دردور هو من وضع تلك الكاميرات؟".

وتذكر حميد شكوكه الأخيرة عن ذلك الرجل، فقال: لست أدري، ولكن أظن السيد دردور لم يخبرنا بكل الحقيقة، أرى أنه لا يزال عنده ما يخفيه.

مثل ماذا؟

أخبرها حميد بشأن ظنونه عن المخابرات الأجنبية، فحاولت جازية أن تربط هذا بذاك فلم تستطع: "وإن يكن، فماذا سيفيدنا نحن في هذه الحالة؟"

فكر حميد بسرعة ثم أجاب: لست متأكدا، ولكن قد يكون هناك صراع مخابراتي أجنبي عن شيء ما، وأرى أن هذا الشيء يملكه زوجك بوشو.
ردت جازية وهي تستعمل يديها بعصبية: ولكن الشرطة فتشت المنزل، ألم تكن مسؤولا خلال التحقيق وأخبرتني أنكم لم تجدوا شيئا؟
هذا صحيح، ولكن قد يكون هذا الشيء لا يوجد في المنزل ولا في الشركة، ربما في مكان ما آخر.
أتعتقد أنه علينا البحث في البيت الذي اشتراه حديثا؟
أراد الحديث، ولكن أحس بأن ذلك الصوت الداخلي يمنعه من التورط في القضية مجددا، كان يشعر كذلك بواجب اتجاه المرأة التي أمامه، وبأنه مسؤول عن حمايتها بطريقة أو بأخرى، فقال: لا أظن أن هذا الأمر قد خفي على أي من الطرفين، لهذا علينا التركيز أولا على حماية خالتك والإيقاع بتلك الممرضة، فمن خلالها قد نصل إلى من يريد أن تبقى صامتة. فلو استطاعت الحديث فربما أخبرتنا عن القاتل.
أرادت جازية قول شيء، فقاطعها حميد: أعلم أنها كانت بعيدة عن مكان الجريمة، وهذا لا يمنعها من الاطلاع على شيء ما قبل حدوثه، وبذلك قد نستطيع الوصول للقاتل.
بدت جازية قد اقتنعت هذه المرة فهدأت، ثم أشارت إلى القهوة قائلة: هل أنت متأكد أنك لا تريد أن تشرب فنجانا من القهوة؟
تبسم حميد وقال: في الحقيقة أود الآن شرب أكثر من واحد.
تبسمت جازية كذلك وصبت له فنجانا، فيما حدق هو في شعرها المنسدل الناعم ثم اعتدل وقال: نحتاج إلى معرفة المزيد عن تلك الممرضة.
نظرت إليه بسرعة قبل أن تعود لتضع السكر: سعيدة بن شريف؟

أجل، سعيدة، أريد أن أعرف تحركاتها الأخيرة، وإن كان شيئا غريبا قد طرأ على حياتها، إضافة إلى ما أخبرتني به عن شراء السيارة.

وضعت جازية القهوة بقربه واعتدلت هي الأخرى، وقالت: علمت أنها متزوجة بشخص يعاملها معاملة سيئة ويأخذ منها الراتب الذي تحصل عليه من العمل، وحتى السيارة التي اشترتها صار هو الذي يستعملها، هذا كل شيء.

هل لا يزال رجالك يراقبونها؟

أجل

هذا جيد. وماذا عن خالتك، هل أخبرتك بشيء غير طبيعي قبل أن تدخل في تلك الحالة؟

عدّلت جازية حقيبتها التي كانت على وشك السقوط من الأريكة، وأجابت: لم أكن حينها في حالة تسمح لي بأن أراقب تصرفات الغير، ولكن على ما أذكر كانت طبيعية، أقصد قبل أن تسمع بخبر مقتل هشام.

ووضع حميد يده على ذقنه متفكرا، ثم نظر إليها وقال: هل هاتفها النقال معك؟

هزت جازية رأسها بالإيجاب، فأضاف: أريد أن أطلع عليه إن أمكن.

همت أن تسأله عن السبب، ثم قالت بدلا عن ذلك: كنت أحتفظ به في حقيبتي منذ وقت قريب قبل أن أخفيه في غرفتي.

وقامت من مكانها لتحضره. وبعد دقائق قليلة أمضاها حميد في التفكير دون أن يصل لنظرية تفسر كل ما حدث، عادت جازية تحمل هاتف ' Nokia 105' أزرق اللون، تفحص سجل المكالمات المستلمة والصادرة قبل ارتكاب الجريمة وبعدها، فلاحظ ثلاثة أرقام مسجلة: "هشام"، "جازية"، ورقم

مسجل باسم "الجوهر"، قالت جازية أنها المرأة التي زارتها أمها ليلة مقتل زوجها، فيما أن الرقم غير المسجل لم تتعرف عليه، ولم تجده مسجلا على هاتفها هي أيضا.

حمل هشام هاتفه ودون أن يعلق بكلمة اتصل بشخص ما، وحين أتاه الرد طلب معلومات عن ذلك الرقم، وحاول إقناع الشخص عبر الخط أن الأمر في غاية الأهمية، انتظر للحظات قبل أن يستمع للنتيجة، ثم نظر إلى جازية وقال: الرقم باسم امرأة تدعى "حورية حيزر"، هل سمعت بهذا الاسم من قبل؟ أشارت جازية بالنفي، فواصل: علينا الاتصال أيضا بهذه المرأة ومعرفة علاقتها بخالتك.

قامت جازية من مكانها وحين تبعها حميد، قالت بنبرة حازمة: ليس عليك أن تبحث عن شيء، فهذه القضية انتهت بالنسبة إليك، ولكنني طلبتك فقط لأخبرك ما توصلت إليه.

وما الذي تنوين فعله؟

سأخرجها من ذلك المستشفى بالطبع، ولن أهتم كثيرا برأي المدير الذي قد يكون متورطا في كل هذا.

أخشى إن فعلت ذلك، أن نعطي للشخص الذي يحاول إسكاتها إشارة بتوخي الحذر، وبذلك لن تكون عملية تعقبه بالمهمة السهلة.

ردت بحدة: وماذا تريدني أن أفعل؟ أن أتركها هناك لتتعرض للسموم كل يوم.

حاول حميد أن يهدئها، ولكن لم يكن يدرك كيف يفعل ذلك، كل ما كان متأكدا منه هو رغبته الجامحة في الوقوف بقربها مهما كانت العواقب، قال محاولا إقناعها: دعيني أساعدك وسنجد حلا مناسبا.

ردت بشيء من التهكم: وكيف ستفعل ذلك... أخبرني؟ بأن تمنعني من إنقاذ أمي من هؤلاء المجرمين؟

فكر حميد بسرعة، ثم قال: إن كنت مصرّة على إخراجها، فلابد أن نتحرك بسرعة للقبض على الجاني، لهذا أقترح أن نعتقل الممرضة ونقوم باستجوابها، وإن كنت أود أن نقوم بمراقبتها لوقت أطول لعلها تقودنا إلى الرجل الذي استخدمها، ولكن هذا يعني تعريض خالتك لخطر أكبر.

قاطعته جازية: لا تنس أننا نراقبها إلى هذه اللحظة، فإن تفطّنت أننا اكتشفنا أمرها فلابد أنها ستهرب، وربما ستلتقي بذلك الشخص مجددا لتحذره، عندها يمكنك القبض عليها بتهمة سوء استغلال الوظيفة ومحاولة القتل.

26

أنهت سعيدة بن شريف عملها كممرضة على الساعة الواحدة بعد الزوال، ثم اتجهت بالحافلة حيث كانت تقيم بحي لعشاب ببئر خادم، اشترت بعض الخضر والأغراض من بقالة مجاورة قبل أن تتجه إلى البيت، لم يكن زوجها هناك كما هو متوقع، كما أن ابنتها كانت في المدرسة ولن تعود حتى الساعة الرابعة مساء، وضعت الأكياس قرب باب المطبخ ثم اتجهت إلى الحمام، وهناك نظرت إلى وجهها النحيف في المرآة، فأحست بالضيق من تلك الخطوط التي بدأ التوتر يرسمها حول عينيها، وفكرت في أن تغسل وجهها لعلها تشعر ببعض النشاط، ولكنها لم ترد إفساد زينتها فربما احتاجت للخروج لجلب الطفلة من المدرسة، مسحت بدلا عن ذلك جبينها بمنديل مبلل، ثم توجهت إلى غرفتها لتغير ثيابها، وقبل أن تصل سمعت رنين هاتفها المحمول، كان يأتي مكتوما داخل حقيبة يدها من المطبخ، وجدت الحقيبة ملقية وسط أكياس البضاعة، فلم تصدق أنها هي من ألقت به هناك، كانت مرهقة حقا، ولم تعد تدري إن كانت النقود التي حصلت عليها مؤخرا قد جلبت لها السعادة أم التعاسة!

أخرجت الهاتف بسرعة، وحين نظرت إلى الشاشة ازدادت دقات قلبها، وازدردت ريقها بصعوبة، كانت هذه المرة الخامسة التي ترى هذا الرقم، ورغم ذلك كانت أعراض الخوف والتردد هي نفسها منذ أن ردت على أول مكالمة، كان ذلك منذ ما يزيد عن شهرين، حين اتصل بها شخص مجهول وعرض عليها صفقة لم تستطع رفضها، كانت المخاطرة كبيرة، ولكن المبلغ

الذي عرضه كان مغريا ولم تستطع رفضه، كانت في حاجة إلى المال في ذلك الوقت، الكثير من الديون مع راتب لا تكفي لإعالة أسرة وزوج عاطل، كما أنها لم تكن لترتكب جريمة، لأن المرأة لا تزال حية، ولكن عقدة الذنب لا تزال تطاردها، ومخاوف الإمساك بها هي الأخرى جعلتها تتصرف على غير طبيعتها، حتى أن زميلاتها في العمل لاحظن ذلك، فكرت كثيرا في تغيير مكان العمل أو الاختفاء لفترة، ولكنها في كل مرة كانت تدرك أنها أصبحت متورطة مع شخص لا تعلم عنه شيئا، والأسوأ من ذلك أنه يعلم عنها كل شيء، كان يرسل لها الأموال عبر حسابها البريدي حتى دون أن تعطيه الرقم، فهو شخص ذو نفوذ كبير دون شك، وسيصل إليها حتى لو أرادت الفرار منه، وما زاد الطين بله، أنها تعرف سرا لا يريد أن يعلمه أحد، وها هو الآن يتصل من جديد، كان أكثر ما تخشاه أن يكلفها بمهمة أخرى لم تخطر لها أول الأمر، كانت تصاب بالذعر الشديد كلما فكرت في أنه قد يطلب منها قتل المرأة، ضغطت بأصبع متردد زر القبول، واستمعت لكلماته التي بدت جد هادئة: "عليك الهروب فورا فقد كشف أمرك". لم تصب بأية مفاجأة، فقد كانت تتوقع أن يكون اتصاله يحمل خبرا كهذا، أسندت نفسها بإطار الباب، وقالت: ولكن كيف اكتشفوا ذلك؟

كل هذا لا يهم الآن، أريد منك أن تخرجي حالا من البيت، فلا بد أن الشرطة ستصل إليك في أية لحظة، أريدك أن تتجهي إلى موقف الحافلات المجاور، وهناك ستأتي سيارة 'Picanto Kia' رمادية لتنقلك إلى مكان آمن. وقبل أن تطرح سعيدة مزيدا من الأسئلة أقفل الخط.

نظرت إلى الشاشة وتمتمت في حنق: "عليك اللعنة". ثم التقطت بسرعة حقيبة يدها من الأرض، وحين استدارت للخروج سقط منها الهاتف بين

أكياس الخضر، أحست بالضيق وراحت تفتش عنه بغضب، إلى أن سحبته مخلفة فوضى عارمة خلفها، حين اقتربت من الموقف شاهدت سيارة بالمواصفات نفسها التي ذكرها الرجل، اقتربت منها بخطوات مترددة، وحين وصلت فتح باب السائق وظهر شاب أنيق في أوائل العشرينات، يرتدي سروال جينز ومعطفا شتويا ثخينا، فتح لها الباب وكأنه يعرفها جيدا، نظرت إلى وجهه نظرة سريعة، وجلست على المقعد الخلفي دون أن تنبس بكلمة، كانت جد متوترة ولم تكن تفكر في تلك اللحظة إلا في أمر واحد فقط، ولهذا أخرجت هاتفها المحمول واتصلت بأمها في الوقت الذي كانت فيه السيارة تبتعد عن المكان، لم يرد على الاتصال أحد في المحاولة الأولى، وحين أعادت المحاولة تلقت الرد مباشرة: "نعم سعيدة". حاولت سعيدة أن تتحدث بنبرة هادئة قدر الإمكان حين قالت: كيف حالك أمي؟

بخير..

اسمعي، تم اختياري في المستشفى لأذهب في رحلة عمل، ولكن لست أدري بالضبط كم ستدوم، ولهذا سأضطر إلى الذهاب الآن ولن أتمكن من إحضار ابنتي من المدرسة أو حتى توديعها، فأرجو منك أن تهتمي بها خلال غيابي، سأتصل بك من حين لآخر لأطمئن عليها.

بدا السائق مندهشا لقدرتها الهائلة على تلفيق الأحداث، نظر إليها من خلال المرآة الأمامية وهي تعيد الهاتف إلى حقيبتها، وحين أعاد اهتمامه للطريق سمعها تسأل: إلى أين نحن ذاهبان؟

كانت نبرتها هذه المرة هادئة من غير تصنع، بدا وكأن انشغالها زال تماما، أما عن الشاب فلم يكن من النوع الذي يحب الحديث، أو ربما كانت التعليمات

التي تلقاها من الرجل المجهول واضحة جدا: "لا تكثر الحديث مع السيدة".
نظر إليها مجددا عبر المرآة وقال: ستعرفين قريبا.
استمرت السيارة في المسير لما يزيد عن الساعة، فكرت سعيدة خلالها بما يمكن أن يحدث، ستكون جد محظوظة لو اكتفوا بطردها من وظيفتها ولم يأخذوها إلى السجن، وحتى لو فعلوا ذلك، فلن يكون الأمر هينا أبدا ، لأن تلك الوظيفة هي المصدر الوحيد لتعيل أسرتها، فكرت كيف ستكون حال ابنتها، فشعرت بانقباض شديد، وسالت من عينيها دموع الندم ممزوجة بدموع الانكسار والخوف، كانت تحس أنها سقطت كليا في جرف الضياع.
توقفت السيارة أخيرا وفتح لها الشاب الباب بكل أدب، وحين نظرت من حولها رأت حيا شعبيا به بعض الحركة على عكس ما كانت تتوقع، بيوت متوسطة الحجم بمداخل أنيقة ونظيفة، أعاد لها منظر المارة الشعور بالطمأنينة، وبدأت تقنع نفسها أن العواقب لن تكون بذلك السوء الذي كانت تتخيله، حين اقتربا من بيت قريب، فتح الشاب الباب وأومأ لها بالدخول، كان عليها أن تطيعه فلم يكن لديها حل آخر، توقعت أن يتبعها إلى الداخل ولكنه قال بدلا من ذلك: ستجدين كل ما تحتاجينه بالداخل، وإن احتجت شيئا آخر، فستجدين هاتفا بالداخل، كل ما عليك فعله هو رفع السماعة والتحدث إليّ عبر رقم تجدينه مسجلا، أرجو أن تبقي هاتفك النقال مقفلا وألا تستعمليه أبدا. هل من استفسار قبل أن أغادر؟
فكرت سعيدة في أن تسأله عن اسمه، ولكنها قالت: هل يمكنني الخروج إن احتجت لشيء.
يؤسفني أنه لا يمكنك ذلك، فأنت تعملين في مكان عام، وقد يتعرف عليك أي أحد دون أن تشعري، إن احتجت أي شيء اتصلي بي.

وقبل أن تسأله مزيدا من الأسئلة، غادر الشاب ودخلت هي إلى الشقة التي لا تزيد عن غرفتين ومطبخ وحمام، رأت أن غرفة النوم تطل على شارع جميل أشبه بساحة حديقة عمومية، تتعانق أغصان الأشجار الباسقة في الأفق حتى تكاد تحجب السماء، وتجلس بعض الكراسي الخشبية قرب جذوعها خالية من أي بشر، راق لها المنظر حقا وأزاح عن نفسها بعض الهم والاكتئاب، وقادها حب الاطلاع إلى الغرفة المجاورة، والتي كانت أكثر قربا من المطبخ، تستخدم كغرفة للجلوس، بها أريكة واسعة تقابل تلفازا على طاولة منخفضة، وبين التلفاز والأريكة منضدة شاي نظيفة، وفي الجهة الخلفية مكتبة بنصف ارتفاع الحائط، بها أشرطة الفيديو أكثر من الكتب، كانت رغبتها في اكتشاف المطبخ أكبر من اكتشاف الغرف، ولكنها قاومت فضولها لتتركه الأخير، كان ضيقا بعض الشيء ولكن كل ما فيه يبهر الأعين، استمرت لبعض الوقت تكتشف ذلك العالم الجميل، ثم أعدت لنفسها كأسا من القهوة وانتظرت حتى الساعة الرابعة، ثم توجهت مباشرة إلى الهاتف لتطمئن على ابنتها، علمت من أمها أن الكل بخير فأحست ببعض الاطمئنان، حملت فنجانا آخر من القهوة و جلست على الأريكة، فكرت في أن تشغّل التلفاز، ولكن لم تكن في مزاج يسمح لها بمشاهدة شيء، عادت إليها الهواجس المعتمة فجأة، و دفعتها المخاوف إلى التفكير في مغادرة ذلك المكان، كيف يعقل أن تلجأ إلى شخص لا تعرف عنه أي شيء، وهو من كان سببا في كل ما هي فيه الآن؟ فكرت كذلك في الانتحار، ثم في تسليم نفسها للشرطة والتخلص مما تعيشه من قلق، وأخيرا قررت أن تتخلص من كل تلك الأفكار، وأن تشغل نفسها بشيء ما، ضغطت على جهاز التحكم عن بعد فلاحظت أن التلفاز متصل بجهاز 'DVD'، ظهر مباشرة على الشاشة

شخصان يتحدثان في مكتب من دون صوت، ضغطت زرا فانتقلت إلى القنوات الفضائية، والتي كانت معظمها أجنبية، وبعد حوالي خمس دقائق من التجوال شعرت بالضجر، ثم قامت واتجهت إلى مكتبة أشرطة الأفلام، ولم تجد الكثير من العناء لتختار خمسة أشرطة، كانت معظمها أشرطة وثائقية تتحدث عن الهروب من العدالة منها 'The Texas Seven Breakout' و 'Escape From Supermax' وكذلك 'Escape Breakout From Alcatraz' اتجهت إلى جهاز DVD، وحينما استخرجت القرص الذي كان فيه لاحظت على ظهره كلمة 'secret'، شعرت بالفضول وأعادت تشغيله من جديد، حاولت أن تركز جيدا على الشخصين اللذين كانا في المكتب، ولكن لم تتعرف على أي منهما، كان أحدهما في عقده الخامس أو السادس، فيما كان الثاني لا يزال شابا في العشرينات، استمرت لبعض الوقت في المشاهدة ولكن في غياب الصوت شعرت أن ما تفعله ليس له أي معنى، كانت زاوية التصوير ثابتة، ولن تحتاج لأن تكون خبيرا لتدرك أن الكاميرا كانت خاصة بالمراقبة، ضغطت على زر آخر للتسريع وفجأة رأت مشهدا صادما مر كلمحة البرق، أوقفت الفيديو على منظر الرجل الأكبر سنا وهو ملقا على الأرض ملطخا بدمائه فيما كان الشاب يغادر المكتب، كانت ملامح الشاب جد واضحة أمام عدسة الكاميرا، شعر أسود وعينان صغيرتان، بعض الشعيرات على ذقن دقيق، وما يدهش أنه لم تكن تبدو عليه أية علامات للخوف أو الاضطراب، كان يبدو في غاية الهدوء، شعرت سعيدة بنبضاتها تتسارع، وأعادت الشريط إلى الخلف بأصابع مرتجفة، شاهدت بكل وضوح الشاب يطعن الرجل في أماكن متعددة على مستوى البطن والصدر، أعادت إطفاء التلفاز بسرعة، ثم نظرت ناحية الباب إن كان أحد قد رآها وهي

تشاهد كل ذلك. غمغمت بشيء من الغضب: اللعنة، كيف يُعقل أن يُترك شريط كهذا أمام الأعين؟ أيُعقل أن صاحب البيت نسيه هنا؟ إن كان الأمر كذلك، فلابد أن تخرج من هنا في أقرب وقت، فربما يقتلها لأنها اكتشفت سره.

سارت خطوتين وهي لا تزال شاردة الذهن، ثم توقفت لتقلّب الأمر من زاوية أخرى: "يا للسخف، ربما يكون شريطا بلا فائدة، كما قد يكون كل ما يحتويه محمّلا من شبكة الانترنت، ولكن ماذا عن كلمة "سري" على ظهر القرص؟ ربما يكون صاحب البيت محققا جنائيا، ولا يعدو أن يكون الشريط من الأدلة التي سبق وأن تحصلت عليها الشرطة"، ليت الأمر كما تظن، ولكن كان يحدثها شعور قوي بغير ذلك، لابدّ أنه دليل على جريمة قتل، والشرطة لا تعرف عنه أي شيء.

سارت مجددا في أرجاء الغرفة لتزيل بعض التوتر، وتمنت أن تجد حلا لهذه المشكلة، عادت إلى الأريكة واستندت على ظهرها، ثم قالت بصوت مسموع: عليّ أن أفكر بشكل جيد، أنا الآن فارّة من الشرطة، وإن كان الشريط دليلا على جريمة قتل فقد يكون الأمر مفيدا لي إن أخذته إليهم، قد أكافأ بتخفيف في العقوبة أو حتى إلغائها، ثم هزت رأسها بشدّة وهي تقول: لا لا، وماذا إن اتهمت بكوني طرفا في هذه الجريمة أيضا؟! عليّ أن أصل إلى قرار بسرعة. ثم توقفت وجمدت كمن يقف على حافة جرف ويستعد للقفز، توجهت بعدها دون تفكير هذه المرة، وسحبت بسرعة القرص من جهاز DVD، وضعته في غلاف أحد الأفلام الوثائقية واتجهت إلى النافذة التي تطل على الشارع، اختلست النظر إن كان بإمكانها رؤية الشاب الذي رافقها إلى هناك، كانت متأكدة من أنه في مكان قريب، ولكنها لم تستطع رؤيته،

توجهت إلى الهاتف لتضمن ابتعاده أكثر، ضغطت على زر الجهاز الذي كان قد أشار إليه، فجاءها صوته وكأنه كان خلف الخط ينتظر المكالمة: هل تحتاجين لشيء؟

تردد للحظة ثم أجابت: نسيت أن أحضر دوائي معي. هل يمكنك أن تحضره لي؟

لم يكن يتوقع أن تطلب شيئا كهذا، فأجاب: من غير الممكن أن أذهب إلى منزلك، هل يمكنك أن تعطيني اسمه وسأحضره على الفور.

أرجو أن تتذكر الاسم جيدا: 'Flaxyne lp 75 mg'

حسنا، ولكن لم يخبرني أحد أنك تعانين من أي مرض.

تجاهلت ملاحظته، وقالت: أنا في انتظارك فلا تتأخر. ثم أقفلت الخط.

وعادت إلى النافذة لعلها تراه يغادر المكان، ولكنه لم يظهر هذه المرة أيضا، كانت تعلم أنه إن غادر فلن يعود بسرعة، فقد لاحظت حين نزلت من السيارة أنه لا توجد أية صيدلية في الجوار، من حسن حظها أن الباب كان مفتوحا حين أرادت التسلل إلى الخارج، وحين راقبت الشارع لم يكن هناك أثر للشاب، حثَّت الخطى مبتعدة نحو شارع أكثر ازدحاما واختلطت مع المارة، وبعد عدة دقائق من المشي أوقفت سيارة أجرة، وطلبت منه التوجه إلى أقرب مركز شرطة. وبعد أن انطلقت السيارة مباشرة، تحركت بسرعة سيارة أخرى تتبعها بحذر.

جرت الأمور أسرع مما كان يتوقعها حميد بكثير، فقد تم اعتقال مدير مستشفى عبد القادر محمودي وبعض العاملين معه في ظرف ساعة واحدة، هذا رغم أن الدليل الذي كانت تملكه جازية ضد المستشفى غير مشروع من الناحية القانونية، ولكن يبدو أن أحد المكلفين بمراقبة غرفة رحمة، كان من الاحترافية والذكاء ما أمكنه من التنسيق مع جهة أمنية والحصول على جميع الوثائق اللازمة، لسوء الحظ لم يتم العثور على الممرضة سعيدة، ولكن لم تكن لجازية أن تقلق من ذلك، فقد كان فريقها يتعقب كل خطواتها منذ أيام، أما ما كان يشغلها في ذلك الوقت، فهو الحرص على أن تنقل خالتها إلى مكان تتلقى فيه الرعاية الكافية، كانت قد اتصلت -مباشرة بعد اتصالها بالشرطة- بمستشفى خاص يدعى "مستشفى عليم لويس بن عبيد"، وبمساعدة حميد تمكنت من نقل المريضة قبل نهاية ذلك اليوم.

"كل شيء يجري بشكل جيد"، قالها حميد وهو يخرج بصحبة جازية من الغرفة التي كانت بها رحمة، تبسمت جازية ثم عادت بسرعة لملامح الجِد: أجل، ولكن لن أهنأ حتى أرى تلك الممرضة اللعينة خلف القضبان، وأن أعرف منها ما الذي دفعها للقيام بما قامت به.

كانت الساعة تقارب السابعة مساء، وقد خيم الظلام وأُنيرت مصابيح المستشفى، ولم يبق لهما عمل غير مغادرة المكان للذهاب إلى البيت، وكان المستشفى من الفخامة والنظافة ما يساعد المرضى والزوار على الشعور

بالرضا، وكان به مطعم يقدم وجبات نظيفة وجيدة، فاقترحت جازية أن يتناولا وجبة العشاء هناك قبل المغادرة، فوافق حميد على الفور.
جلسا في غرفة طعام واسعة، يخيل إلى الزائر لها أنه بأحد المطاعم الفاخرة وليس بمطعم مستشفى، وكان يبدو أن إدارة ذلك المكان حريصة جدا على جلب طبقة معينة من الزبائن بلا ريب، طلب كل منهما أرز محمرا مع الدجاج، ثم تساءل حميد إن كانت هذه الوجبات نفسها التي يتناولها المرضى.
تجاهلت جازية سؤاله، وقالت وهي تنظر للعدد القليل من الزوار: حينما ينتهي كل هذا وتتحسن حالة أمي، أفكر أن آخذها إلى مكان ما في إجازة طويلة، فقد تعبت كثيرا ولم تفارقني المعاناة ولو ليوم واحد منذ أن توفي زوجي.
ثم نظرت نحوه مستدركة: أنت أيضا تحتاج لمثل هذه الإجازة، فقد عانيت بسببي الكثير، كدت تقتل، ولحسن حظك أنك لا تزال تحتفظ بوظيفتك.
شعر حميد بالغبطة لأنها تفكر لأجله بهذا الشكل، وتمنى حقا لو يستطيع مرافقتها في إجازة، ولكن كان يعلم أن هذه الإجازة لن تكون مناسبة إلا بعد أن تحل جميع المسائل العالقة، ظل صامتا وقد بدا الشرود يأخذه بعيدا، ثم سمعها مرة أخرى تقول وهي تنظر مباشرة إلى عينيه: صرت تعرف عني ربما أكثر مما أعرف عن نفسي، ولكنك لم تحدثني يوما عن نفسك.
ابتسم حميد واكتفى بالقول: ربما لأنها لم تأت مناسبة لأفعل ذلك.
ردت جازية وهي لا تزال مركزة عينيها عليه، حتى أنه أحس ببعض الحرج: أرى أن الوقت مناسب لتفعل الآن.
رفع حاجبيه قليلا وقال: ماذا تودين أن تعرفي؟

كل شيء، ماضيك، طفولتك، ما هي أهم الأحداث التي مررت بها في حياتك؟
فكر حميد للحظة، ثم قال: حسنا، ولدت بولاية قسنطينة وكبرت بها، عشت مثلك فقيرا، ولكن بعكسك كان لي أب وأم، كنت أنا أكبر إخوتي.. كانت الأيام التي قضيناها في الماضي حلوة رغم كل شيء، وحين تحصلت على البكالوريا التحقت بجامعة الجزائر لدراسة القانون، وبعد تخرجي انضممت لجهاز الشرطة، ثم تمّ تعييني في هذه المنطقة وهذا كل شيء.
كان يعلم أنها لن ترضى بهذا القدر المختصر عن حياته، وهذا ما حصل بالفعل، قالت وهي تنظر للنادلة التي كانت تأتي بالطعام: وأيضا...؟
ماذا تودين مني أن أضيف؟ أحب رياضة قتالية تدعى الكابويرا، وإن كنت قد شاهدت الفيلم السينمائي الأمريكي 'Undisputed 3'، فسترين بطل الفيلم 'Boyka' يواجه المقاتل البرازيلي 'Rodrigo Silva' الذي كان يقوم بالحركات الكابويرا، وهي فن من الفنون القتالية البرازيلية، ابتكر أساسا للتعبير والترفيه عن النفس، مارسه سكان الغابات في القارة الأفريقية وانتقل إلى البرازيل عن طريق نقل المستعمرين البرتغال للعبيد من إفريقيا، من أهم مميزاته أنه يجمع بين الرقص والقتال، أي كان يستعمله العبيد للتمويه، وكي لا يتفطن الأسياد إلى التدريبات، ولها أيضا أغانيها الخاصة، وهي أغاني شعبية تغنى في البرازيل في المناسبات. وقد اختلف المؤرّخون على سبب تسمية الكابويرا، منهم من قالوا إن كلمة كابويرا هي نبتة برازيليّة تزرع في الحقول، كانت تمارس رياضة الكابويرا بينها، ومنهم من قالوا إنها شجرة تمارس رياضة الكابويرا تحتها. وفي يومنا هذا أصبحت هنالك عدة طرق للكابويرا منها: "كورداو دي أورو"، "كابويرا سول دا باهيا"، "إكس كابويرا"، "كابويرا أنالوجا"، "كابويرا ريجيونال" وغيرها... وأحس حميد انه تمادى في

الحديث عن هذه الرياضة، إلا أن جازية كانت لا تزال تستمع باهتمام، فقال مبتسما: آسف لأنني شغلتك عن الطعام بهذا الحديث، ومد يده إلى صحن الطعام ليشجعها على الأكل، فاكتفت برشفة ماء، وقالت: وهل شاركت في أية منافسات؟

لا، فكرت لأكثر من مرة في الانضمام إلى أحد النوادي القليلة المتخصصة في هذه الرياضة، ولكنني لم أفعل إلى اليوم، أكتفي في العادة بالتدريب في البيت أو حين أذهب للركض لوحدي بين الحقول..

وقبل أن يكمل، رن هاتف جازية فاستمعت للحظة، ثم قالت بعد أن أنهت الاتصال: قامت الممرضة سعيدة بتسليم نفسها للشرطة في بن عكنون هذا المساء.

من الغريب أنه لم يتصل بي أحد من مصالح الأمن ليبلغني بذلك.

ربما فضلوا الانتظار ليوم الغد، فالقضية ليست مستعجلة.

وأعادت جازية انتباهها إلى الطعام، فتناولا بعض اللقيمات في صمت، إلى أن قالت: لماذا اخترت مهنة التحقيق الجنائي؟ لا أظن أن مهنة يشاهد فيها الإنسان الجثث كل يوم يمكن أن يختارها أي شخص!

تبسم حميد وقال: صحيح، ولكنني اخترتها بإرادتي، فقد كنت منذ صغري متأثرا بروايات أجاثا كريستي وبأفلام التحقيقات الأمريكية مثل فيلم 'The Usual Suspects'، و'Se7en'.

أرى أنك تتأثر كثيرا بالأفلام السينمائية.

تبسم حميد مجددا: "ومن منا لم يتأثر بشكل أو بآخر بفيلم من الأفلام، خاصة وأنني كنت أشاهدها خلال مرحلة عمرية تسيطر عليها العواطف أكثر من التحليل العقلاني. ولكن بعد مرور السنوات ترسخ في نفسي حب

التحقيقات ومحاولة اكتشاف المجهول، لهذا تخصصت في علوم الإجرام والتحقت بجهاز الشرطة، إلا أن الواقع كان مختلفا تماما عن القصص التي طالما استمتعت بمتابعتها".

مسحت جازية فمها بمنديل ورقي، وضعته على الطاولة، ثم حملت كأس ماء وقالت: أنا أيضا كنت أتأثر أحيانا ببعض المسلسلات.

ورسمت على ثغرها بسمة لم تكد تظهر، وأضافت: كنت أحيانا أتأثر بالرسوم المتحركة، هذا رغم أنه لم يكن لدينا تلفاز في المنزل، أذكر أنني كنت أذهب مع جارتنا لبيتها من أجل مشاهدة البرامج التي كنا نحبها، وكنا نجلس بعد كل حلقة نحلم بالمستقبل، كنا نحلم أن نصبح أميرات، ولهذا كنا نلعب ألعابا نقلدهن فيها في كل شيء، ولكن كان بعض الصبية دائما يفسدون علينا اللعب، كانوا يجدون في ذلك متعة عكسنا تماما، وقد يتطور الأمر إلى الشجار.

ثم توقفت قبل أن تضيف: كانت أياما جميلة رغم ما كنا نعانيه من الحرمان، وانظر الآن.. رغم كل الخير الذي صار بين أيدينا، فأنا مستعدة لأدفع ثروة لأعيش ساعة من ذلك الزمن الجميل، زمن الطفولة والبراءة.

قاطعها حميد: بالرغم من كون معظمه وهم في وهم.

أرسلت جازية نفسا أوشى بما بقي عالقا في أعماقها من مرارة وأجابت: أحيانا يكون الوهم أحلى من الواقع، ولكنني لست نادمة على معرفة الحقيقة اليوم، فالساعة التي أود ابتياعها من الحنين لا تقاس بالمرارة التي عشتها في تلك الأيام بالطبع، ففي كل زمن أوقاته السعيدة وأوقاته التعيسة، والإنسان بطبعه يتغاضى عن كل ما هو جيد، ليعاوده الحنين إليه بعدما يمضي وينقضي. فهذه هي طبيعة الإنسان الذي لا يضبط أحاسيسه أوقات

الشدائد، وقد حاولت أن أعلّم نفسي كيف أمنع المصائب من حجب الساعات السعيدة، ولكنني لا أستطيع أن أجد خلال الأيام التي أعيشها في الحاضر، ساعة يمكن أن أشعر نحوها بالحنين بعد زمن.

رد حميد: أذكر أنني خضت نفس هذا الحديث مع أحدهم، ولن أتفاجأ إن كنت أنت هذا الشخص، فقد قلت له يومها ما سأعيده عليك اليوم، فالحنين لا يقتصر على الأوقات الحلوة فحسب، بل قد يود القلب العودة إلى أوقات لم يطق حينها صبرا عيشها، فالقلب غريب في تقلباته، وكما قال لنا السيد أحمد دردور من قبل: "الواقع مختلف كليا عن الخيال"، فقد أحببت التحقيق في عالم الخيال، ووجدته شيئا غير ذلك في الواقع، وكذلك الحنين، فما كنا لا نطيقه في الواقع، يصير شيئا جميلا حينما يصير طيفا في الخيال وضوءا باهتا في عالم الذكريات، ولهذا يحلو للإنسان أن يحلم أكثر من حبه للعمل، فالأحلام لذيذة، وتحقيقها يحتاج إلى خوض الواقع المليء بالصدمات.

ابتسمت جازية، ثم نظرت إليه نظرة حلوة وهي تقول: يعجبني هذا الكلام، ولكن ما يحزنني أنني اليوم ما عدت أستطيع حتى الحلم، كل ما صرت أفكر فيه هي الكوابيس والأفكار القاتمة.

شعر حميد بوخزة ألم وهو يرى ملامح الحزن ترتسم على وجهها، فقال مواسيا: سيكون كل شيء على ما يرام قريبا، فأرجو ألا تشغلي نفسك بما يحزنك، أحس أن قاتل زوجك لم يعد بعيدا عن أيدي العدالة، وأن تلك المرضة أو ربما أمك هي من ستقودنا إليه، وإلا فمن يا تراه يحرص كل هذا الحرص على ضمان صمتها؟.

نظرت جازية نحو شاب يدفع عجوزا بكرسي متحرك داخل القاعة، وحين التقت عينا المرأتين، ابتسمت العجوز ورفعت يدها نحو جازية محيية، تبسمت جازية وحيتها بدورها، ثم عادت لها ملامحها الجادة بسرعة حين قالت: أنا أيضا أشعر أن أمي تعرف شيئا، ولهذا أنا قلقة جدا عليها، فبالرغم من وجود بعض رجال الشرطة هنا لحمايتها لازلت غير مطمئنة، فإن كان المتسبب في الحالة التي تعيشها الآن حريص على صمتها، فلن يدخر حيلة ولا جهدا في إلحاق الأذى بها، وما أخشاه أكثر أنه لن يكتفي هذه المرة بحقنها بذلك الدواء الذي شل حركتها، وإنما سيقوم بقتلها.

لا تقلقي، فعند عودتي للعمل في الغد سأحرص على زيادة عدد الحراس، إن كان هذا سيجعلك تشعرين بالاطمئنان أكثر.

لا داعي لأن تزعج نفسك، سأطلب من عدلان شيكر، وهو من قام مع فريقه بتعقب الممرضة بأن يركزوا عيونهم هذه المرة على هذه المصحة، وسيتصلون بالشرطة إذا رأوا أي شيء مريب.

أرجو ألا يحدث أي مكروه.

أضافت جازية: ولكن ما يحيرني الآن، هو أنه إن كانت أمي تعلم شيئا عن قاتل زوجي، فلماذا لم تخبرني به من قبل؟ كانت تبدو كمن لا يعرف شيئا، ثم توفي هشام فأصيبت بصدمة نقلت إثرها إلى المستشفى، وبعدها لم تتحرك أبدا.

ربما رأت أو سمعت شيئا بعد دخولها المستشفى.

وماذا يمكن أن تسمع هناك؟

لست أدري، علينا أن ننتظر شفاءها ثم نسألها.

قالت جازية وهي تحدق في شرود نحو السقف: كم أنا متلهفة لتخبرني المزيد عن أمي الحقيقية، أريد أن أعرف كل ما يتعلق بهويتي ووالدَي، ربما أكثر مما قد تكشفه عن القاتل إن كانت تعرف عنه شيئا.

تبسم حميد، وقال محاولا أن يرسم نهاية سعيدة للقصة: ستتحسن حالتها وتجلسان معا في مكان جميل تتحدثان فيه عن الماضي، وستخبرك بما يسعد قلبك، في الوقت الذي يكون فيه كل من ألحق بعائلتك الأذى خلف قضبان العدالة.

اكتفت جازية بالقول: أرجو ذلك.

وقامت من مكانها وهي تنظر إلى ساعة يدها: علينا الذهاب فقد تأخر الوقت، سأوصلك إلى البيت وربما أعود هنا لأقضي ليلتي بجوار أمي.

لا داعي لتزعجي نفسك، سأعود بسيارة الأجرة، فالوقت لم يتأخر إلى الحد الذي توقفت فيه حركة النقل.

ردت جازية بإصرار: هيا بنا لنذهب، فأنا من عليّ الاعتذار لأنني شغلتك طوال النهار.

كان الجو صحوا تلك الليلة، ولكن كان هناك رياح قد تجلب سحبا ممطرة بعد ساعات، توقفت السيارة على بعد أمتار من منزل حميد، سار خطوات مبتعدا، ثم نظر إلى أضواء السيارة وهي تختفي بعيدا بين عشرات الأنوار، تمنى حينها أن يعود الصباح سريعا، ليرى مجددا ذلك الوجه الذي بدأ يألفه بصدق.

تجاوزت الساعة العاشرة صباحا بعشر دقائق بمركز شرطة المحمدية، وحين انتشر خبر وصول الممرضة سعيدة بن شريف، لم يكن ذلك مفاجئا لأحد، فقد سبق للمفتش فريد صياف أن تلقى اتصالا مساء الأمس في ذلك الشأن، أما المفاجأة التي لم يكن يعرفها، فهو الدليل المهم الذي كان بحوزتها، والذي كان يدين بوضوح قاتل السيد بوشو، أمر فور وصولها باقتيادها للحجز إلى حين، ثم أجرى اتصالا مع شخص ما، وحين تلقى الضوء الأخضر بإعادة فتح التحقيق، فكر لأول مرة كيف سيكون صادما لجازية أن تعرف هوية قاتل زوجها، لم يكن يعرفها معرفة شخصية، ولكنه يذكر أنه التقى بها مرة أو مرتين خلال زيارتها للمركز، وقد لاحظ أنها تعاني حقا، ومن المؤسف أن تعرف أن الشخص الذي تعلقت به هو من كان سبب شقائها.

ألقى نظرة على نسخة من التحقيق الأولي مع الممرضة، وفكر في أنها قد تكون صادقة، كما قد لا تمت أية كلمة أدلت بها للواقع بصلة، ثم دفع بالقرص الملحق في مشغل أقراص الحاسوب، وأعاد مشهد الجريمة لأكثر من مرة، ودون أن يفكر في أية احتمالات تخص الموضوع، قام من مكانه ونظر من النافذة التي كانت تطل على موقف للحافلات، كانت الضوضاء الصادرة منه تمنعه دائما من فتحها، ثم استدار وخطا خطوات حول المكتب عاقدا ذراعيه خلف ظهره مفكرا، كان مترددا بين إعادة حميد لنشاط التحقيق أو إسناد القضية لشخص آخر.

وبعد مُضي بعض الوقت، أقنع نفسه بأنه إن كان يريد إنهاء القضية التي صارت بالنسبة إليه مصدر صداع، فعليه أن يكلف شخصا يعرف عنها كل شيء، ولن يحتاج لوقت حتى يدرسها من البداية، ولكن ما يعيب ذلك الشاب وهو الأمر نفسه الذي جعله مترددا في شأنه، كان محبا للوصول لأدق التفاصيل، -عكس شولي الذي تمنى لو بقي في الخدمة أطول- ولا يحب أن يدع أي سؤال معلق، وهو أمر جيد من الناحية المبدئية، ولكن ليست كل القضايا وكل الظروف تسمح باستعمال تلك الطريقة.

استدعى حميد عبر الهاتف وعاد إلى مقعده ينتظر وصوله، حين دخل أشار إليه أن يجلس وطلب منه أن يصغي جيدا: "ظهرت أدلة جديدة فيما يخص القضية التي كنت تعمل عليها مؤخرا، لهذا ارتأيت إعادة فتحها من جديد، وحتى أكون صادقا معك فقد ترددت كثيرا قبل إعادتك للتحقيق، لهذا فسأعطيك مهلة أسبوع واحد أو عشر أيام على الأكثر لتنهي العمل، والمقصود بإنهاء القضية هنا هو محاولة معرفة الأسباب الحقيقية للقاتل وليس محاولة إيجاده، فالدليل الذي أخبرتك عنه يظهر هويته بشكل واضح".

وأشار بسبابة يده اليمنى نحو حميد وأضاف: وقد اخترتك لهذه المهمة لسببين، أولهما هو حبك لاكتشاف أدق التفاصيل، وثانيهما لأنك عملت على هذه القضية بجد ولم أرد لأحد غيرك أن يقطف ثمارها.

حاول حميد أن يسأل عن هوية القاتل، ولكن الضابط فريد صياف واصل: "خذ هذه الأوراق" وأشار إلى النسخة التي أرسلتها شرطة بن عكنون، ثم أخرج القرص من الحاسوب ووضعه مع بقية الأوراق: "ستجد كل ما تحتاجه هنا، ولا تنس أن تستجوب الممرضة فيما يخص قضيتك، أما

جريمتها في حق خالة جازية بوشو فسيتولاها "ياسين ربيعي"، وإن سمح لك أن تكمل التحقيق في هذا الشأن فلا مانع عندي".

شعر حميد بفرحة غامرة، فقد عاد للعمل الذي يحبه، توجه للمكتب الذي كان يعمل به، وأخبر زميلة له أن تكمل ما هو مستعجل من العمل إلى حين تعيين شخص آخر مكانه، ثم انطلق مباشرة إلى قاعة كانت تستعمل للاستراحة، قرأ التقرير بسرعة ولم يجد به أمرا جديدا، إلا ما تعلق باكتشاف المرأة لقرص DVD، أما ما سوى ذلك فقد كانت جازية قد زودته بكل ما كان يخبرها به عدلان شيكر.

شغّل جهاز الحاسوب الذي كان يستعمل في العادة في الألعاب، أو الدردشة أوقات الهروب من ضغوط العمل، وبفارغ الصبر انتظر أكثر من دقيقة حتى أصبح الجهاز جاهزا، دفع القرص داخل الوحدة المركزية، وقبل أن يشغل الفيديو أبعد يده عن لوحة المفاتيح واعتدل في كرسيه ناظرا نحو الشاشة نظرة متفحصة، كان كمن ينظر لصفحة الماء قبل أن يغطس رأسه بها، أخذ نفسا عميقا وهو يحاول أن يمارس طقوسا خاصة قبل اكتشاف الحقيقة، الحقيقة التي بالكاد دفع حياته ليتوصّل إليها، مال أخيرا نحو الأمام وضغط بسرعة أحد الأزرار بلوحة المفاتيح، وهناك رأى السيد بوشو في مكتبه، تذكر أنه لم ير الرجل في حياته قط، وها هو الآن أمامه يتحرك، كانت جازية تملك بعض التسجيلات لزوجها قبل وفاته، ولكنه لم يخطر بباله يوما أن يطلب منها أن تريه شيئا من ذلك، لم يكن الأمر ذا أهمية في القضية، ولكنه وهو يشاهد الرجل أمامه، تمنى لو أنه شاهد ذلك من قبل، لم يكن يدري لماذا بالضبط، ولكن كان يشعر أن الأمر سيكون له فائدة ما، كان على الأقل يعرف كيف كان الرجل يبدو وهو حي، كيف كان يتحرك،

وكيف كان يضحك ويتصرف، وربما كان سيعطي للتحقيق معنى غير المعنى الذي كان يشعر به، فهو يذكر أنه طوال فترة العمل كان يقول كلمات مثل: "الضحية".. "القتيل".. "السيد بوشو"، أو يحدث جازية بكلمة "زوجك".. ولكنه كان يقول ذلك دون طعم، أما الآن فهو يحس أن الحياة بدأت تدب في تلك الألفاظ.

كان السيد وحيدا في مكتبه، وبما أن المفاجأة لم تظهر بعد، فقد أعاد مشاهدة اللحظات الأولى من الشريط وحاول أن يلاحظ بدقة كل حركات الرجل، كان يراه كأنه عاد حقا للحياة، ولم يكن ذلك أول شريط يرى فيه تسجيلا لشخص بعد موته، ولكن لهذا الشريط طعم خاص، ربما لأنه كان يرى أن بوشو شخص من عالم الخيال الذي لا سبيل لرؤيته، وها هو الآن يرى ما يخالف الواقع، واستمرت الدقائق حتى ظهرت جازية تحدث زوجها وبدا بالشكل الذي وصفته تماما، ثائرا وغير لطيف تماما، وعاد حميد يتساءل إن كان سبب حالته تلك، هو محاولته إفساد المودة بينهما قبل أن يقوم بتطليقها كما ذكر السيد دردور، أم أن هناك سببا آخر، وخرجت جازية وعاد بوشو للكتابة، وقام بتسريع الفيديو إلى أن ظهر الشخص الذي قام بالجريمة، لم يكن وجهه ظاهرا حال دخوله بشكل واضح، ولكن حميد كان يعرف صاحب تلك الملابس وذلك الشكل، لم يستطع تصديق ذلك، فأكمل المشاهدة في شبه ذهول حتى ظهر وجه الشاب أخيرا.

أوقف الفيديو بسرعة وعاد للوضعية التي كان فيها قبل تشغيل الشريط مباشرة، ولكن هذه المرة فاغر الفاه جاحظ العينين. تجمد في مكانه كليا وأوقف أنفاسه حتى كاد يختنق، وبعد صراع مع عناده في الحصول على الهواء، أرسل أخيرا شهقة طويلة وأرخى أطرافه التي جمدت لبعض الوقت،

ثم بلع ريقه وظل جالسا أمام الحاسوب دون أن يفعل شيئا، لم يرد أن يكمل المشاهدة ولا أن يفكر، أوقف كل شيء مثلما أوقف الفيديو ونفسه وحركته من قبل، كان في حاجة لأن يدخل في حالة من البلاهة أو أن يتصرف كمن هو في حالة انهيار حاد، ومر اسم جازية كلمح البرق وهو في حالته فعضّ شفتيه، ووضع رأسه على حافة طاولة الجهاز بعد أن دفع لوحة المفاتيح تحتها وأغمض عينيه: "أيعقل أن يكون هشام هو القاتل؟!" وفكر في أن هشام ربما يكون قد دخل وخرج مثلما فعلت جازية، فرفع رأسه بسرعة وأعاد تشغيل الفيديو، إن كان هشام قد خرج، فهذا شيء جيد، ولكن عليه أن يلوم نفسه طويلا، لأنه أسرع بالحكم قبل أن يكمل المشاهدة، وفي اللحظة التي طعن فيها هشام زوج قريبته أغمض عينيه بسرعة ولم يرد رؤية بقية المشهد، ثم انحنى للأسفل ليضغط على زر في الوحدة المركزية، أخرج بعدها القرص بسرعة ووضعه على كرسي صغير على يمينه، فصل الكهرباء عن الجهاز دون أن يعبر على مراحل إطفائه المعتادة والمثيرة للأعصاب، وعاد ليخفي رأسه بين ذراعيه اللتين عقدهما فوق المساحة الشاغرة من طاولة الجهاز.

حاول ألا يفكر في شيء هذه المرة أيضا، فالحقيقة التي أراد كشفها منذ زمن ولم يطق صبرا على الوصول إليها، صار يتمنى الآن لو أنه لم يعرفها أبدا.

مرت دقائق أخرى وهو على تلك الحالة، ثم قرر أن يبدأ العمل بسرعة، وأن لا يجعل العواطف تقف عائقا أمام القيام بمهمته، توجه مباشرة إلى مكتب ياسين ربيعي فوجده غارقا بين الملفات، أخبره بنبإ عودته إلى التحقيق و برغبته في تولي قضية رحمة، بدا الرجل الذي صارت جل القضايا تصب على رأسه بعد تقاعد شولي سعيدا بتخفيف بعض العبء عليه، وافق دون

تردد، ثم قدم لحميد التقرير الذي كتبه عن الموضوع، لم يكن حميد في حاجة لقراءته أيضا، إلا أنه كان في حاجة لمعرفة أقوال مدير المستشفى حين اعتقاله، ولذلك أكد ربيعي أن الرجل أنكر معرفته بأي شيء، وبأنه كانت تأتيه تقارير عن المريضة من الطبيب برداوي، والذي كان يدون عليها إصابتها بشلل كلي، وبعد استجواب الطبيب برداوي، أكد بدوره أن المخدر المستعمل لا يترك أية آثار على وجوده، وأنه من الصعب على أي طبيب أن يكتشف تعرضها للحقن بعد ساعات قليلة فقط من دخوله الجسم، وكان التقرير الذي تحصلنا عليه من مجموعة من المتخصصين، مطابقا لما قاله الدكتور برداوي، ولهذا لم نستطع أن ندين أحدا بالتواطؤ في هذا الجرم، ما عدا الممرضة سعيدة بن شريف، وهي الآن هنا حسب ما سمعت، ولكنني لم أقم باستجوابها بعد.

حمل حميد مجموعة من الأوراق كان قد دون عليها ربيعي تفاصيل التحقيق، وقال وهو يغادر المكتب: شكرا ياسين، سأتصل بك إن احتجت لشيء.

ولم يرد أن يضيع الوقت، فطلب من أحد الزملاء أن يحضر سعيدة بن شريف لغرفة التحقيق، فيما حاول هو أن يدون بعض الأسئلة التي عليه طرحها، وبعد وقت قصير دخلت سعيدة في معطف خفيف فوق ثوب أزرق طويل، كانت تبدو جد هادئة، غادر الشرطي الذي رافقها، فطلب منها حميد الجلوس على الكرسي المقابل، بقيت تترقب ما سيقوله فيما استمر هو ينظر إلى ورقة أمامه للحظة، ثم قال: السيدة سعيدة بن شريف، ثمانٍ وعشرون سنة، أم لبنت في العاشرة من العمر، وتعملين كممرضة بمستشفى عبد القادر محمودي.

ورفع رأسه نحوها، فاكتفت بهز رأسها موافقة، ثم عاد للقول: أمامي كل الكلام الذي أخبرت به الشرطة في بن عكنون، كنت تتلقين اتصالات من شخص مجهول، وكان يطلب منك حقن إحدى المريضات بالمستشفى الذي تعملين به، تدعى رحمة عواد بمادة تبقيها في شلل كامل، ثم تعاودين الكرة كلما كان تأثير المخدر يشارف على الانتهاء، وفي المقابل كنت تتحصلين على مبلغ معتبر من المال، يصب مباشرة في رصيدك البريدي وبشكل منتظم، عاود الرجل المجهول الاتصال وأخبرك باكتشاف أمرك، ثم أرسل من يصطحبك للاختباء في بيت ببن عكنون، وهناك وعن طريق الصدفة اكتشفت تسجيل كاميرا مراقبة لحظة مقتل السيد رضا بوشو، مدير شركة بوشو للأجهزة الالكترونية، وقد ذكرت بأنك لا تعرفين هوية الضحية ولا القاتل، ولكن.. وعلى أمل التخفيف في عقوبة جريمتك على تخدير السيدة رحمة عواد، قمت بتسليم الدليل إلى الشرطة.

ردت سعيدة بصوت ضعيف: هذا صحيح.

حسنا أريد أن أعرف كيف حصلت على ذلك الدواء الذي يدعى 'Morpheus'، فحسب ما علمت أنه دواء نادر وممنوع، وبالكاد يعرفه قلة من الأطباء عندنا.

أطرقت سعيدة رأسها وهي تجيب: كنت أجد كمية تكفيني كل أسبوع في غرفة نومي، كنت أجدها مخفية تحت السرير، وكان الغريب هو من طلب مني أن أبحث عنها هناك.

وكيف استطاع أن يدخل حتى غرفة نومك دون أن يتفطن إليه أحد؟

هذا ما لا أعرفه، فيبدو أنه كان يعرف كل تحركاتي وتحركات أسرتي جيدا، وما كان يحيرني أكثر هو كيف حصل على مفتاح شقتي؟ وكيف عرف رقم رصيدي البريدي والكثير من المعلومات الشخصية عني؟

إذا كان يستطيع دخول بيتك، فمن السهل عليه أن يحصل على أي معلومة من الوثائق الشخصية التي تحتفظين بها في البيت.

ثم نظر إلى أوراقه مجددا فيما ظلت سعيدة صامتة، إلى أن قال: ألم تنتابك أية شكوك حول هوية هذا الرجل، ربما شخص كان يحوم حولك في وقت من الأوقات، أو ربما بدا صوته عبر الهاتف قريبا من صوت تعرفيته.

لا، لا أشك في أي شخص.

أحس حميد بالإحباط، ولكنه استمر في طرح الأسئلة: كان من استأجرك يريد أن يبقى رحمة صامتة لعلمه أنها تعرف شيئا، وهذا الأمر نعتقد أنه حصل في المستشفى وليس قبل أن تدخل إليه، فهل حدث وأن حصل أمر غير عادي في الغرفة التي كانت تقيم فيها، أو حتى الغرف المجاورة؟

فكرت سعيدة بسرعة، ثم أجابت: خلال مداومتي لا أذكر أنه حصل شيء، ولكن يمكنك أن تسال الممرضة التي كانت تأخذ مكاني أوقات المناوبة.

وهل تعتقدين أن تلك الممرضة كانت تحقن رحمة مثلما كنت تفعلين أنت.

أنا متأكدة من أنها لم تكن تفعل ذلك، فمفعول المخدر يدوم لفترة كافية أكون خلالها قد عدت لأحقنها مرة أخرى.

شعر حميد بالاشمئزاز من صراحة المرأة، وتمنى لو تعاقب أشد العقوبة، إلا أنه كان يعلم أنه ليس في موضع ليحاكم فيه أحد، كما أنها كانت تملك أسبابا كافية لتحصل على تخفيف في الحكم. وتذكر أنه قرأ في تقرير ياسين ربيعي شهادة الممرضة، ولكن لم تكن أقوالها بذات قيمة، لابد أنها الممرضة

الأخرى، فخلال عملية الاعتقال هي من كانت تشرف على رعاية رحمة، أعاد تفحص ملف رحمة من جديد، وهناك وجد تصريحات كريمة بيزو وبعض المعلومات التي تؤكد أنها الممرضة المطلوبة، ورغم ذلك أعاد ترديد الاسم لسعيدة فأجابت بالإيجاب. كانت خلاصة شهادتها أنها لم تكن تعلم ما كانت تقوم به زميلتها، فهي لا تلتقي بها إلا بضع دقائق وقت دخولها أو مغادرتها.

فكر في أن يتصل بها لاحقا، ثم عدل من جلسته ونظر إلى الممرضة التي كانت حالتها تثير الشفقة، إلا أنه لم يكن يشعر بأي تعاطف نحوها: "دعينا نتحدث الآن قليلا عن الدليل الذي عثرتِ عليه في قضية مقتل السيد بوشو، والحق أن روايتك عن وجود دليل مهم كهذا بتلك الطريقة لم تكن مقنعة بشكل كاف، فكيف يعقل أن يُوضع دليل بهذه الأهمية في جهاز يعلم جيدا أنك ستستعملينه على أي حال".

لست أدري، ربما نسيه هناك، أو ربما كان لا يعبأ إن عثرت عليه أنا أو حتى عثرت عليه الشرطة، فقد سمعت أن القاتل الآن في عداد الأموات، كما أنه من أقارب زوجة الضحية، فمن سيخسر باكتشاف هوية القاتل إذن؟

تفاجأ حميد من هذا التحليل، ورأى أنها محقة تماما، بل والأكثر من ذلك ربما كان يريد أن تعثر عليه المرأة وتقدمه إلى الشرطة، وهذا ما يفسر وجود القرص المضغوط في جهاز DVD، وحرصا منه على أن تشاهد سعيدة الفيديو، دوّن كلمة سري على ظهر القرص، وبذلك لا يمكنها أن تتجاهله أبدا، ولكن السؤال الآن: لماذا فعل ذلك؟ إن كان هشام هو القاتل، فلابد أن هذا الرجل هو من ساعده على ذلك، أو ربما أغراه بالمال كما أغرى الممرضة، وربما رحمة كانت تعلم بهذه الصفقة، نعم لابد أنها كانت تعلم،

ولكن حين قام الرجل المجهول بقتل هشام، أدرك أنه سوف يُغضب رحمة ويدفعها إلى الكلام عن هويته فقام بتخديرها.

كان هذا التفسير مقنعا جدا بالنسبة له، إلى الحد الذي قام من مكانه وهو يدرك أن كل شيء انتهى في هذه القضية، وما عليه إلا أن ينتظر تحسن حالة رحمة حتى تخبرهم بمن قتل هشام. ولكن الأمر الذي لا يقل صعوبة عن اكتشافه الحقيقة، هو كيف سيخبر جازية بكل هذا؟ كيف ستتقبل هي أن ابن خالتها والمرأة التي كانت بمثابة أمٍ لها وراء قتل زوجها؟ إن كان الشخص الوحيد الذي تبقى لها في هذه الحياة قد دمر حياتها، فأكثر ما صار يخشاه عليها، أن تقوم بإيذاء نفسها أو أن تقدم على فعل أحمق. عليه أن يقف بقربها في هذه الأوقات العصيبة.

وضع جميع الأوراق والملفات التي يحتاجها في محفظته ونظر إلى ساعته، كانت تقارب الواحدة زوالا، وكان من المفترض أنه قد اتصل بجازية مثلما اتفقا بالأمس، ولكنه الآن لا يريد أن يفعل ذلك، كان يعلم أنها ستتصل به، ولم يكن يعلم كيف سيخبرها بالأمر.

29

رن هاتف حميد أثناء تناوله وجبة خفيفة للغداء، تمنى ألا تكون جازية هي المتصلة، ولكن خاب ظنه حين نظر إلى شاشة الهاتف، فكر في عدم الرد حتى يفرغ من طعامه، ومن ثمة يحدثها في مكان أكثر هدوءا، ولكنه قرر أخيرا أن يضغط على الزر ويجيب، جاءه صوتها غاضبا وبدون أية مقدمات:

حميد.. هل تصدّق بأن هشام هو قاتل زوجي؟

بما أنه قد وصلها الخبر، فلابد من تفسير كل شيء الآن.

اسمعي جازية، وصلنا شريط.. وقبل أن يكمل صرخت عبر الهاتف مقاطع.

"دعنا من الشريط اللعين، هل تصدّق أنت بأن هشام قاتل زوجي؟"

اسمعي جازية.. علينا أن نلتقي ونتحدث في الأمر.

بل أريد ردّك الآن، أخبرني ما هي النتيجة التي توصلت إليها.

صمت مترددا، وكان عليه قول الحقيقة مهما كانت المشاعر قاسية: "لم يترك لنا الدليل أي شك في أن هشام هو قاتل زوجك".

وساد صمت آخر تمنى فيه حميد أن تتوقف أنفاسه على أن يقف موقفا مثله، وبعد لحظات أقفلت جازية الخط دون أن تقول كلمة أخرى. أحس حميد بانقباض شديد، وظل شاخصا بصره في شرود إلى أن سمع ياسين ربيعي يقول: لا تقلق عليها فستتجاوز الصدمة قريبا.

تمنى حميد لو كان يؤمن بما كانت تؤمن به، ولكن ما من سبيل لذلك، كان الدليل واضحا وضوح الشمس، هل يعقل أن يُكذِّب عينيه ليرضي قلبه؟ إن

كان يود أن يكون محققا محترفا فلابد أن يضع العواطف جانبا، ثم إن لم يكن ذلك هشام فمن يكون؟ صحيح لم يلتق به في حياته، ولكنه رآه ميتا، رأى صورته، كانت الثياب نفسها، الوجه نفسه، ليته يكذب كل ذلك ويصدق جازية، اللعنة.. ليته يصدق جازية ويكذب كل الأدلة والعالم بأجمعه..

لم تعد له رغبة في الطعام، فترك ما بقي منه فوق الطاولة، واعتذر من ياسين ربيعي وقد قرر أن يشكك فيما رأت عيناه ويبحث من جديد، كان التحدي الذي سيواجهه أن الوقت لم يكن في صالحه، فقد حدد له الضابط فريد صياف أقل من عشر أيام لإغلاق القضية، توجه مباشرة إلى القسم وأعاد التدقيق في كل الملفات، ثم أخذ الهاتف وطلب رقم كريمة بيزو، الممرضة التي كانت تعمل في المناوبة مع سعيدة بن شريف، بعد فترة انتظار قصيرة سمع صوتا رقيقا عبر سماعة الهاتف: نعم.

معك المحقق حميد لعميري من قسم الجنايات.

أحس أن صوتها تغير قليلا نحو نبرة جافة: "ماذا تريد؟" فبعد استدعائها مؤخرا على إثر الفضيحة في المستشفى الذي تعمل به، أصيبت بصدمة خفيفة، ولم تعد تذهب إلى العمل منذ ذلك الحين، خمّن حميد سبب انزعاجها، فحاول أن يطمئنها: "لا داعي للقلق، لدي سؤال واحد ليس له علاقة بما كانت تفعله سعيدة بن شريف لو سمحتِ".

قالت بعد صمت بنبرة أقل حدة: ماذا تريد؟

كنت أنت وسعيدة من اهتم برحمة منذ دخولها المستشفى؟

وكانت كريمة بزيو تتوقع سؤالا ليس له أي علاقة برحمة، ولذلك عادت تتحدث بعصبية: أخبرت رفاقك بأنني لم أكن على علم بأي شيء، كانت

سعيدة تقوم بكل ذلك دون أن تخبر أحدا، ليس لي أية علاقة بالموضوع.

أعلم أعلم سيدتي، لا داعي للقلق، فأنا متأكد بأنه لم تكن لك أية علاقة بما كانت تفعله سعيدة، ولكن سؤالي عن أمر آخر، كنت أود أن أعرف إن كنت تذكرين حدوث أمر غريب منذ أن دخلت رحمة المستشفى، من كان معها في الغرفة خلال فترة إقامتها، أي شيء غير عادي؟

لا أذكر أنه حدث أمر كالذي تظن، ففي الغالب من يشاركها الغرفة يكون في حالة غيبوبة، ولا ينتقل إلى بعد أن يصحو أو يفارق الحياة.

هم حميد أن يشكرها ويقفل الخط، إلا أن سؤالا آخر قد خطر له: في نفس تلك الفترة، أي منذ أن دخلت رحمة المستشفى، هل حدث وأن تغيّبت عن العمل؟

لا أذكر أنني تغيبت، ولكن أذكر أن مساعدة المدير اتصلت بي يوما قبل مجيئي لمداومتي وأخبرتني أن هناك من سينوب عني ولا داعي لأن أحضر.

قال حميد بكل اهتمام: متى كان ذلك؟

لا أذكر اليوم بالضبط، سأتفقد مفكرتي وأخبرك لاحقا.

أقفل حميد الخط وانتظر قرب الهاتف وهو يحمل قلما، حين عاودت الاتصال دون التاريخ بسرعة وشكرها، وبعد دقيقة كان يجري اتصالا آخر بالمستشفى يطلب منهم أسماء المرضى الذين رقدوا في غرفة رحمة أو الغرف المجاورة في ذلك التاريخ، وطلب منهم إرسال القائمة عبر الفاكس.

كان يعلم أن تلك المعلومات لن تصل قبل ساعات، لهذا أراد أن يستغل الوقت، فأخذ إحدى سيارات الشرطة وتوجه إلى بن عكنون بمفرده، استقبله هناك المحقق عبد الكريم ساطع في مكتبه، كان رجلا بمثل سن شولي، إلا أن سنوات العمل الطويلة لم تبد أنها أثرت كثيرا في نشاطه،

تحدثا قليلا عن قضية مقتل بوشو، وقد بدا أن لدى عبد الكريم ساطع اطلاعا بسيطا عن القضية، وبعدها سأل حميد عن أدلة جديدة، ربما تكون الشرطة هناك قد عثرت عليها في البيت الذي كانت تختفي به الممرضة سعيدة، فتراجع عبد الكريم بمقعده إلى الخلف، جذب درج مكتبه، ثم أخرج أقراصا وهو يقول: كان علينا تجريب عشرات الأفلام الوثائقية والسينمائية حتى عثرنا على هذه، فلم يكن إيجادها بالسهولة التي وجدت به الممرضة دليل الجريمة كما ادّعت.

نظر حميد إلى الأقراص التي كانت معبأة في غلاف فيلم ' Catch me if you can' والتي تحكي قصة المزور الأمريكي الحاذق 'Frank Abagnale Jr' وسأل: وماذا بهذه الأقراص؟

وعوض أن يجيب المفتش، أدار شاشة الحاسوب ناحية حميد، وشغّل الأقراص الواحد تلو الآخر، كان كل قرص يسجل ما التقطته كاميرا مراقبة من جزء مختلف من بيت السيد بوشو، ولم يكن هذا مفاجئا لحميد، فقد أخبرته جازية أن البيت كان مراقبا، ولكن لم يكن يعلم ما الغاية من ذلك؟، كانت الأماكن المراقبة هي المطبخ، غرفة نوم جازية، غرفة الجلوس، وبالطبع مكتب بوشو الذي سبق وأن عثر على تسجيلاته، أما وقت التسجيل، فقد كان يوضح هذه المرة بجلاء لماذا وضعت تلك الكاميرات.

أخرج المحقق آخر قرص، فيما علّق حميد: كل التسجيلات كانت صبيحة مقتل السيد بوشو، وهذا يوضح أن القاتل كان يراقب جازية بصفة خاصة أو أي زائر قد يدخل فجأة، وبهذا يضمن قيامه بجريمته دون أن يكتشف أمره أحد.

تقصد أن ذلك الشاب قبل أن يرتكب جريمته، كان على اتصال بأحد يوجه تحركاته بناء على ما تظهره الكاميرات؟

هذا صحيح.

ولماذا يسهّل علينا العثور على هذه الأدلة؟

ربما لأنه يقدم لنا كبش فداء، علّنا نكتفي به ونكف عن مطاردته، وهو على وشك تحقيق غايته، فيبدو أن الضابط فريد صياف قد التقم الطعم ويريد إغلاق القضية مجددا بعد أسبوع من اليوم.

علق عبد الكريم قائلا: سيكون عليك بذل الكثير من الجهد لتصل إلى الرجل الذي يقف خلف كل هذا.

فهم حميد بوضوح أن المحقق لن يقوم بأي جهد لمساعدته، فأطرق محدقا نحو سطح المكتب، ثم أومأ إلى العنوان المدون على غلاف الفيلم: "أتظن أن المجرم يخاطبنا بهذا العنوان".

أعاد المحقق ترجمة العنوان بصوت مسموع: "أمسك بي إن كان يمكنك ذلك" وابتسم. "أجل، لابد أنها رسالة يتحداك فيها بوضوح".

قام حميد بعد أن أخذ نسخا من التسجيلات، وشكر المحقق ثم غادر. عاد بسرعة إلى مكتبه على الساعة الرابعة مساء، كان من المفترض أن يكون قد عاد للمنزل في مثل ذلك الوقت، ولكنه صار يفضل أن يستمر في العمل لساعات متأخرة من الليل، على أن يعود للعمل الممل في المكتب.

وجد الورقة التي أرسلت من المستشفى قرب الفاكس دون أن يسحبها أحد، وبسرعة قرأ ما كان مدونا بها، كان هناك اسم كفيل بأن يبعث في نفسه أملا كبيرا في تفسير ما يحدث: "علي سعدي"، ورجع بذاكرته قليلا، فتذكر أن سعدي دخل يوم تعرضه لحادث إلى المستشفى نفسه الذي دخلت به

رحمة، ولكن لم يكن يعلم أنه أدخل إلى الغرفة نفسها التي كانت بها، لابد من أن رجلا قريبا من سعدي يقوم بكل هذه الأفعال، وهو ما يفسر أيضا أن سعدي كان متورطا قبل وفاته، ولكن كان عليه أمر آخر لابد أن يتحقق منه، رفع سماعة الهاتف واتصل بالممرضة بيزيو مجددا ليسأل عن حالة رحمة قبل وبعد هذا التاريخ، وبعد أن أجابت عن سؤاله أقفل الخط وراح يفكر بناء على معلوماتها. كانت رحمة في تحسن ملحوظ، وبعد ذلك التاريخ دخلت في حالة شلل، وهذا يفسر أن الممرضة سعيدة بدأت تحقن رحمة بتلك المادة بعد هذا التاريخ، أي أن هناك احتمالا أنها كانت في كامل وعيها تلك الليلة واستطاعت أن تكتشف شيئا، وحتى تبقى صامتة صارت ضحية بدورها لتلك الحقن المخدرة.

كان عليه أن يسأل سعيدة مزيدا من الأسئلة، فتوجه مباشرة نحو زنزانتها برفقة إحدى الشرطيات. كانت متمددة على الأرض وملتحفة بغطاء ثخين، حين رأت حميد اعتدلت ونظرت نحوه بارتياب، حاولت الشرطية فتح الزنزانة، ولكن حميد رفض بحجة أنه لن يطيل البقاء، سألها إن كانت قد عملت في مناوبة كريمة بيزيو فأجابت بالنفي، قالت إنها خرجت باكرا ذلك اليوم. ثم سأل حميد باهتمام: لماذا؟

لم يكن هناك الكثير من العمل، هذا كل شيء.

ألم يطلب منك أحد المغادرة باكرا؟

نظرت إليه بانزعاج وسألت: هل هذا مهم؟

أؤكد لك أن أي كلمة تقولينها في غاية الأهمية بالنسبة للتحقيق.

حسنا كان هناك من طلب مني المغادرة.

ثم راحت تشرح كيف أنها بدأت تحقن رحمة بمادة الMorpheus مباشرة بعد هذا التاريخ، وكأنها كانت تريد أن تغير الموضوع لكي لا تفشي هوية من أعطاها الأمر.

صار حميد الآن على يقين من أن رحمة شاهدت شيئا تلك الليلة، بقي عليه أن يعرف من زار سعدي في ذلك الوقت، كما عليه مراقبة أصدقائه وأقاربه، وإعادة استجواب مدير المستشفى الذي يبدو أيضا أنه متورط حتى أخمص قدميه، وكان عليه تأجيل كل ذلك إلى الغد، فقد بدأ يشعر بالإرهاق، ولكن قبل أن يذهب إلى البيت، رأى أن يقوم بأمر مهم بالنسبة إليه، عليه أن يزور جازية ليطمئن عليها و يُطيِّب خاطرها، فلم يعد يحتمل فكرة كونها غاضبة منه، حمل نسخا من الأقراص الخاصة بالكاميرات التي كانت تراقب بيتها، وكذلك الفيديو الذي يثبت تورط هشام في الجريمة، وهمّ بأخذ إحدى سيارات الشرطة، ولكنه غير رأيه وأخذ سيارة أجرة.

توجه إلى مستشفى عليم لويس بن عبيد، لأنه كان يعلم جيدا أنها ستكون هناك في هذا الوقت، وحين وصل شاهد سيارات الشرطة والإسعاف تطوق المكان، تعجب من أن أحدا لم يخبره بوقوع حادث هناك، ترجّل مسرعا، وحين اقترب من الحاجز سأل شرطيا عما حدث، كان ما سمعه مروعا:

أحدهم كان ينوي تفجير المستشفى بقنبلة يدوية، ولولا لطف الله لكانت الكارثة، كانت ستنفجر في مخزن صغير لأدوات التنظيف قبل أن يتصل أحدهم ويبلغنا بوجودها.

فكر حميد بسرعة: أيعقل أن تكون رحمة هي المستهدفة بهذا العمل؟ أمر لا يصدق، يقتل عشرات المرضى والموظفين من أجل قتل امرأة واحدة، ولكن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد تخمين وعليه أن يتأكد بنفسه. دخل المستشفى

بصعوبة من بين مئات الحشود المجتمعة، وحين صار بالداخل، توجه مباشرة إلى غرفة رحمة، لم يكن أحد هناك، سأل عنها إحدى الممرضات، فلم تبد متعاونة حتى أظهر هويته، أخبرته أنها نقلت إلى مكان ما، ولكنها لا تعرف أين بالضبط، فكر في أن ذلك التكتم جزء من إجراءات إضافية للحماية. أخرج هاتفه النقال واتصل بجازية، لم ترد على أي من المحاولتين، وفجأة رأى الطبيب الذي فحص رحمة بالأمس، لحسن حظه أنه لا يزال يذكره بعد أن رآه مع جازية في وقت سابق، كان في عجلة من أمره، ولكنه استطاع أن يقول قبل أن يغادر: تم نقلها إلى غرفة خاصة بالطابق العلوي، ففي العادة لا يدخلها إلا الشخصيات المرموقة لتوفر أجهزة حماية متطورة بها، ولكن يبدو أن تلك المريضة تمر بظرف خاص.

وعاد حميد يفكر في أنه من المفترض أن توضع أجهزة الحماية في مدخل المستشفى وليس في آخر طابق، ولكن وبعد أن كاد ينسف المبنى على آخره، وضعوا أخيرا جهازا لكشف المعادن في المدخل الرئيسي.

كان في مدخل الطابق الأخير رجلين مسلحين بثياب موحدة، رفضا السماح له بالدخول رغم كشفه عن هويته، فكر في أن يتصل بجازية، غير أن ذلك لن يكون ذا نفع إن كانت ترفض الحديث معه، وفجأة رن هاتف أحد الرجلين، وبعد أن استمع للمتصل للحظة أجاب: "أجل". ثم أخفى الهاتف واتجه بالحديث لحميد: هناك من يود أن يقابلك.

من الغريب أنه لم ير أحدا يمر في الجوار، فكيف عرف هذا الشخص أنه هناك؟

وكان الطابق من الفخامة؛ بحيث يخيّل إليك أنك في أحد القصور، سار مع الحارس متجاوزا البهو الذي يقود إلى الغرف، واستمرا في الصعود إلى باب

جميل يقود إلى السطح، كانت الشمس حينها قد بدأت تصطبغ بلون الغروب، وأشعتها تنساب بين قمم العمارات الشاهقة ساطعة بقوة قبل أن تخبو وتتلاشى، كان المكان شاهقا حقا؛ بحيث بدت المدينة كمجسم صغير تظهر فيه كل التفاصيل، كما أن السطح صمم ليكون مكانا للاسترخاء والتأمل، زرعت بعض النباتات على حوافه، فيما تم تغطية المساحة المتبقية ببلاط جميل، ووضعت في زاوية تسمح برؤية الشارع الرئيسي طاولة مع مجموعة كراس من قصب الخيزران.

كان يجلس حول الطاولة السيدة زهية دحماني، وهي مديرة المشفى، مع شخص في الخمسينات يبدو تابع لجهاز الأمن من خلال مظهره، وعلى اليمين كانت جازية، لابد أنهم اختاروا هذا المكان ليخففوا بعض الضغط عليها، حينما اقترب تحاشى النظر إلى جازية وقال: الحمد لله على السلامة، لم أسمع بالخبر حتى وصلت للتو إلى هنا.

أشارت زهية له بالجلوس، ثم قالت: حدث الأمر على الساعة الرابعة مساء، كانت ستكون أكبر كارثة عرفتها البلاد منذ سنوات المجازر التي حدثت خلال التسعينيات.

ردد حميد مجددا: الحمد لله الذي لم يسمح بحدوث ذلك، يبدو أن المستهدف من هذا العمل شخص واحد.

وساد صمت لم يلفظ فيه أحد بأيّة كلمة، وكأن الحديث في هذا الشأن سيحرج البعض، ثم قالت زهية وهي تعتدل في مكانها: شددنا إجراءات الأمن، وقمنا بنقل رحمة إلى غرفة أكثر أمنا إلى حين العثور على المعتدي.

تساءل حميد بصفته محققا هذه المرة: وهل وقعت شكوكك على أشخاص معينين؟ ربما مجموعة معينة من الموظفين كانت تدخل ذلك المخزن دون غيرها.

هناك ثلاث عاملات نظافة يعملن في هذا الجزء من المبنى في هذا الوقت، وهن من يستخدمن ذلك المخزن، ولكنهن لا يتركنه مقفلا دائما لحاجتهن الدائمة إليه عدة مرات في اليوم، وهذا ما يجعل إمكانية حصر من دخل المخزن مهمة شبه مستحيلة.

وعاد الصمت مجددا، فنظرت زهية إلى الوجوه من حولها، وأدركت وكأن البعض ينتظر منها أن تغادر ليبدأ الحديث فاستأذنت على الفور، وحينها قالت جازية بنبرة جافة، وهي تشير إلى الرجل الذي بالقرب منها: هذا هو عدلان شيكر الذي قام بمراقبة الممرضة سعيدة، وكنت قد حدثتك عنه من قبل، يريد أن يتحدث معك فيما يخص الشريط الذي عثرتهم عليه.

كان من الواضح أنها لا تريد الحديث معه، ولهذا كلّفت ذلك الرجل بالحديث نيابة عنها، ولم يكن لحميد اعتراض مادامت ستسمع الكلام الذي سيكون بالأساس موجها إليها. وركز بصره عليها حين راح يشرح وباختصار ما عثروا عليه، إضافة إلى المجهودات التي قام بها طوال اليوم، وحين أتم، تمنى أن يكون قد ترك في نفسها انطباعا جيدا، أو على الأقل ستقدر الجهود التي قام بها لأجل الإيقاع بقاتل زوجها، تمنى كذلك أن تتحدث معه ولكنها لم تفعل، وبدلا عنها قال عدلان شيكر: هذا يؤكد أن سعدي كان متورطا قبل وفاته، وربما كان جزءا من منظمة ما، قامت بتصفيته بعد اكتشافها علاقته بقضية شركة لاكريب، ولهذا أنت محق في وجوب البحث عمّن كانت

له صلة به خلال الأشهر الأخيرة قبل وفاته، أما ما يهمنا الآن فهو الفيديو الذي يصور لحظة الجريمة، ولهذا أود الاطلاع عليه لو سمحت.

نظر إليه حميد نظرة متسائلة، وقال: ولماذا تريد فعل ذلك؟

أريد أن أتأكد من كون الفيديو أصليا ولم يتلاعب به أحد.

تذكر حميد أن الشرطة لم تفكر أبدا في هذا الأمر، وحتى هو لم يخطر على باله، كان تفكير كل واحد منصبا على إنهاء أي قضية قبل أن يبدأ فيها التحقيق، وربما تعد هذه القضية أطول قضية حققت فيها الشرطة في منطقة العاصمة على الأقل، وبذلك أصبحت بالنسبة للضابط فريد صياف الصداع الدائم والكابوس المزعج الذي يود التخلص منه في أقرب وقت.

صمت لبرهة، ثم قال وهو يخرج الأقراص المضغوطة من جيبه: لحسن الحظ أنني أحضرت الشريط معي، كنت على أي حال أريد أن يرى أحد ما هذا الشريط ليحكم بنفسه.

أخذ عدلان الأشرطة، وقال بنبرة لا تخلو من لوم: علينا أن نحكم أولا على الأدلة قبل أن نسمح لها بأن تحكم على الوقائع، لا تترك هذا يخفى عليك سيد حميد.

أحس حميد ببعض الاستياء، ولكنه استطاع أن يتحكم في أعصابه ويقول بنبرة هادئة: أراك متأكدا بشكل لا يدعو للشك أن الفيديو مفبرك.

لا أظن أنه من المعقول أن نجلس هنا لنتجادل عن حقيقة الشريط، ونحن لم نتحقق من ذلك بعد، فإصدار الأحكام يكون بعد الاختبار والتحقيق وليس عبر جدال عقيم، الغاية منه الانتصار لوجهات نظر مبنية على العواطف.

تراخت ملامح العبوس قليلا من وجه حميد، وقال موافقا: معك حق، علينا ألا نتبع الأهواء ونصغي جيدا لما تقوله الدلائل.

ونظر بسرعة ناحية جازية، ثم قام من مكانه واتجه إلى حافة السطح، راح يراقب تلك الفوضى العارمة التي كانت أسفل البناء، وإلى الحشود التي بدأت تتضاءل. كانت العتمة قد بدأت تلف الكون، فبدت أنوار السيارات أكثر لمعانا والمنظر أكثر جمالا، تمنى لو يبقى هناك لوقت أطول، ولكن بوجود ذلك الرجل لم يطق البقاء لدقيقة أخرى، استدار نحوهما وقال قبل أن يغادر: سأعمل صباح الغد على إيجاد الشخص المتسبب في كل هذه المشاكل، وأرجو أن تكون محقا في شأن صحة تلك الأقراص.

قام عدلان هو الآخر وتوجه إلى حميد. أرجو ألا يزعجك ما قلته، فنحن في الأخير فريق واحد، أليس كذلك؟

فكر حميد في أنه قد يحتاج إلى هذا الرجل، فقال موافقا: أرجو أن نكون كذلك.

وأخرج عدلان بطاقة من جيبه، وقال: هذا رقم هاتفي إن احتجت لشيء.

بعد أن غادر، قالت جازية: يسرني أنك حاولت أن تلطف العلاقة بينكما، فقد عتبت عليه أول الأمر لتصديقه أن هشام هو القاتل، ولكن وكما قلت أنت، فعواطفي لن تغير الحقيقة إن كان شخص ما قد عبث بأفكاره وقاده إلى الإجرام.

وقامت من مكانها لتطل على المدينة المتلألئة من تحتها، وظلت تراقب ذلك المنظر البديع في صمت إلى أن سرت نسمات أشعرتها بالبرد، طوقت نفسها بذراعيها وعادت أدراجها إلى الداخل، تبعها عدلان، وحين صار بمحاذاتها قالت دون أن تلتفت إليه: سأعاين الشريط معك.

نظر إلى ملامحها التي بدت واثقة وسأل: هل أنت متأكدة من أنك ستحتملين مشاهدة ذلك؟

لست أدري، ولكن قد أساعدك في اكتشاف شيء ما، فأنا آخر من رأى زوجي وابن خالتي ذلك اليوم.

حسنا

ونزلا الأدراج صامتين.

كانت توجد بالطابق العلوي لمستشفى عليم لويس بن عبيد قاعة واسعة تستخدم كمكتبة، تحتوي على رفوف صفّت بها أحدث إصدارات كتب الطب في العالم، لاسيما الصادرة من الولايات المتحدة وأوربا، كما جهزت بأحدث الحواسيب المتصلة بشبكة أنترنت عالية التدفق، كانت مخصصة بالأساس للأطباء العاملين بالمستشفى، لذلك كان على عدلان شيكر أن يحصل على إذن من السيدة زهية دحماني من أجل استعمال أحد الحواسيب بها، هذا بالرغم من أنه كان يحمل حاسوبه النقال في سيارته 'kia rio' المركونة في موقف المستشفى، والذي إن اضطر لاستعماله، فسيكون عليه النزول لأكثر من عشر طوابق، الأمر الذي سيضيع الكثير من الوقت.

توجه عدلان إلى القاعة أولا، فيما قالت جازية أنها ستلتحق به بعد دقائق، جرب الأقراص التي جاء بها حميد، ثم وضع إشارة على النسخة التي تصور ساعة الجريمة، حاول بعدها أن يكتشف شيئا ما بعينيه الخبيرتين، قبل أن يحيلها إلى خبراء الحاسوب للتدقيق في صحة الفيديو.

حين وصلت جازية وجدت القاعة شبه فارغة، كان هناك شخص واحد فقط في نهاية صف من الحواسيب، توجهت نحوه، ثم جلست بالقرب منه دون أن تقول كلمة، نظر نحوها وأعاد تشغيل القرص المعلّم بإشارة، وقال: لاحظي جيدا، وإن شاهدت أمرا غير عادي أخبريني على الفور.

بعد أن ظهر بوشو في مكتبه، أدرك عدلان نوع العواطف التي بداخلها رغم ما كانت تبديه من الهدوء. لم تقل شيئا، وحين اقترب الوقت من لحظة الطعن، قام عدلان بتسريع الفيديو، ولكن عيني جازية الحادتين استطاعتا رؤية الطعنات بوضوح، أغمضت عينيها بقوة حتى بدت أخاديد عميقة على أطراف عينيها، ثم وضعت يديها على وجهها لتحجب دموعا لم تستطع حبسها، واستسلمت للبكاء.

أوقف عدلان الفيديو بسرعة، وقال بنبرة منخفضة: سأسحب الشريط وسأقدم لك تقريرا عنه مساء الغد.

أزاحت يديها عن وجهها، ثم مسحت دموعها بسرعة: "بل أريد أن نواصل العرض".

انتظر عدلان حتى اعتدلت واسترجعت هدوءها بالكامل، ثم شغّل الفيديو من جديد. وفي لحظة خروج هشام وظهور وجهه واضحا أمام الكاميرا، أمرت جازية بإيقاف الفيديو فورا وراحت تحدق بتركيز شديد، وبعد لحظات قالت بصوت قريب من الهمس: هذا ليس هشام..

نظر نحوها عدلان باهتمام وسأل: لماذا تقولين ذلك؟

لأنني أعرف هشام جيدا وهذه ليست ملامحه. هذا الشخص الذي قتل زوجي ليس هشام، وإنما هو شبيه له، أنا واثقة من ذلك.

وهل يعقل أن يوجد شبيه لابن خالتك بكل هذا القدر، حتى أنت لم تكتشفي ذلك يوم أن زارك قبل ارتكاب الجريمة.

ربما لأنني كنت متوترة بعدما حدث بيني وبين زوجي، كما أنني لم أتحدث إليه طويلا واكتفيت بإلقاء التحية، إضافة إلى وجود أمر آخر..

وصمتت متفكرة، ثم أضافت: كنت أحس منذ البداية أن هناك أمرا غريبا في ذلك اليوم، ولكن الأحداث المتلاحقة لم تسعفني لحظة في أن أفكر ما هو، ولكن الآن بدأت تخطر لي بعض الأفكار، أذكر أنه جاء مبكرا ذلك اليوم، وهي عادة لم أعهدها فيه، فهو لا يقوم إلا بعد الساعة الحادية عشر صباحا، كما أنني اطلعت على الحقيبة التي جاء بها، وجدت بها ثيابه مرتبة وهذا أمر كذلك غريب، فقد كان شخصا مهملا للغاية، ولا أظن أن أمي من قامت بفعل ذلك، فهي لم تكن في البيت صبيحة قدومه.

ومن أين حصل القاتل على ثيابه في رأيك؟

لست أدري، ربما سرقها من البيت خفية أو حصل عليها بعد اختطافه، فلا يمكن أن يكون هشام قد سعى لحتفه بنفسه.

علينا أن نطلع على تقرير الشرطة فيما يخص تحركات هشام، وعندها قد نكتشف ذلك.

وأشارت جازية إلى عنق الشخص الذي يظهر في الفيديو، وقالت: كما أن لدى هشام شامة في هذه الزاوية، وهي لا تظهر في هذا الشخص.

وبينما كان عدلان يدقق في ملاحظة جازية، وضعت يدها على ذراعه وقالت باهتمام: أرجو أن تفعل ما بوسعك سيد شيكر لتبرئة هشام، أريد أن تبقى ذكراه طاهرة في مخيلتي، فمن المحزن ألا يكتفي هؤلاء الأوغاد بقتله وقتل زوجي، والآن يحاولون تشويه صورته في أعين القانون وفي عيني.

لا تقلقي سيدة بوشو، سأعمل ما بوسعي لاكتشاف الشخص الذي ينتحل شخصية هشام.

وبعد أن غادرت جازية، راح يشاهد الفيديو لآخر مرة قبل إرساله إلى خبير في المونتاج، وبينما هو يفعل ذلك أوقف الشريط بسرعة لحظة خروج

هشام من المكتب، بدا وكأن القاتل يخفي شيئا ما في جيبه، أعاد الشريط إلى الخلف وركز جيدا على اللقطة التي ظن الجميع أنه يلتقط فيها السكين من الأرض، كانت هناك قطعة أثاث تحجب الرؤية، ولكن عدلان كان له رأي آخر، كان القاتل يسحب شيئا صغيرا من جيب الضحية، وبدا أنه يخفيها عمدا عن أعين الكاميرا التي كان يعلم جيدا بمكانها في المكتب.

تساءل عدلان عن ماهية ذلك الشيء، قد يكون مفتاحا مهما في حل هذه القضية، ولكن ما هو السبيل لمعرفته؟ شرد لعدة دقائق أمام الحاسوب دون أن يصل لنتيجة، ثم امتدت أصابعه مجددا إلى لوحة المفاتيح، قام بإرسال الشريط عبر البريد الالكتروني ثم أخفى الأقراص في جيبه وخرج.

بعد وقت قصير كان بالقرب من المدخل الرئيسي، وجد أن الحركة في ذلك الوقت أقل مما كانت عليه عند وصوله، ولاحظ الضابط "يعقوب رابحي" يعطي بعض التوجيهات لرجاله عند مكتب الاستعلامات، كان شخصا متوسط القامة في الأربعين من العمر، أشيب الرأس كثير التجاعيد على الجبهة وحول عينيه الخضراوتين.

وكانت تجمع الرجلين صداقة قديمة، تمتد إلى أيام خدمتهما بالجيش في فترة التسعينات، كما كان عدلان يعتمد على رابحي أحيانا في الأمور المتعلقة بالمسائل الأمنية، كان وصولهما هناك ذلك اليوم متزامن مع وصول خبر العثور على القنبلة، حققا معا مع الموظفين وبعض المرضى، ثم صعد عدلان حيث قام بإقناع جازية بعدم نقل خالتها من هناك، وحين ظهر مجددا في الطابق الأرضي، استأذن يعقوب من الرجال وتوجه نحوه، وكان بعض المرضى في تلك اللحظة يغادرون المستشفى، فقال عدنان معلقا: أخشى ألا يبقى أحد هنا هذه الليلة.

لا ألوم أحدا على المغادرة، فقبل بضع ساعات كاد الجميع يفقد حياته.
وتساءل عدلان بنبرة جادة: هل وصلتم لشيء؟
استدار رابحي ليستلم ورقة صغيرة من أحد الأعوان، ثم قال بعد أن دسّها في جيب سترته: لم نتمكن من تحديد أي مشتبه به إلى الآن.
ولكن ما يدهش أن المستشفى كان مراقبا بعناصر الشرطة، فكيف يعقل أن تمر قنبلة يدوية أمام أعينهم؟
أظنك كنت معي حين حققنا مع بعضهم، وقد أكد الجميع استحالة مرورها من هذا الباب، ولهذا فكرنا في أنه قد تكون أدخلت من باب آخر أو حتى من نافذة، وبعد التحقق وجدنا بابا خلفيا غير مراقب، فعناصر الشرطة لم تكن تراقب المستشفى كليا بقدر ما كانت تركز على غرفة رحمة.
وهل عرفتم هوية من أبلغ عن وجود القنبلة؟
أخذ رابحي سيجارة من العلبة التي كانت في جيبه، وأشعلها رغم اللافتة التي كانت تصرخ بعدم التدخين: "الكل ينفي إجراءه لذلك الاتصال، حتى أنني شككت للحظة أن المتصل هو نفسه من وضع القنبلة، أي ربما أرادنا أن نكتشفها لغاية لم نتبينها بعد".
وانتبه لصديقه وهو ينظر نحو السيجارة، فأخذ نفسا آخر وقال وهو يرفعها أمام عينيه: الأولى منذ أكثر من خمس ساعات، لم أستطع منع نفسي أكثر من ذلك.
لم يكن عدنان يعترض في حقيقة الأمر، فهو نفسه كان مدخنا قبل مدة، ولكنه رأى من الجيد أن يقدم نصيحة: "لحسن حظي أنني أوقفت التدخين منذ سنتين، لم يكن الأمر سهلا أول الأمر، ولكنك ستحتاج لبعض العزيمة والصبر لتخطو الخطوة الأولى".

لا أظن أنني سأجد الصبر مع عمل كالذي أقوم به
وأخذ نفسا جديدا، ثم سأل: وماذا عن السيدة بوشو؟ أرجو ألا تكون الصدمة قد أثرت بها.
نظر عدنان نحو المصعد كمن يتوقع رؤيتها هناك قبل أن يجيب: منذ وفاة زوجها وهي تتلقى الصدمة تلو الأخرى بصبر مذهل، ربما لو كنت مكانها لما استطعت أن أحتمل كما تفعل، ولكن أظن أن الأمور تسير للانفراج، وإن بدت على غير ذلك، فكما أخبرتك هذا الصباح، اتصلت بي جازية وأخبرتني باكية أنهم يظنون أن ابن خالتها هشام هو القاتل، قمت بطمأنتها غير واثق إن كان الفيديو حقا مفبركا أم لا، وهذا أعطاها أملا لم أكن نفسي أؤمن به كثيرا، وقبل قليل منحتني شيئا مما كانت تؤمن به هي، وذلك بعد أن أظهرت شكوكها حول هوية الشخص الظاهر في الشريط، لم أكن لأصدقها لو لم تكن قد عاشت مع ذلك الشاب منذ طفولتها.
ولم يكن رابحي يود إفساد ذلك الأمل الضئيل، ولكن كان يعرف أن التعلّق بوهم أصعب من قساوة الواقع: "ربما لا تزال المرأة تحت الصدمة، لهذا توهمت ذلك، أو أنها رأت أن تقول أي شيء لتبعد فكرة أن ابن خالتها هو من ارتكب الجريمة".
رد عدلان بنبرة واثقة: وقد تكون محقة، لهذا عليّ أن أبحث بين المقربين من سعدي أي شبيه بهشام.
تساءل رابحي في حيرة: ولماذا سعدي؟
هذا لأن الشاب الذي يحقق في الجريمة، يعتقد أن سبب تخدير رحمة له علاقة بسعدي، فقد حدثت أمور ليلة مقتله، وما يؤكد ذلك أن الممرضتين المكلفتين بالاعتناء برحمة أعفيتا من العمل ذلك اليوم، كما أن سعيدة بن

شريف -وهي الممرضة الثانية- كلفت بحقن رحمة في اليوم الموالي، وهذا بعد أن أكدت الممرضة الأولى أن حالتها كانت في تحسن.

يعجبني ذلك الشاب، فبالرغم أنه قليل الخبرة، إلا أنه يعمل جاهدا لاكتشاف الحقائق، رأيته قبل قليل يغادر المبنى ووددت لو أحدثه، ولكنني كنت منشغلا بتتبع شخص كان يثير بعض الشغب، لهذا أرجو أن تحاول التنسيق معه، فقد تنفعك جهوده.

ضحك عدلان وقال: لا تنس أنني أنا من يحقق بطريقة غير رسمية، لهذا سأعمل على مساعدته في العثور على قاتل السيد بوشو.

واقتربت ممرضة تحمل لهما بعض الشاي، ثم توجهت بما بقي من الكؤوس لبقية الحراس قرب البوابة الرئيسية، وبينما هما يتحدثان عن إعجابهما بذلك المكان، ظهرت السيدة زهية دحماني مديرة المستشفى وحيتهما ببسمة ودودة. أرجو أن تكون الأمور على ما يرام.

طمأنها رابحي قائلا: نحن نسيطر على الوضع، فأرجو ألا تقلقي سيدتي.

نظرت من حولها، ثم قالت بحزن: يؤسفني أن الكثير من المرضى غادروا الليلة، لم أتوقع أن يحدث أمرا كهذا أبدا هنا، فنحن الآن نعيش في سلم، ولسنا كما كنا من قبل يقتل بعضنا بعضا.

ثم أضافت بنبرة مؤثرة: أيعقل أن يحدث كل هذا في مستشفى؟ هل هناك من يفكر في إلحاق الأذى بأناس في حاجة للمساعدة؟

رد رابحي: من تعود على الإجرام لا يفرق بين ضحاياه.

وفتح الباب الزجاجي الذي يقود إلى الشارع، فدخلت نسمات باردة يتبعها رجل لا يقوى على السير، فتشه شرطي قبل أن يسمح له بالدخول، كان

يبدو متعبا ويحتاج إلى العلاج. تبسم عدلان وقال لزهية: أترين؟ رغم أن الناس تهرب من هذا المكان، إلا أن هناك من لا يزال يأتي للعلاج.

نظرت زهية إلى الرجل باهتمام، ثم نادت إحدى الممرضات، وطلبت منها الاهتمام به من دون أجر، فبالرغم من أنه قد لا يكون قد سمع مطلقا بما حدث هنا، إلا أنه من واجبنا أن نكافئه على قدومه إلينا.

وبعد ذلك قالت للرجلين: سأقدم تخفيضات مهمة لجميع المرضى الذين فضلوا البقاء على المغادرة، فمن الواجب أن نكون ممتنين على الثقة التي وضعوها فينا، وإن كانت الأعمار بيد الله، وليس لأحد أن يهرب من قدره المحتوم.

خفض رابحي رأسه مذعنا لقدر الله، ثم قال: صدقت.

أما عدلان فقال بما يشبه الهزل: أرى أن استغل الفرصة إذا لاجراء بعض الفحوصات المجانية.

تبسمت زهية وقالت: على الرحب والسعة، ثم غادرت متوجهة إلى المصعد.

نام حميد تلك الليلة مبكرا، كان يحس بالإرهاق وبالانزعاج بعد لقائه الأخير مع جازية، ولكن كان مصمما على أي حال على المضي حتى آخر الطريق. وفي الصباح توجه مباشرة إلى سجن المحمدية لإجراء مقابلة مع مدير مستشفى عبد القادر محمودي، والذي كان قد سجن قيد التحقيق، حين وصل أُبلغ أن الرجل أصيب بنوبة قلبية وتوفي ليلة الأمس، كانت له شكوك في أن ظروف الوفاة لم تكن عادية، ولكن لم يكن له الوقت الكافي للتحقق من الأمر، عاد إلى المكتب وطلب من قسم الأرشيف ملف علي سعدي، كانت التهم الموجهة إليه هي الفساد بالدرجة الأولى، ورغم أن تهمة الابتزاز الذي مارسه على السيد بوشو كانت واضحة إلا أنها لم تدون في التقرير.

وبعد مرور بعض الوقت، استطاع أن يكتشف معلومات لم يكن قد اطلع عليها من قبل، ربما حدث ذلك لانشغاله بالأحداث التي جرت بعد توقيف التحقيق، كانت الشركة التي يديرها سعدي، والتي تدعى يطاغن قد تم تصفيتها بقرار من القاضي سيد علي معراف بمحكمة البليدة، كما أن أهم الموظفين بالشركة، بمن فيهم الرئيس التنفيذي وبعض الأصدقاء المقربين لسعدي، كانوا قد غادروا البلاد مباشرة بعد اعتقاله، وبذلك لن يكون أي منهم قادرا على التواجد في مستشفى محمودي ليلة وفاة رئيسهم.

وضع الأوراق أمامه وزم شفتيه للحظة متفكرا، ثم رفع سماعة الهاتف وطلب شرطية سابقة كانت لها دراية واسعة بملفات المحامين، كما أنها من استلمت ملف مقتل سعدي وبعض رجال الأمن، كان الجميع يدعونها خالتي

زينب قبل أن تتقاعد منذ أسبوع فقط، ولهذا شعر ببعض الذنب لإزعاجها في أول أيام لها بعيدة عن المشاكل، كان يريد أن يستفسر إن كان لسعدي أقارب أو أصدقاء آخرون، فكل ما يعلمه أنه متزوج وأب لابن يعيش في بريطانيا. ولم تأت إجابة خالتي زينب بأي جديد، فقد كان الرجل قليل الصِلات مثله مثل بوشو بالضبط، وهذا ما جعل بين الرجلين الكثير من الأمور المشتركة.

ومما أخبرته به أيضا أن سعدي كان يعتمد على شخص يدعى دحمان خليل في الكثير من الأعمال الخاصة.

تفكر حميد بسرعة ثم سأل: أليس ذلك الرجل الذي كان يعمل بستانيا في حديقة بيته؟

لم يكن يعمل بستانيا فقط، وأنما كما أخبرتك، فقد كان يعتمد عليه سعدي في الكثير من الأعمال المنزلية، كما كان يكلفه حسب ما علمنا بتوصيل الوثائق والأسرار إلى عملائه، ولهذا فقد كان موضع شبهة، ولكن لم تكن لدينا أية أدلة تثبت التهمة ضده.

فكر حميد أن يستجوب ذلك الرجل، فسأل: سمعت أنه تم تصفية ممتلكات سعدي، فهل تعتقدين أن دحمان خليل غيّر مكان عمله بعد بيع البيت الذي كان يعمل فيه؟

أعلم أن البيت بيع لرجل من العاصمة، ولكن لست أدري إن كان دحمان خليل لا يزال يعمل هناك.

شكرها حميد، ثم وضع السماعة وعاد يفكر فيما سيفعله، كان عليه أن يزور ذلك البيت ويتأكد بنفسه، ولكن قبل ذلك تصفح الملف مجددا وقرأ التصريحات التي أدلى بها دحمان، ثم سحب ورقة صغيرة من درج المكتب

ودون عليها عنوانه. توجه بعد ذلك إلى الحاسوب وطبع عليه بعض البيانات، فظهرت معلومات خليل على الشاشة، قام بنسخ صورته وخرج مباشرة في مهمة البحث عنه.

أخذ سيارة الشرطة، وبعد ما يزيد عن الساعة ببضع دقائق وصل إلى حي يدعى ميلزيو بمدينة القبة، توجه بعدئذ إلى الشارع الذي ذُكر في العنوان، ومن الغريب أن أحدا من القاطنين هناك لم يتعرف عليه ولم يسمع باسمه من قبل، كان من الواضح أن العنوان مزور، وهذا دليل قاطع على أن ذلك الرجل أيضا كان يخفي شيئا ما.

انتقل حميد بعدها مباشرة إلى بيت سعدي، ركن سيارة الشرطة في مكان بعيد عن المدخل الرئيسي لكي لا يلفت الأنظار في الجوار، وحين اقترب رأى من بعيد شابا يشبه دحمان خليل يتجول قرب المنزل، خمن بأنه خرج من هناك بلا ريب، وهو الآن يتقدم ناحيته، فكر حميد بسرعة ثم توجه إلى كشك لبيع الجرائد والعطور، تظاهر بقراءة عناوين الصحف، وظل ينظر بطرف خفي ناحية الطريق إلى أن تجاوزه دحمان، وبعدها اشترى بسرعة جريدة دون أن ينتبه إلى اسمها، وانطلق مباشرة على إثره.

استمرت المطاردة ما يقارب العشرين دقيقة، كان قد خرج خلالها دحمان من تلك المنطقة ودخل إلى حي يدعى لاباز، ومن زاوية واضحة لاحظ الرجل يسحب مفاتيح من جيبه ليدخل سيارة 'Mercedes-Benz C-Class' وينطلق مبتعدا عن المكان، أراد أن يتبعه إلا أن سيارته كانت مركونة على بعد مسافة تقارب الكيلومتر من هناك، وبسرعة حاول أن يجد سيارة أجرة ولكن بلا جدوى.

بعد خمس دقائق أدرك أن دحمان قد ابتعد كثيرا ولن يستطيع اللحاق به، عاد أدراجه وهو يفكر في هذا الرجل الذي صار فجأة لغزا محيرا، كيف يعقل أن يملك المال ليشتري سيارة مثل تلك؟ لابد أنه كان متورطا في الفساد إلى أبعد حد، وفكر في المكان الذي ركن فيه السيارة، ثم خمن أن دحمان لا يريد لأحد أن يعرف بحقيقته، وهذا يدل على أمر واحد فقط، وهو أنه لا يزال يظهر بعباءة الموظف الفقير في جوار.

عاد لصاحب الكشك وسأله عن المالك الجديد لبيت سعدي، وكان الرد أنه لم يأت أحد للسكن هناك منذ وفاة المحامي، وأن الشخص الوحيد الذي يدخل من حين لآخر هو الحارس دحمان.

سأل حميد عنه إن كان يأتي دائما، فأجاب صاحب الكشك أنه يراه أحيانا هنا وأحيانا لا يظهر لعدة أيام.

شكر حميد الرجل وتوجه ناحية البيت الذي بدا كما كان في آخر زيارة له، كان الشيء الوحيد المختلف، هو عدم وجود سيارة sedan مركونة هناك بعد وفاة صاحبها، لابد أنها قد بيعت شأنها شأن بقية الممتلكات. فكر في أن يقتحم البيت ليفتش محتوياته، ثم تذكر بسرعة ما حدث آخر مرة اقتحم فيها بيتا، وخطر له أن يحصل على تصريح بتفتيش البيت، إلا أنه كان يريد أن يقوم بالأمر دون أن يعلم بذلك المالك الجديد، فإن كان دحمان يقضي أياما هنا لوحده فلابد أنه يخفي شيئا قد يدينه، ولن يحصل عليه حميد إلا إذا قام باقتحام المنزل خفية.

وفكر في أن يبحث عن باب خلفي يدخل منه، أو ربما يتسلق الجدران، ولكن كل ذلك لن يفيد إن كان البيت مزودا بأجهزة حماية. وأكمل سيره يفكر في طريقة ما إلى أن خطر له أن يستعين بشخص آخر، لم يكن يخطر بباله أنه

قد يحتاج إليه بهذه السرعة، لحسن حظه أنه لا يزال يحتفظ بالبطاقة التي قدمها له عدلان ليلة الأمس.

تردد للحظة، ثم نقل الأرقام إلى هاتفه وضغط على زر الاتصال. حين جاءه رد عدلان قال مباشرة بعد أن عرف عن نفسه: أتساءل كم هي مهارتك في اقتحام المنازل؟

بدا صوت عدلان هادئا، ورد بنبرة تبعث على التفاؤل: أعطني العنوان، وسأكون عندك في أقرب وقت.

دخل حميد مقهى كان في زاوية بنهاية الشارع، اختار إحدى الطاولات التي تحتل الرصيف، وبذلك سيستطيع مراقبة مدخل المنزل وملاحظة دحمان إذا عاد إليه. وبعد خمسين دقيقة رن هاتفه وجاءه صوت عدلان مجددا: أنا انتظرك في الشارع الخلفي للمنزل. وأقفل الخط.

كان الشارع الثاني ضيقا وخاليا تماما من المحلات، يطل عليه باب صغير يقود للباحة الخلفية لمنزل سعدي. حين اقترب حميد من الباب اهتز هاتفه مجددا، كان عدلان قد أرسل له رسالة مدون بها جملة واحدة: أدخل، فالباب مفتوح.

حين فعل، رأى عدلان ينتظره في الداخل، لم يشك أبدا في قدراته المتعددة، ولكن كان عليه أن يتحقق للاطمئنان أكثر: أخشى أن هناك أجهزة إنذار أو مراقبة.

قمت بتعطيل جميع الأجهزة قبل وصولك، وبعد أن أعيد توصيلها لن يشك أحد أنها اخترقت. والآن ما الذي تريد أن تبحث عنه؟

تقدم حميد نحو المبنى وقال: لن نعرف حتى نكتشف.

وكان البيت قليل الأثاث مثلما كان عليه من قبل، قسم الطابق الأرضي بين مكتبة ومطبخ مع ردهة، بحيث أخذ كل منهم مساحة جد واسعة، فيما كان الطابقين الأول والأخير عبارة عن مجموعة من الغرف. فتش حميد المكتبة أولا بمساعدة عدلان، وهناك وجدا معظم المحتويات كتبا في القانون والسياسة، وعلى المكتب قرب باب يطل على الحديقة، كان هناك حاسوب محمي بكلمة مرور وبعض الأوراق البيضاء. اقترح عدلان أن يتجه حميد للطابق العلوي فيما يحاول هو فك رمز الدخول إلى الحاسوب.

وكان في الطابق العلوي، وعلى خلاف المتوقع ثلاث غرف فقط، الغرفتين في أول الردهة مخصصتين للنوم، ولم تكن بهما أي شيء مهم، أما الغرفة الأخيرة فقد كانت مغلقة بقفل الكتروني، حمل حميد هاتفه وطلب من عدلان أن يصعد إلى فوق. تفقد عدلان القفل ثم قال: يحتاج إلى بطاقة الكترونية لفتحه.

ثم أخرج جهازا صغيرا يشبه آلة لقياس شدة التيار الكهربائي، أوصل الأسلاك بالقفل ثم ضغط بعض الأزرار وانتظر لفترة، وبعد دقيقة أو أكثر أنير ضوء أخضر، نظر عدلان لوجه حميد المترقب، ثم أدار مقبض الباب وهو يقول: افتح يا سمسم.

ودخل الرجلان إلى الغرفة، ولكن كانت خيبتهما كبيرة؛ خزانة صغيرة بها أصناف مختلفة من الأقمشة والملابس، وآلة للخياطة مغطاة بستار أبيض لا غير، إلا أن ما لفت الانتباه أن الغرفة كانت أصغر قليلا من سابقاتها.

ألقى حميد نظرة عبر الباب نحو الردهة ليتأكد من عدم وجود باب ربما لم ينتبها له، وحين لم يجده عاد يتحسس الجدار المقابل وهو يقول: لابد أن ما نراه من هذه الغرفة هو جزء منها فقط.

وتفحّصا الجدار معا إلا أنه لم يبد أي باب سري، وحاولا أن يزيحا الخزانة لكنها كانت مثبتة جيدا على الأرض، كانا يعلمان أنها لم تثبت بتلك الطريقة إلا لغرض، وهنا فتحها عدلان وقذف بكل محتوياتها على الأرض، وبينما كان حميد يراقبه في صمت، مرر أصابعه عبر شق صغير كان يبدو بين اللوح الخلفي الرقيق والإطار الثخين للهيكل، وإذا باللوحة تنزاح ويظهر من خلفها فراغ مظلم. أخرج هاتفه المحمول وأنار به الفتحة ثم اختفى داخلها بحذر وحميد يتبعه.

فجأة صارا في غرفة بنفس حجم الغرفة التي كانا بها، وضغط حميد على زر الاضاءة بدت مرآة كبيرة قرب الحائط، وبقربها منضدة عليها أنواع لا تحصى من مساحيق التجميل، كرسيين بدون متكأ وخزانة صغيرة، كانت تبدو كغرفة للزينة بإحدى المسارح، فكر كل منهما أنها كانت لامرأة ما، ولكن حين فتح عدلان الخزانة على يسار الباب، أدرك أن الأمر لا يتعلق بامرأة أبدا، فقد كانت هناك نماذج لوجوه بشرية أو أجزاء منها مصنوعة بمادة تشبه المطاط، كما عثرا على أصناف مختلفة من الشعر المستعار، علق حميد بدهشة: الغرفة مليئة بأدوات التنكر، لماذا قد يحتاج سعدي لكل هذه الأغراض؟

تقدم عدلان من الخزانة وأشار إلى أحد النماذج بداخلها: "أظن أن هذا يوضح بشكل جيد ما كنت تسأل عنه".

حين تفحص حميد القناع، لاحظ أنه يشبه إلى حد كبير وجه هشام، وعندها قال عدلان معلقا على ذلك: استعمل القاتل هذه الحيلة ليوهمنا أن هشام هو القاتل.

شعر حميد بدقات قلبه تتسارع، فقد أدرك أخيرا أنه وصل لوكر القاتل، وحاول أن يعيد ترتيب الأدلة ليرى إن كان ما قاله عدلان منطقيا: إذن فقد اختطف القاتل هشام ثم تقمّص شخصيته، ولعلمه بتواجد جازية بالبيت، قام بوضع كاميرات خفية في وقت سابق، وكانت تحركاته بناء على تحركات جازية ليضمن عدم لقائه بها، وبعد ارتكاب جريمته قام بالتخلص من هشام، واحتفظ بأشرطة التسجيل ليوهمنا أن القاتل كان هو، كما أنني أعتقد أن الشخص الذي كان في هيأة هشام هو دحمان نفسه، حيث أن لهما نفس البنية الجسمية، أما من قام بتوجيهه داخل البيت هو سعدي، وبمقتل سعدي صار دحمان المتهم الأول الذي غفلت عنه يد القانون، وقد ساعده على ذلك، مظهره الذي لا يوحي بأنه يشكل تهديدا لأحد أو له غاية فيما يحدث. يبقى الآن أن نعرف الدافع لهذه الجريمة.

لابد أن الأمر متعلق بالمال، أموال محمد شابي التي كان يحتفظ بها بوشو لابنته بالتحديد.

وضع حميد القناع جانبا، وقال: لابد أن نحتفظ بهذا الدليل. ثم فتّش بقية الخزانة في صمت، أخرج ألبوم صور صغير، نظر إليه نظرة سريعة ثم قدمه لعدلان. انظر.

كانت به صورا لعلي سعدي مع دحمان خليل، لم تكن تبدو كصورة بين رب عمل وموظفه، بل كانت لشخصين أقرب من ذلك بكثير، ولم يجد عدلان في ذلك غرابة، فقد يكون العامل صديقا لرب عمله خارج أوقات العمل، ولكنه بعد أن تفحص صورا أخرى بدا أن صورة معينة قد غيرت رأيه تماما، قام باستخراجها من الألبوم، ثم قال: لاحظ هذه الصورة.

كان الرجلان قريبين من الكاميرا، ولأول مرة لاحظ حميد الشبه بين الوجهين، كان لهما الملامح نفسها، كان الفرق الوحيد أن وجه سعدي يأخذ شكلا دائريا فيما يميل وجه دحمان إلى الامتداد. أعاد الصورة إلى عدلان وقال: أتعتقد أن بينهما صلة قرابة؟

بل أكاد أجزم أنهما كذلك.

ورن هاتف عدلان فأنصت بسرعة إلى المتصل، ثم أقفل الخط وقال:

دحمان خليل متوجه إلى هنا هذه اللحظة، هل تريد أن تعتقله؟

أخشى أن يرفع علينا قضية لاقتحامنا المنزل بدون إذن، سأقوم باعتقاله بالتأكيد، ولكن في وقت آخر.

إذن علينا أن نخرج بسرعة.

وحاولا إعادة المحتويات إلى مكانها، ماعدا قناع الوجه الذي كان يشبه هشام، وبيد خبيرة عبث عدلان مرة أخرى بأجهزة كانت مثبتة على الحائط، فأعاد تشغيل أجهزة الإنذار، وبعد أن صارا في الخارج ذهب كل منهما في طريقه.

قام حميد مباشرة بعد وصوله للمكتب بإرسال فرقة لمراقبة منزل سعدي، كما أمر الرجال بعدم اعتقال دحمان خليل حتى يعطي الإذن بذلك، وبعد تناول فطور خفيف أحس ببعض الصداع جراء إنهاك ذهنه بالتفكير، تناول فنجان قهوة في مقهى قريب بمفرده، وحاول أن ينسى قليلا أمر دحمان إلا أنه لم يستطع، فكر مجددا في أنه قد يكون عدلان على حق، فالشبه واضح بين سعدي ودحمان ولابد أن يكونا على صلة قرابة، ثم ما يؤكد ذلك أن دحمان يقيم في بيت سعدي ولا أثر للمالك الجديد، فمن يا ترى سيشتري بيتا كذلك البيت ويترك الحارس ليسرح فيه مثلما شاء؟ وهناك سيارة Mercedes-Benz C-Class الخاصة بدحمان، فهذا قد يجعل من غير المستبعد أن المالك هو دحمان نفسه، كما قد يكون الشخص نفسه الذي كان في المستشفى ليلة مقتل سعدي.

وارتشف حميد رشفة من القهوة التي لم يكن معتادا عليها، ونظر إلى الطريق الذي كان مليئا بالأوراق التي صمدت بعناد حتى فصل الشتاء، كان يشعر ببعض الحر رغم أن الجو كان باردا بالخارج، فكر في نزع معطفه ولكنه خشي أن يصاب بالزكام ويزداد الأمر سوءا، فعجزه عن التحقيق في مثل ذلك الوقت يعني شيئا واحدا فقط، إغلاق القضية مع بداية الأسبوع القادم دون أن يصل إلى حل لها.

كان عليه أن يفكر مجددا في أسرع طريقة يمكن أن يدين بها دحمان ويدخله السجن، فذلك القناع قد لا يكون دليلا مقنعا لدى البعض، بحيث

يمكنه أن يدعي ببساطة أن القناع ليس له، كان يأمل أن يجد قسم البصمات ما يشير إلى أنه ارتدى القناع في وقت سابق، فإن كان القناع نفسه الذي استعمل في الجريمة فسيثبت الخبراء ذلك بلا شك، فآثار الدماء التي رآها حميد في الفيديو على وجه القاتل لا يمكن محوها تماما.
حاول حميد أن يركز تفكيره على اللحظة التي أُدخل فيها سعدي المستشفى هذه المرة، فلو عرف فقط ما حدث ذلك اليوم لكان كل شيء أكثر وضوحا. من المفترض أن دحمان قد زار سعدي في المستشفى، وما قد يؤكد ذلك هو القرابة المحتملة بينهما، ولكن...
وصمتت أفكار فأحكم قبضة يده وحدث نفسه بيأس: ولكن ما الأمر الذي سمعته رحمة تلك الليلة؟ لا بد أنه قد حدث أمر ما، أو قال دحمان شيئا متعلقا بالجريمة.. ربما لم يكن سعدي قد مات بعد، حين وصوله إلى المستشفى، ولهذا قد يكون قد أفشى سرا ما لدحمان.
وأرخى قبضته حين شعر أن الصداع يزداد في رأسه، ونظر عبر النافذة إلى الأوراق التي كانت تتلاعب بها الرياح مجددا، كان يحس أنه مثلها تماما، لا يستطيع أن يثبت على حقيقة إلا وتحركها الشكوك. وتذكر الممرضة سعيدة فجأة، وتساءل إن كان قد أطلق سراحها، أو أنها لا تزال في الحجز، ثم عادت له الشكوك في صحة ما صرحت به، قالت إنها لم تكن هناك يوم الجريمة، لأن مدير المستشفى طلب منها عدم الحضور، هذا يشير أنه كان يعرف ما حصل، ولكنه الآن في عداد الموتى ولا فائدة منه.
وانسابت بعض النسمات الباردة داخل المقهى، فاقشعرت لها أجساد الزبائن، أما هو فقد شعر بانتعاش لذيذ، أخذ نفسا عميقا وأغمض عينيه وكأنه يحاول إنعاش تفكيره أيضا، ثم فتحهما وقد خطر له خاطر لم يكن

قد فكر فيه من قبل، أخذ جرعة ماء من الكأس الذي كان قربه، ثم قام من مكانه واتصل في طريق عودته إلى القسم بمستشفى عبد القادر محمودي، سأل الموظفة عن التوقيت الذي كانت تعمل فيه سعيدة بن شريف في العادة، فأخبرته -بعد فترة انتظار- أنها كانت تعمل في أوقات مختلفة خلال الأسبوع، أي قد تأتي مناوبتها أثناء الليل، وقد تكون أثناء النهار، ولأن هناك بعض المرونة لدى مدير المستخدمين، فقد سمح لبعض الموظفين بإجراء تغيير في أوقات عملهم، وذلك إن كان هناك توافق بينهم وبين أصحاب التوقيت الآخر، وبناء عليه فقد اتفقت سعيدة بن شريف مع الممرضة كريمة بيزيو بأن تعمل أثناء النهار فيما تكون مداومة بيزيو أثناء الليل .

أحس حميد أنه يضيع وقته بالاستماع إلى كل هذه التفاصيل، ولكن الأمر الذي كان يريد أن يتحقق منه هو ساعة خروج سعيدة من المستشفى.

فردت الموظفة: كانت تخرج على الخامسة مساء. كان هذا ما يود معرفته، فشكرها بسرعة وأقفل الخط.

حين وصل إلى القسم سأل الشرطية التي كانت مكلفة بحجز النساء إن كانت سعيدة بن شريف لا تزال هناك، فردت أنها نقلت إلى سجن النساء بالحراش، شعر بخيبة أمل لأن الوصول إليها قد يأخذ منه وقتا لا يريد أن يضيعه، ولكن لحسن الحظ أن الشرطية قالت إنه يمكنها الإتصال بإحدى الحارسات هناك إن أراد أن يعلم شيئا. طلب منها أن تسأل عن وقت خروج سعيدة يوم مقتل سعدي، فوعدته أن تتصل به فور حصولها على أية معلومة.

عاد بسرعة إلى البيانات الخاصة بمقتل سعدي على الحاسوب من أجل قراءة التقرير مجددا، شاحنة من نوع 'Berliet ' اصطدمت بسيارة الشرطة،

توفي شرطي على الفور فيما أصيب الشرطي الثاني مع السجين بجروح خطيرة أدخلتهما في غيبوبة، توفي الشرطي قبل وصوله إلى المستشفى، فيما توفي سعدي بعد وصوله بنصف ساعة، حصل كل ذلك بعد منتصف النهار، وقد كانت شكوك حميد حينها أن الحادث مدبر، لأنه لم يتم التعرف على صاحب الشاحنة الذي لاذ بالفرار، إضافة إلى أن الشاحنة المستعملة كانت مسروقة، ولكن بدا أنه لم يُبذَل أي جهد خلال التحقيق، فقد دون أن الأمر يتعلق بحادث مرور ناتج عن تهور صاحب الشاحنة.

افترض حميد أن سبب افتعال الحادث هو محاولة إسكات سعدي إلى الأبد، وذلك من قِبَل نفس الأشخاص الذين مارسوا نفوذهم لوقف التحقيق من قَبْل، وهم -كما رجح أحمد دردور- جماعة ضغط فرنسية كانت قد تورطت فيما مضى مع رجال الأعمال لتدمير شركة لاكريب، ولكن الآن لديه فرضيات أخرى، وهو ينتظر رد الممرضة سعيدة ليؤكد شكوكه.

وضع الأوراق على المكتب، ومال بجسمه ليتكئ على ظهر الكرسي، ثم مد ذراعيه إلى الخلف بعد أن شعر ببعض الإرهاق، وبقي على ذلك لبعض الوقت، ثم عاد ليستند على المكتب مجددا، كان بصره شاخصا إلى المعطف المعلق خلف الباب دون أن يفكر في شيء، بدأ يشعر بالضجر من هذه القضية، وفكر كعزاء أنها ستنتهي على كل حال بعد خمسة أيام ويستريح، ولكن هل سيشعر بالراحة حقا لو توقف التحقيق دون أن يصل إلى حل؟ قد يكون شعوره حينها أسوأ مما لو استمر في البحث لسنتين كاملتين.

حمل الأوراق وقبل أن يقرأ من جديد بقية التقرير، رأى أنه لن يكون ذا نفع إن صدقت نظريته الجديدة، ولكن ذلك لن يكون مهما، فلم يعد في

الحقيقة يثق كثيرا بالشرطة، خاصة بعد أن كاد يقتل على يد عناصر مزيفين. كان عليه إذن أن يعمق البحث قليلا في هذا علّه يصل لشيء.
حمل ورقة أخرى كان قد نسيها على المكتب، واتجه إلى مكتب آخر به حاسوب مزود بقاعدة بيانات أوسع، كما كان يحتوي على معلومات عن جميع رجال الشرطة في المقاطعة، كتب كلمة المرور، ثم دوّن أسماء الضحايا الذين قضوا في ذلك الحادث، وحين ظهرت المعلومات المطلوبة، قام بنسخها قبل أن يعود لمكتبه. ما أحزنه فيما قرأ أن أكبرهم لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، كما لفت إنتباهه بشكل أكثر، الشاب الذي كان يدعى أمين بورحاب، تزوج منذ عهد قريب بفتاة اسمها وداد شامة، وهي الآن تنتظر أول مولود لها. أحس بالاستياء الشديد لحال هذه الأسرة، وازداد غيظه على من كان سببا في تلك المأساة.
قام من مكانه ونظر من النافذة نحو الرياح التي ازدادت قوة، وإلى السحب التي جعلت الأفق أكثر قتامة، توقع أن يهطل المطر قريبا، واستمر في التحديق نحو الطبيعة الممزوجة بحضارة مطبوعة بلمسة فوضوية، بيوت في نظام لا يناسب ذوي النفوس الذواقة، وأكياس بلاستيكية تنافس الطيور في التحليق عاليا مع سطوة الرياح، ونظر إلى ساعته التي كانت تقارب منتصف النهار، وتساءل متى ستتصل الشرطية لتخبره برد سعيدة عن سؤاله؟ واستدار نحو المكتب، فلم يجد في سوء ترتيبه ما يعطيه الحق لانتقاد غيره، ووقعت عيناه على صورة أمين بورحاب بين الأوراق، فالتقطها ونظر إليها مجددا، كانت كل معلوماته الشخصية مدونة أمامه، تاريخ مولده، عنوانه الشخصي، اسم زوجته.

خطرت له فكرة الاتصال بأسرته، ولكنه لم يجد سببا كافيا يدفعه لذلك، قد يكون الدافع الوحيد المقنع هو الاطمئنان على حال المرأة المسكينة والوقوف إلى جانبها، فهي الآن على وشك وضع طفل كتب له اليتم قبل أن يرى نور الحياة. وسمع صوت الرعد في الخارج، ففكر أن الوقت غير مناسب على أي حال، مطر قد يسقط في أية لحظة، ومعظم الناس الآن حول موائد الغداء، ومن غير اللائق أن يحرج أياً كان بزيارته.

عاوده الصداع مجددا فوضع رأسه على المكتب، ومن غير أن يشعر أخذته غفوة خفيفة، ولم يستفق من نومه إلا ويد ياسين ربيعي تهزه، نظر إليه بعينين محمرتين، وبالكاد سمعه يقول: أنا ذاهب إلى البيت، دعني أصحبك معي في طريقي لتستريح قليلا، فتلك القضية تكاد تخرجك عن صوابك.

نظر حميد إلى الساعة التي كانت تقارب الواحدة، ثم سأل عن وهيبة إن كانت لا تزال هناك، ولكنها كانت قد غادرت منذ نصف ساعة. فكر في أنها قد نسيت ما وعدته تماما، ثم رأى أنه من الأحسن أن يعود إلى البيت ليستريح، وبعدها قد تصفو أفكاره ويستطيع أن يحدد الخطوة القادمة بشكل صحيح.

حين خرج لاحظ أن الأمطار قد توقفت منذ وقت قصير، ومن العجيب أنها كونت بسرعة سيلا يكاد يغرق الطرقات والأرصفة. استطاع بصعوبة أن يصعد سيارة ربيعي دون أن يبلل حذاءه، وحين سارت السيارة بما يشبه زورقا كان يشق النهر ببطء، علق ياسين بسخط: كلما تسقط قطرات قليلة تغرق المدينة في الفيضان، فالبالوعات صغيرة جدا، ولا يقومون بتنظيفها حتى تحل الكارثة.

كان الكلام نفسه يردده الجميع كلما سقط المطر، فقال حميد دون مبالاة: سيقومون بإصلاحها حين تحل الكارثة.. قلتها بنفسك.

واستمر الرجلان يراقبان المارة في صراعهم مع المياه، إلى أن قطع ياسين الصمت قائلا: رأيت على مكتبك التقرير الذي أجريته عن حادثة مقتل سعدي مع ثلاثة من الزملاء.

نظر إليه حميد بتعجب وسأل: ألم تكن خالتي زينب هي من قامت بالتحقيق في ذلك الحادث؟

ضحك ياسين حين أجاب: وهل تعتقد أن تلك العجوز كانت قادرة على القيام بأي تحقيق؟ فبعد تقاعد سعدي صارت كل القضايا معلقة على كاهلي، ولم تقم تلك المرأة إلا بمساعدتي في كتابة التقرير النهائي.

وكانت تقارير ياسين تشبه إلى حد كبير التقارير التي كان يعدّها شولي، أو المقالات التي تقرأ في الصحف، وصف دقيق للحادثة أو الجريمة مع وضع الفرضيات كاستنتاجات مبنية على أدلة واهية، وبهذا يتم غلق الملف.

تردد حميد للحظة، ثم سأل: ألم يلفت انتباهك أي شيء غريب حينما كنت تحقق في تلك القضية؟

نظر إليه ياسين باهتمام وسأل: مثل ماذا؟

تردد حميد ثانية فلم يكن واثقا من أنه يمكن أن يبوح لهذا الرجل بشكوكه، فهو الشخص الوحيد الذي لم يتم إزاحته من التحقيقات، وليس من المستبعد أن يكون أحد الأشخاص الذين يحاولون إخفاء الحقائق. نظر عبر الزجاج الأمامي إلى الطريق، وقرر أن يغامر على أي حال: "أعني ألم تنتابك أي شكوك في أن الحادث مفتعل؟"

رد ياسين ببساطة: أي احتمال قد يكون وأردا، ولكن لن يفيدنا التخمين في شيء إن لم تكن هناك أدلة تثبت ما نعتقده.

كان جوابه كسؤال آخر لحميد عن أسباب تلك الشكوك. ولكن حميد رأى في ذلك الرد ما يدعو للسخرية، فهل يعقل أن يتحدث هذا الرجل عن الأدلة، وهو الذي يختم كل قضاياه بأي فرضية كحقيقة لا جدال فيها؟ على كل حال لم يكن يريد أن يخبره بكل ما توصل إليه، كان يود أن يدفعه للكلام دون أن يفصح هو ما في جعبته: "كتبت في تقريرك النهائي أن سائق الشاحنة خشي اكتشاف الشرطة لسرقته لها، فاندفع نحوهم وقام بسحقهم، فهل يعقل ذلك؟ أليس من المقترض أن يكون أي شخص في مثل موقفه خائفا من الاقتراب من الشرطة؟ فكيف يا ترى أتته الشجاعة لمهاجمتها؟ لاسيما أن السيارة كانت لنقل السجناء ولم تكن لدورية طرقات.

هناك حالات يصاب فيها المجرم بنوبة فزع، وقد يقوم خلالها بمهاجمة مصدر التهديد كنوع من الحماية.

وما أدراك أن صاحب الشاحنة كان يعاني من تلك الحالة؟!

لأنه لا يوجد تفسير آخر لمهاجمته سيارة الشرطة.

وماذا لو كان هجومه مدبرا لقتل علي سعدي، وبناء عليه فاستعمال الشاحنة المسروقة هو جزء من التدابير لعدم كشف هويته بعد العملية؟

حتى ولو كان الأمر كما قلت، فليس هناك سبيل لإثباته.

ولماذا لم تتابع التحقيق حتى تصل إلى الحقيقة؟

استطاعت السيارة الخروج من الماء، فزاد ياسين من سرعتها، وقال: أنت تعلم في أي ظرف كنت أحقق فيه، فقد كان الحادث مرتبطا بقضية بوشو، لهذا طُلب مني كتابة تقرير عنه فقط.

بدأ حميد يقتنع بأن ياسين لم يكن قد فكر أصلا في ذلك الحادث، أو حتى تساءل عن سبب حدوثه، لهذا خاب ظنه في أن يجد عنده أي معلومات قد تفيده، ولكن ياسين قال كمن يعترف بذنب: كانت هناك بعض الشكوك كالتي ذكرت لدى عائلة أحد الضحايا، أعني زوجة شرطي من الذين قضوا في الحادث، ولذلك طالبت بتشريح جثة زوجها.

بدا وكأن أنفاس حميد توقفت فجأة، وسأل: ولماذا أرادت ذلك؟

صمت ياسين واستمر تركيزه على الطريق، وظلا كذلك لبعض الوقت حتى هم حميد بأن يسأل من جديد، ولكن ياسين أجاب أخيرا: هي زوجة شعبان بوديس، الشرطي الذي كان يقود سيارة الشرطة، وهي محامية ذكية جدا، لم تكن تصدق أن الحادث كان صدفة وأصرّت على أنه مفتعل.

ولماذا أرادت تشريح الجثة؟

صمت ياسين مجددا للحظات، وكأنه أيضا له أسرار لا يريد كشفها، ثم قال: في الحقيقة أشعر بالذنب كلما تذكرت السيدة فلة أومدي، فقد كانت تثق بي إلى أبعد الحدود، وكانت ترجو أن أساعدها في العثور على قاتل زوجها، ولكن لم أستطع أن أفعل لأجلها الكثير، لأنني باختصار لم أكن أحقق فعليا في تلك القضية، لم أكن باستطاعتي فعل شيء، وذلك لأن التحقيق أقفل قبل أن يبدأ.

قالها بشيء من المرارة، فأحس حميد ببعض الصدق والعجز من نبرته، ولكن بقي السؤال الذي يلح عليه، ولم يكن ياسين قد أجاب عليه بعد: لماذا أرادت فلة أومدي تشريح جثة زوجها؟ لابد أنها كانت تريد أن تثبت شيئا قد اكتشفته.

كانت الغيوم قد تلاشت قليلا بعد سقوط المطر، فبدت زرقة السماء وجزء من قرص الشمس يشع باتجاه وجههما، خفض ياسين حاجب الشمس، ثم قال: تظن أن زوجها قتل بطلقات بندقية، ولم يكن موته نتيجة اصطدام السيارة بالشاحنة، وكما قلت سابقا، استنتجت ذلك نتيجة لتحرياتها الخاصة.

ولماذا لم تشرح الجثث؟

نظر ياسين إلى حميد نظرة ذات معنى، وقال: أظنك تعرف الجواب جيدا.

قال حميد كمن يحدث نفسه: لأن تشريح الجثث يفضح أن الحادث مدبر، ولذلك يفضح رؤوس كبيرة في الفساد. ونظر إلى ساعته، ثم قال: هل يمكننا أن نزور السيدة فلة أومدي الآن؟ أود أن أتحدث إليها.

انعطف ياسين نحو حي لاروز، حيث كان يقيم حميد وقال: أقترح أن تأخذ قسطا من الراحة، أما السيدة أومدي فلست واثقا من أننا سنتمكن من الحديث إليها، فقد مرت بأوقات عصيبة، وربما تكون قد غيرت مكان إقامتها بعد وفاة زوجها.

وماذا عن رقم هاتفها أو مقر عملها، ألم تقل إنها محامية؟

سأتحقق من إمكانية الاتصال بها وأخبرك في الغد.

بل في المساء.

لدي أشغال خاصة ولا يمكنني العودة للقسم اليوم، عليك أن تنتظر للغد.

حسنا، وتوقفت السيارة قرب العمارة التي بها شقة حميد، وفي طريقه إلى البيت أخرج هاتفه النقال واتصل بفريق التعقب ليرى إن كانت هناك أية معلومات جديدة عن دحمان خليل، لم يجد عند قائد الفريق أي جديد.

وبعد ساعة من ذلك الوقت اتصل عدلان، وبدا أن عنده ما يثير الاهتمام،

قال إنه اكتشف أن دحمان خليل وسعدي أخوان غير شقيقين من أم واحدة !

بعد أن حصل حميد على عنوان مكتب فلة أومدي ورقم هاتفها، كان ينوي التوجه مباشرة إلى بلوزداد للقائها، ولكنها حددت موعدا حتى الساعة الثالثة بعد الزوال، كان حريصا على جعل هذا اللقاء سريا، فطلب من ياسين ربيعي عدم إخبار أحد بزيارته، كما حرص على تغيير مظهره قليلا حتى لا يكتشف أحد وجهته.

كان مكتبها يقع في الطابق الثاني بإحدى العمارات، استقبلته شابتان كانتا تشتغلان على مجموعة هائلة من الملفات، وبعد فترة من الانتظار، خرج من باب مقابل شيخ مع سيدة في سن حفيدته، دعته بعدها إحدى الشابتين إلى مكتب متوسط الحجم، وعكس الحجرة الأولى كان منظما وأنيقا، وكانت فلة سيدة أنيقة تبدو في الثلاثينات من عمرها بالرغم من أنها كانت أصغر سنا، لها شعر أسود مموّج، ووجه قوي مغطى بالمساحيق، كانت ترتدي بدلة زرقاء ونظارة على عينين حادتين، فيما كان يرتدي حميد على غير العادة قبعة صوفية ومعطفا ذا ياقة طويلة حتى لا يتعرف عليه أحد، قامت من مكانها، وقالت بعد أن عرف حميد بنفسه: آسفة لأنني جعلتك تنتظر سيد حميد لعميري تفضل بالجلوس.

ظهرت من خلف المكتب، فبدت ترتدي تنورة قصيرة رغم الجو البارد، وبخطوات متناسقة تقدمت نحوه وجلست على كرسي مقابل، ثم أضافت: هل تريد أن تشرب شيئا قبل أن نبدأ الحديث؟

لاحظ أنها تجاوزت مرحلة الحزن وتبدو في حالة جيدة: "لا داعي لذلك، أريد أن نبدأ مباشرة الحديث عن الموضوع الذي سبق وأن أشرت إليه عبر الهاتف."

كما تشاء.

عدلت من جلستها ثم شبكت أصابعها واستدركت: لست أدري ماذا حدث بالضبط؟ ولكن يسعدني أنك تقوم بالتحقيق في الحادث الذي مات فيه زوجي، وإن كنت لا أزال أتساءل كيف سمحوا لك بالقيام بذلك؟ فالأمر حسب تقديري يعد مصدر إزعاج لدى البعض.

كان حميد على علم بتلك الحقيقة، فقال: أتيت في إطار التحقيق في قضية أخرى لها علاقة بمقتل زوجك، وقد كانت لدي شكوك في كون الحادث مدبرا منذ البداية، إلا أنني لم أفكر أبدا في فرضية استعمال الأسلحة في قتل الشرطة، لقد صدمت حقا حينما أخبرني زميلي بأنك قلت ذلك، أما ما أثار فضولي أكثر فهو طلبك تشريح الجثث، ولذلك بدت لي مجموعة من الفرضيات من الممكن أن تغير وجهة التحقيق إن كان ما قلته صحيحا.

تبسمت فلة وهي تبعد بعض خصلات من الشعر عن وجهها، ثم قالت: سأكون جد صريحة معك سيد لعميري، فقبل أن أوافق على مقابلتك كانت لي بعض المعلومات عنك، فمثلا أعلم أنك كدت تفقد حياتك من أجل اكتشاف قاتل السيد بوشو، وقد حدث معي الأمر نفسه حين أردت أن أعرف قاتل زوجي، كما كنت قد سمعت قبل ذلك بقرار وقف التحقيق، وأدركت حينها أنه إن لم تكن الشرطة قادرة على فعل شيء، فماذا عساي أنا أن أفعل؟ ولكن رغم ذلك فقد قمت ببعض التحريات الشخصية حينما راودتني بعض الشكوك، ففي البداية لم يُسمح لي برؤية جثة زوجي، وبعد أن

منحت الإذن، كان ذلك عبر حاجز زجاجي، وحين وقفت هناك أشاهده من بعيد، بدا كأنه نائما في عتمة تلك الغرفة الباردة، كدت أجن حينها، وراودتني رغبة ملحة بالصراخ، ولكنني تمالكت نفسي؛ لأنني لم أرد إفساد آخر لحظة أراه فيها، وعندما أمعنت النظر إليه، لاحظت على جبينه بقعة سواد كأنها أثر لطلق ناري، كان الأمر أشبه بكابوس منه بواقع أعيشه، كما أذكر أنني حين قمت بزيارة مكان الحادث بعد ساعة فقط من وقوعه، فوجئت به هادئا كما لو أن شيئا لم يحدث، فقد أزيحت جميع السيارات المتضررة مباشرة بعد لحظة اصطدامها، وحتى قبل أن يأتي المحقق ربيعي ليعاين المكان حسب ما علمت، وبعد يومين من ذلك أقفل التحقيق على أنه حادث سير ناجم عن تهور صاحب الشاحنة، فهل يعقل ذلك؟

وضع حميد رجلا على آخرى ومطّط شفتيه متفكرا، ثم سأل: أنت تعتقدين أن الحادث وقع بعد أن تم إطلاق النار على السائق، ولكن ليس هناك أي شاهد يؤكد أنه استمع إلى صوت إطلاق النار، أو رأى علامات الرصاص على أجسام الضحايا.

ربما لأنه لم يكن هناك أي شهود، فمن المرجح أنه استخدم كاتم صوت في قتل السائق، وفي انتظار انقلاب السيارة، لابد أنه كانت هناك مجموعة أخرى من الشرطة تراقب عن بعد، فقامت بتطويق المكان واحتواء الوضع بسرعة، قبل أن يلتف الحشود حول المكان.

تبقى هذه مجرد تخمينات، إلا إذا كان لديك دليل على ما تقولين.

ردت بشيء من الضيق: ولهذا طلبت تشريح جثة زوجي حينها، ولكنني الآن فقط أدركت كيف كنت ساذجة، فهل يعقل أن يساعد القاتل في كشف هويته؟

ونظرت بعيدا، ثم أعادت بصرها إليه بشيء من الاهتمام: "لهذا أنصحك سيد لعميري إن قمت بذلك أن تحتاط جيدا، فقد تصاب بأذى".
قام حميد من مكانه وقال: سبق وأن كدت أقتل بسبب هذه القضية، لهذا صار الحذر سمة تطبع تحركاتي. قامت فلة هي الأخرى، ثم قالت: ومتى تبدأ بعملية التشريح؟
في أقرب وقت، فإن صح ما قلته، فهناك أمور كنت أحاول أن أجد لها حلا منذ مدة وستتضح عن قريب بجلاء.

***

في الوقت الذي خرج فيه حميد من مكتب فلة، كان شخصا في بناية مجاورة قد أنهى التنصت على المحادثة التي تمت بينهما، نظر عبر منظار صغير للحظة نحو الشارع، ثم توجه مباشرة للاتصال بأحدهم ليخبره بما سمع للتو.
أما حميد فكان في طريقه إلى محل صديق لبيع الأحذية في الشارع المقابل، دخل لغرفة صغيرة في نهاية المحل ثم خرج بهيأته الأصلية، حين ظهر مجددا على الرصيف من غير القبعة الصوفية، أحس ببعض البرد وعاد له الصداع الذي كان يزعجه بالأمس، ولكنه لم يعد يعبأ بصحته في تلك اللحظة، فقد كان كل تركيزه منصبا على تتبع هذا الخيط الجديد في القضية، واستمر في المسير وشعور سيء كان يسير بقربه، فقد وافق على إجراء التشريح، ولفرط حماسه لم يسأل نفسه كيف سيقوم بذلك، فالأمر الذي حرص أحدهم على منعه، لا يعقل أن يسمح به الآن، فكر في عدة طرق لفعل ذلك، ولكن لم ير أيا منها سينفع، نفخ في يده ليشعرهما ببعض الدفء، ثم هز رأسه

وهو يحس الآن بالضجر، يا للسخف! هل يعقل أن يجهل الإجراءات الواجب اتخاذها لتشريح جثة دون أن يعترض أحد؟ ولكن المحامية فلة أومدي كانت أعرف منه بالقانون، فلماذا إذا لم تستطع هي الأخرى فعل شيء؟ لابد أنها كانت تستطيع تحريك العدالة لفرض القانون والقيام بالإجراءات اللازمة لاكتشاف حقيقة مقتل زوجها، ولكن شيئا ما منعها من ذلك، ليس هناك شك أن أحدا هددها بالقتل أو بإيذاء أقربائها فاستسلمت للصمت.

وحينما قطع الطريق متوجها لإحدى سيارات الأجرة، استوقفته سيدة كانت تحمل مجموعة من الأكياس، كانت تبدو متعبة، وسألته أن يساعدها في حمل البضاعة إلى الشارع المقابل، أحس بانزعاج طفيف، فلم يكن لديه الكثير من الوقت ليضيعه هناك، نظر إلى ساعته ثم ابتسم ومد يده إلى الأغراض قائلا: لا بأس، يمكنني المساعدة.

بعد أن خطى بضع خطوات نحو المكان الذي أشارت إليه، شعر باهتزاز الهاتف في جيبه، كان عليه أن يتوقف ليرد على المكالمة، ولكنه فضل أن يكمل السير ليعيد الاتصال فيما بعد، حين وصلا للشارع الآخر، أشارت السيدة إلى زقاق صغير وقالت: يقع منزلي هناك، إن كنت في عجلة من أمرك، فيمكنك ترك الأغراض على الرصيف، سأتصل بمن يكمل حملها إلى البيت.

لم تكن المسافة إلى ذلك الزقاق كبيرة، لذلك قال حميد: لا بأس سأساعدك على إيصالها إلى باب منزلك.

رن الهاتف مجددا، فأسرع حميد الخطى لعله يستطيع أن يجيب قبل أن ينقطع الاتصال، أسرعت المرأة هي الأخرى نحو باب من الفولاذ مشيرة

بوضع الأكياس بالقرب منه، ولكن لسوء الحظ أن الاتصال انقطع قبل أن يحرر يديه من الحمولة، تلقى بعد ذلك رسالة نصية، وضع الأكياس على عتبة الباب، وقبل أن ينتصب قائما، أخرجت المرأة بسرعة قارورة صغيرة لمادة مسيلة للدموع ورشته بها، صرخ صرخة مكتومة، ثم تراجع للخلف واضعا كلتا يديه على وجهه، كان يحس باختناق، فانحنى وراح يسعل بقوة، ثم ابتعد بسرعة عن المرأة حتى لا يتلقى أية ضربة قد تكون قاتلة.

تراجع بضع خطوات إلى أن لامس ظهره الجدار المقابل، ثم حاول النظر بعينين محمرتين حوله، ولكنه لم يستطع رؤية شيء، ركض نحو الجهة الأخرى متحسسا الجدار، منحنيا كمن تلقى طعنة في البطن، وحين التفت إلى الخلف بالكاد استطاع رؤية طيفين يتقدمان نحوه، أسرع أكثر، ولكن قبل أن يخرج من الزقاق أمسكه أحد الرجلين ودفعه بقوة على الجدار، وعندها اصطدم رأسه بعنف وسقط على الأرض غير قادر تماما على الحركة، وفي لحظة خاطفة جرداه من سلاحه ثم تعاونا على سحبه داخل المنزل.

اقتيد إلى قاعة متوسطة بها بعض الأرائك وطاولة جميلة في المنتصف، علق تلفاز بلازما قبالة الأرائك، ولوحة زيتية مقلدة للرسام الفرنسي ' Claude Monet Auska' على الجانب الآخر، كان المكان معدا في الأصل لاستقبال الضيوف، تقدمت السيدة التي استدرجته نحو الطاولة، وسحبتها إلى الخلف قليلا حتى تسمح للرجلين بوضعه على الأريكة، حين غادرت الحجرة صحبة أحدهم، جلس الثاني على مقعد مقابل ومسدس "بيا" موجها نحوه. كان حميد لا يزال يشعر بالدوار، ولكنه صار أكثر إدراكا لما يحدث حوله تلك اللحظة، مسح الدماء بكمه ونظر إلى المسدس بعينين تحاولان استرجاع

حاستهما، قال الرجل وهو يسدد السلاح نحو رأسه: لا أريدك أن تتحدث أو تقوم بأي حركة حتى أطلب منك.

أرخى حميد جسمه مستسلما، فلم يكن بإمكانه فعل شيء بعينين مغلقتين وعقل شبه واع، ورفع رأسه حين سمع الرجل يتحدث عبر الهاتف، أو بالكاد رآه يفعل ذلك، كان يخبر أحدهم بأنهم قبضوا عليه وهو لا يزال حيا، وكانت خلاصة ما فهمه أن الرجل عبر الهاتف سيأتي لمقابلته، لم يكن مهتما من يكون هذا الشخص، ولكنه كان مدركا أن النهاية هذه المرة لن تكون حميدة.

مرت مدة من الانتظار، لم يبعد الحارس خلالها لحظة مسدسه عن حميد، وتوقفت سيارة 'بيجو 508' في الخارج، وظهر منها الضابط فريد صياف، حين وصل إلى المنزل أخرج مفاتيح من جيبه وحاول فتح الباب، وقبل أن يفعل ذلك، شعر بمعدن يلامس ظهره، وشخص يقول بنبرة صارمة: ابق حيث أنت ولا تستدر.

مد صياف بسرعة يده نحو سلاحه، فتلقى ضربة خاطفة من الخلف، حاول أن يستدير فأحس بدوار شديد وسقط على الأرض بلا حراك، أبعده الرجل عن عتبة الباب وأمر أحد الرجال أن يراقبه، ثم أشار إلى رجلين آخرين كانا على السطح بالانتباه جيدا لأي حركة في البيت، أدار مقبض الباب ببطء فيما كان يمسك مسدسه باليد الأخرى، وبحذر شديد انسل نحو الداخل ممسكا هذه المرة سلاحه بكلتا يديه، وبسرعة وقف خلفه رجل آخر يضع على رأسه غطاء يخفي ملامحه، ويحمل بندقة من نوع كلاشينكوف 'AK-47'، وكان المنزل عبارة عن فناء صغير تحيط به ثلاث غرف ومطبخ، لم يكن بالفناء أي أحد، اقترب القائد بخطوات حذرة نحو الباب الأول، أطل بسرعة ثم تراجع إلى الخلف، كان قد رأى جزءا من قدم شخص وسلاحه،

كما لمح حميد مطأطئ الرأس في حالة انهيار، تراجع مجددا إلى الخلف، وأمر الرجل الثاني أن يقف في الجهة الثانية للباب، وبينما كان الحارسان على السطح يسددان بندقيتهما على بقية الأبواب، اقتحم الرجلان الغرفة وصرخ من كان في المقدمة: ضع سلاحك على الفور.. الآن ...ضعه الآن على الأرض..
رفع الرجل يديه في شبه صدمة، فيما صاح الآخر مجددا: ابق حيث أنت، لا تتحرك.
وتقدم الرجل الثاني وأخذ السلاح بسرعة، ثم جذبه بقوة من ثيابه وفتشه، وبينما هو يخرج من جيبه سلاح حميد وسكينا أسود اللون' Extreme Ratio MK2.1'، سمعا فجأة دوي رصاص في الخارج، توقف عن التفتيش وأنصت باهتمام فيما اقترب زميله من الباب، كانت جثة رجل ملقية قرب باب غرفة مجاورة، قررا أخذ المزيد من الحذر، فكبلا الرجل بسرعة وركزا انتباههما على تأمين المنزل، خرج الرجل الذي بدا أنه القائد، وصاح في الفناء: إن كان هناك أحد في الغرفة، فاخرج فنحن نحاصر البيت.
أنصت قليلا فإذا بصوت امرأة يأتي من الداخل: لا تطلقوا النار فأنا غير مسلحة.
صاح الرجل مجددا: اخرجي ويداك فوق رأسك على الفور، إن فعلت ما نطلبه؛ فلن تصابي بأي أذى.
خرجت المرأة من الغرفة ببطء، ويداها المرتجفتان بالكاد تستطيعان الاستقرار على رأسها. وحين أمّن الجنود المنزل، نقل حميد على الفور لمركز الشرطة.
حين وصل كان قد استعاد وعيه جزئيا، وبما صار لديه من إدراك استطاع رؤية عدد غير محدود من سيارات الشرطة تحيط بالمكان، كما لاحظ إخلاء

الشارع الذي يقع به المركز كليا من حركة العامة، فبدا أن ما وقع في بلوزداد كان له صدى كبير هناك.

صعد برفقة عنصرين من الحرس الجمهوري إلى الطابق الثاني، أين كان مكتب فريد صياف، طرق الشرطي الباب ثم فتحه بعد أن أُذن له، وكان خلف المكتب رئيس الأمن الوطني بنفسه، لم يكن حميد قد تحدث معه بشكل شخصي من قبل، ولكنه يذكر أنه رآه يوما في حفل التخرج، كان يدعى اللواء عابد هامل، حين وقف حميد أمامه أشار الرجل إلى مقعد أمامه وقال: اجلس سيد لعميري.

أحس حميد ببعض الاضطراب لوقوفه أمام تلك الشخصية المهمة في نظره، ثم جلس صامتا يترقب ما سيقوله الرجل باهتمام. اعتدل هامل على كرسيه، ثم قال بنبرة بدت خالية من التكلف: أود أن أقدم لك اعتذاري سيد لعميري، وذلك لما تعرضت له من قبل بعض عناصر الأمن.

و نظر إلى الباب كمن كان يخشى أن يستمع لاعترافاته أحد، ثم أضاف: وقد كان لي حديث مع السيد أحمد دردور الذي سبق لك وأن التقيت به، فأخبرني بما حصل منذ فترة معك، ومنذ ذلك الحين وأنا أتابع ما يحدث هنا ببالغ السرية، فاستطعنا أن نتحقق من تورط فريد صياف في بعض الجرائم، بما في ذلك تورطه في قتل شرطيين لتسهيل فرار سجين من العدالة، وبناء على المعلومات التي قدمها لنا السيد دردور كذلك قمنا بإعادة فتح قبر سعدي، وبعد التحقق من هوية الجثة، اكتشفنا أنها تعود لشخص فُقد بمنطقة المدية قبل أسبوعين من وقوع الحادث، يدعى خليل رابحي، كما تم تشريح جثة الشرطة الذين قضوا نتيجة هذه العملية الإجرامية، وأفاد الطب الشرعي أن بعضهم قتل بالرصاص. فشددنا بعد

ذلك المراقبة على كل المتورطين في العملية إلى أن تم اعتقالهم اليوم. ونظرا للجهود الكبيرة التي قمت بها سيد حميد لعميري، قررنا تكريمك في وقت لاحق بعد انتهاء التحقيق.

صمت السيد هامل وكان على حميد أن يقول شيئا، فرد بعفوية: شكرا جزيلا سيدي، يشرفني أن أحظى بكل هذا الاهتمام من قبلكم.

وقام حميد من مكانه ثم صافح السيد هامل، إشارة منه إلى رغبته بالانصراف.

حينما حل المساء صعد عدلان للطابق الأخير بمستشفى عليم لويس بن عبيد، كانت جازية تدفع كرسيا متحركا متجهة نحو غرفة خالتها، حين اقترب رأى أن رحمة تجلس عليه، فيما كانت جازية تبتسم بسعادة، بدت عليه الدهشة ولم يقل شيئا حتى اقترب من المرأة، كان وجهها شاحبا وعيناها شبه غائبتين عن الوعي، نظر مجددا إلى جازية وسأل: هل تستطيع الكلام؟

انحنت جازية هي الأخرى بجواره، وأمسكت بيدي خالتها ثم قالت: ليس بعد، ولكنها تستطيع الجلوس، وأنا الآن جد سعيدة بهذا التحسن.

وقف عدلان وقد شعر بأن الأمور تسير نحو الأحسن، فقد كان يحمل هو الآخر ما قد تسر به جازية. سارا صامتان إلى أن رجعت بخالتها إلى الغرفة، وبعد أن تركتها مع إحدى الممرضات، عادت مع عدلان إلى قاعة صغيرة بها عدد قليل من الطاولات، كان المكان قد خصص لاستراحة النزلاء القلائل بذلك الجناح، أحست جازية أنه يحمل هذه المرة أخبارا مختلفة عن التي كان يأتي بها كل يوم، أشار للنادلة أن تحضر ما اعتاد تناوله، ثم قال:

حدثت أمور كثيرة اليوم، ولست أدري إن كنت قد سمعت بها؟

أظن أن أهم خبر سمعت به اليوم، هو خروج أمي من غيبوبتها، وقدرتها على الجلوس.

إذن فأنت لم تسمعي بما حصل مع المحقق حميد لعميري؟

أشارت جازية بالنفي فأضاف: كاد يقتل اليوم، لولا لطف الله.

شهقت جازية ورفعت يدها لتحجب بهما ثغر فاغر، فيما شخصت بعينين أجحظتهما الصدمة نحو عدلان، وقالت في حالة من الذهول: وهل هو بخير الآن؟

أجل، ومن الغريب أن من أراد قتله كان مدير مركز الشرطة، وذلك أن حميد كان على وشك اكتشاف تورطه ومجموعة من رجال الأمن في قضية حادث مرور مفتعل، لسوء الحظ راح ضحيته شرطيين بريئين.

أتقصد الحادث الذي مات فيه سعدي؟

تحركت شفاه عدلان نحو ابتسامة سرعان ما واراها، ثم قال: أجل، الموت المزعوم لسعدي.

أرادت جازية أن تعبر عن حيرتها، ولكنها فضلت الصمت أخيرا، فقد كانت تعلم أنه لن يبقي كلامه مبهما دون توضيح. أخبرها بخطة سعدي في الهروب من العدالة وتواطؤ مفتش الشرطة في ذلك، فقالت: إذن فما رأته أمي تلك الليلة هو سعدي، رأته حيا وقد تكون قد سمعت شيئا متعلقا بالمؤامرة.

وعضّت على شفتيها، مستشعرة فضاعة الرجل الذي كانت تظنه يوما بمثابة أب لها، ثم قالت بنبرة أقرب إلى الهزل: أشعر في هذه اللحظة أنني في حاجة لأدخن عشر سيجارات كوبية.

تبسم عدلان وقال: أنصحك ألا تورطي نفسك بالتدخين كما فعلت أنا من قبل، فقد استطعت أن تجتازي الكثير من المشاكل، ولم يبق إلا القليل -إن شاء الله- ونقبض على ذلك الوغد.

وهل تعرف أين يمكن أن نجده؟

رفع عدلان فنجان القهوة الذي أحضرته النادلة للتو وأخذ رشفة صغيرة، ثم قال وهو يعيده إلى الطاولة: نحن نتتبع الآن خيطا، وأرجو أن يوصلنا إليه.

في تلك اللحظة كان يقترب نحوهما حميد مع المحامية فلة أومدي، والتي كانت قد غيرت ثيابها إلى لون أقل قتامة، كما أنها كانت ترتدي قبعة بيريه بنية، وتحمل حقيبة يد من نوع 'Chloe'، حين وصلا قام كل من عدلان وجازية لتبادل التحية، ثم جلست فلة على كرسي شاغر، فيما أحضر حميد كرسيا آخر من طاولة مجاورة، لم تكن جازية قد تعرفت بالمحامية بعد، لذلك أشار حميد إليها وقال: السيدة فلة أومدي، زوجة أحد الشرطة الذين قتلوا في حادث سيارة الأمن، كما يرجع الفضل لها في اكتشاف حقيقة ما وقع.

ثم نظر نحو عدلان متسائلا: أظنك قد أخبرتها بتفاصيل ما جرى اليوم؟

هز عدلان رأسه، فيما أومأت جازية هي الأخرى نحو المرأة وقالت: تشرفنا بك سيدتي، وأحمد الله أنّ الحقّ قد ظهر أخيرا، وسيلقى كل مجرم العقاب الذي يستحقه.

أرجو ذاك.

وتقدمت النادلة مجددا لأخذ الطلبات، فيما عادت جازية للحديث إلى حميد: أحمد الله أيضا على سلامتك، فقد أخبرني السيد شيكر بما حدث لك.

كان بود حميد أن يشرح لها تدخل أحمد دردور لإنقاذ حياته، ولكنه رأى أن ذكر اسم الرجل أمام عدلان وفلة قد لا يكون من الصواب في شيء، فقد

كان دردور حريصا على إخفاء هويته من قبل، ومن الأحسن احترام رغبته، ولهذا اكتفى بالقول: الحمد لله على كل شيء.
ردت جازية: لو أصابك مكروه هذه المرة، لما كنت لأسامح نفسي أبدا.
لقد تحدثنا في هذا الأمر من قبل سيدتي، كما أوضحت لك أن المخاطر جزء من عملي، وأنا معرض لها حتى ولو كانت القضية لا تمت لك بأية صلة، ولكن دعينا لا نتحدث عن هذا الأمر، فنحن نعلم الآن أن سعدي لا يزال حيا، وهو المسؤول عن قتل زوجك بالاشتراك مع قريبه، وكذلك هو المسؤول عن قتل شرطيين بريئين، أحدهما زوج السيدة فلة أومدي، ولهذا علينا أن نركز كل جهودنا على القبض عليه.
قالت جازية: آمل ذلك، ثم نظرت إلى فلة أومدي وقالت: أرجو أن تكوني قد تجاوزت الصدمة سيدتي؟
تنهدت فلة بعمق، ثم أجابت: ليس من السهل أن أنسى شعبان، وخاصة بعد ذلك اليوم، فقد اتصل بي وقال إنه سيعود باكرا، قال إنه سيوصل أحد السجناء ويعود مباشرة إلى البيت، كان ذلك آخر ما سمعته.
وصمتت لبرهة مطرقة لتخنق دموعا حاولت التسلل من عينيها، وأضافت: كنت قد سمعت كثيرا عن معاناتك أنت أيضا سيدة بوشو، ولهذا تمنيت أن أراك لعلي أجد العزاء في ذلك، فأنت قد تجرعت من المصائب أكثر مما فعلت، كما كان بودي أن أبدو قوية مثلك تماما، ولكنني لا أستطع كبت حزني كلما أتذكر آخر كلماته.
لا بأس عليك، فالبكاء راحة للعينين وتنفيس عن النفس، والتصبر لا يعني ألا نبكي أبدا، وإنما الاستسلام للحزن واعتزال الحياة هو ما يجب علينا أن

لا نفعله، وأنت قد واجهت كل ذلك ببسالة، وحاربت بشراسة حتى كان لك الفضل في اكتشاف حقيقة ذلك الحادث.

قال عدلان محاولا أن يخفف بدوره عن المرأة: على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره، فزوجك لم يكن مستهدفا لشخصه، وإنما كان موجودا في مكان كان يمكن أن يكون فيه أي شرطي آخر، وهذه طبيعة العمل في سلك الأمن، التعرض للمخاطر جزء من الروتين اليومي، والسيد لعموري خير مثال، حديث في المهنة، وتعرض لمحاولة قتل أكثر من مرة، ولولا قضاء الله لكان في عداد الأموات الآن.

تنهدت فلة وقالت بإيمان صادق: سلمنا أمرنا لله ولا راد لقضائه.

وضعت النادلة كوبين من العصير على الطاولة، وحين انصرفت قالت جازية: إن كان زوجك قد قتل لوجوده في المكان الخطأ، فأنا لا أزال أتساءل ما هو الدافع لقتل زوجي، فالرجلان كانا يبدوان على وفاق تام، حتى أنني لم أكن أشك أن لزوجي المرحوم أي شخص أقرب إليه من سعدي.

"المال". علق حميد، فسعدي كان يبتز زوجك كما تعلمين لاعتقاده أنه خان والدك، وهذا سبب كاف لخلق عداء قد ينتهي بجريمة قتل.

قال عدلان: أظن أن هناك خلف مقتل بوشو سبب آخر لست أعلم ما هو، وربما ما يبعث في نفسي هذا الشعور، هو الغموض الذي لا يزال يكتنف حياة سعدي، فالرجل يحاول إخفاء هوية أخيه غير الشقيق، ويظهره للناس كأنه خادم له، كما أننا لا نعرف إلا القليل عن ماضيه وأسرته.

قال حميد: سمعت أن له زوجة، ولكنها سافرت إلى بريطانيا لزيارة ابنها هناك.

رد عدلان: وددت لو كانت هنا لنطرح عليها بعض الأسئلة، ولكن سأحرص على الحصول على وسيلة للاتصال بها أو بابنها.
نظرت جازية بسرعة نحو فلة التي ظلت صامتة، ثم أعادت انتباهها للرجلين: "من الغريب أن سعدي لم يكن يأتي أبدا برفقة زوجته إلى منزلي، وذلك رغم أنه كان يعد فردا من العائلة، أذكر أن ابنه زارنا يوما أما زوجته فلم تفعل أبدا، وحين كنت أطلب منه أن يأتي بها، كان دائما يؤجل الموضوع، كما أذكر أيضا أنني التقيت بها مرة أو مرتين فقط في بعض المناسبات، إلا أن الظروف لم تسمح لي أن أتعرف عليها عن كثب."
أراد عدلان قول شيء، ثم تردد للحظة قبل أن يصمت، وحين انتبه الجميع إليه تبسم وقال: اكتشفت بالأمس أمرا آخر متعلق بزوجة سعدي، ولكن لست متأكدا من أنه الوقت المناسب للبوح به.
قال حميد وهو يضع ذراعه على مسند الكرسي: ليس هناك أنسب من هذا الوقت للتحدث عن أسرار تلك المرأة.
طأطأ عدلان رأسه ثم رفعه بسرعة وعيناه متجهتان نحو جازية: سيدة بوشو.. هل سبق وأن سمعت باسم خديجة مندوب؟
أشارت جازية بالنفي فأضاف: وماذا عن طليقة زوجك السابقة؟ هل تعرفين ما كان اسمها؟
لم نكن نتحدث عنها كثيرا، فقد كان كل منا يتحاشى ذكرها، ولكن أذكر أنه قال يوما أن اسمها خديجة دون أن يذكر اللقب.
ثم حدجته بنظرة شك وتساءلت: لا تقل إن زوجة سعدي كانت نفسها زوجة رضا السابقة.

لم يكن عدلان متأكدا من أنه يفعل الصواب بإخبارها بما توصل إليه، ولكنه وصل لنقطة لم يعد بإمكانه التراجع: "ربما لم يرد زوجك أن يخبرك بذلك، حتى لا يظهر أي شكل من العداوة بينك وبينها، فكما تعلمين أن الفراق كان بالتراضي... "

على كل حال، لم يعد هناك شيء غريب بالنسبة إلي، فبعد أن اكتشفت أنني لست الفتاة التي كنت أظنها، صرت مستعدة لتوقع أي شيء، ولن يكون هذا الخبر محزنا بالنسبة إلي بقدر فاجعتي بمقتل زوجي، فدع العواطف سيد شيكر، وأخبرني كيف سنستفيد من معلومة مثل هذه؟

قال عدلان بعد أن شعر بثقة في كشف كل ما يعرفه: يسعدني أنك وضعت العواطف جانبا، وهذا سيساعدنا على التفكير دون أي عائق، فكما تعلمين، أن الغاية التي دفعتني إلى محاولة الاتصال بتلك السيدة، وإزاحة مزيد من الغموض عنها وعن زوجها، هو محاولة معرفة الدافع الحقيقي لقتل بوشو، كما أن اكتشاف العلاقة السابقة بين زوجك وزوجة السيد سعدي سيفتح لنا المجال لاحتمال استمرار هذه العلاقة لما بعد الانفصال، أي أن الدافع الذي جعلهما يفترقان عن بعضهما البعض كان خارجا عن إرادتهما، وهو عدم قدرة بوشو على الإنجاب، ومنه هناك احتمال أن بوشو لم يستطع نسيان زوجته بعد الطلاق، ولا هي استطاعت فعل ذلك، فاستمرا في المواعدة سرا إلى أن اكتشف سعدي تلك العلاقة، فقتال بوشو انتقاما لشرفه.

بدا وجه جازية في غاية الشحوب، وظهرت في داخلها رغبة مجنونة للصياح، فهذا الأمر لم يخطر على بالها يوما، ولكنها سيطرت على عواطفها وردت برباطة جأش: لا أريد أن أقف موقف المدافع عن زوجي السابق في هذه

اللحظة، فكل الاحتمالات واردة إلى أن يثبت بطلانها، وبما أنه ليس لي أية شكوك في خيانة زوجي، لأنه كان مهتما بعمله وأسرته ولم تظهر في سلوكاته أية أخطاء، أود أن أطلب منك أنت أن تثبت صحة ما تقول.

اعتدل عدلان في جلوسه وأعاد تعديل ياقة سترته قبل أن يقول: حسنا، هناك من أكد لي انه شاهدهما يوما في مقهى 'Le Rêve' بين عكنون.

اتسعت حدقتا جازية وهتفت: من؟

أجاب عدلان بنبرة هادئة: كنت أجريت بعض التحريات فيما يخص هذا الموضوع، واتصلت بمن كانت لهم صلة وثيقة بالسيد بوشو، وبذلك استطعت أن أؤكد صحة شكوكي.

واستنشق نفسا معبقا بعطر فلة الذي كان يملأ الجو وأضاف: لم أرد أن أخبرك بالأمر حتى أتأكد منه، فاتجهت صباح اليوم إلى ذلك المقهى، وعلمت أنهما كانا من الزبائن قبل طلاقهما، وقد كان بوشو شخصية معروفة، لهذا لم يصعب على النادل التعرف عليه، أشار بأنه كان يأتي مع مجموعة من العملاء في العادة، وأنكر أنه كان مع امرأة في البداية، ولكن حين أكدت له أن المعلومة قد تكون مهمة في التحقيق، كشف أنه أتى معها مرتين فقط بعد طلاقهما حسب ما يذكر، وأن المرة الأخيرة كانت قبل وقت قصير من مقتله، وقد قال إن السيد بوشو كان يختار مكانا هادئا من المقهى بالطابق الأول، وهو المكان الذي كان يجلس به مع معظم العملاء، لهذا كنا نحجز له طاولة خاصة خلال الأوقات التي كان يزورنا بها، أما حين يأتي مع السيدة خديجة فكان يغير الطاولة إلى مكان أكثر خصوصية، وعندها أدركت أنه لا يريد أن يراه أحد بصحبتها، ثم تيقنت أكثر حينما رأيت أنهما لم يكونا يدخلان معا، فقد كان بوشو يأتي أولا ثم تلحقه المرأة بوقت قصير.

ازداد شحوب جازية وأشارت بيدها أن يتوقف، ثم حاولت القيام من مكانها ولكن قدميها لم تستطيعا حملها، أسرعت فلة لتساعدها على الوقوف وتبعها حميد وعدلان، وحين اتجهت أنظار جميع من في القاعة نحوهم، أسرعت النادلة لتساعد فلة في مرافقة جازية إلى غرفتها، أراد حميد وعدلان مصاحبة المرأتين، فقالت النادلة: لا داعي لذلك، سنعتني بها في حين يمكنكما الاطمئنان عليها لاحقا.

جلس عدلان مجددا على كرسيه، فيما جلس حميد على كرسي مقابل وعلى وجهه نظرة عتاب: لست أدري إن كان من المهم أن تذكر لها كل تلك التفاصيل.

نزع عدلان سترته حين شعر ببعض الحرارة، ثم وضعها على أحد الكرسيين الشاغرين وقال: "ستكون بخير قريبا فلا داعي للقلق، فالمرأة عاشت طوال حياتها في عالم مزيف، وآن لها أن تعرف كل شيء، أما ما أخبرتها به فلم يكن أكثر قساوة مما سبق وأن اكتشفته.

شرب حميد أول رشفة من كوب العصير، ثم قال: على كل حال، فقد أذهلني حقا ما وصلت إليه، فمن بين أكثر الأسئلة التي كانت تحيرني في هذه القضية هو عدم استطاعتي معرفة الدافع الحقيقي للجريمة، كنت أظن أن سعدي قد قتل شريكه من أجل المال، وذلك لأنه كان يبتزه منذ فترة، وبما أن بوشو امتنع عن الدفع فقد قام سعدي بالانتقام منه.

لحد الساعة لا نزال غير متأكدين إن كانت تلك العلاقة هي دافع القاتل لارتكاب جريمته، لهذا وكما سبق وقلت، عليَّ التحدث مع زوجة سعدي، وأرجو أن تساعدنا في الوصول إلى نتائج مؤكدة، وقبل ذلك لابد من استجواب جيرانها على أمل الحصول على رقمها في بريطانيا.

سأقوم غدا مع مجموعة من عناصر الشرطة بتفتيش بيت سعدي، فإن أردت أن تكون هناك، اتصلت بك وبعدها نتوجّه معا للتحقيق مع الجيران.

ولاحظا أن فلة أومدي تقترب منهما، وحين وصلت، وقفت بالقرب من حميد وقالت: السيدة بوشو بخير، وهي الآن نائمة بعد أن أخذت حقنة مهدئة، سأغادر وسأكون على اتصال دائم بك سيد لعميري، هل تريد أن أوصلك في طريقي إلى البيت؟

لا داعي لإزعاج نفسك، سأعود بسيارة أجرة.

أرادت المرأة أن تضيف شيئا، فأسرع عدلان للقول: سأوصله أنا إلى البيت، فأنا ذاهب تلك الناحية.

حين غادرت فلة ابتسم إلى حميد، وقال: أرجو ألا أكون قد فوّت على المرأة محاولة التقرب منك، فكما تعلم هي الآن من غير زوج، ويحق لها أن تبحث عن شخص آخر.

تبسم حميد، وقال وهو يقف للانصراف: لست في مزاج يسمح لي بالتفكير بالنساء هذه الأيام.

وارتدى عدلان سترته وسارا معا إلى الخارج.

بدأت عملية تفتيش بيت سعدي حوالي الساعة التاسعة صباحا، كان الجو جميلا وصحوا، وكل شيء بدا في أحسن حال، إلا أن ما جاء به الفريق المراقب لدحمان خليل عن فقدانهم له، عكر صفو حميد وأزعج مدير الشرطة الجديد عبد الرحمان مهلّة، والذي كان يشغل منصب ضابط تحريات بالجزائر الوسطى. وكان من المفترض أن يتم القبض على الرجل مساء يوم الأمس، كما كانت المراقبة تجري بشكل سري وجد فعال، لهذا لم يستطع عبد الرحمان مهلّة تصديق حدوث ذلك. وشعر بخيبة شديد لكون ذلك الإخفاق جاء في أول يوم من تعيينه، ولكن حميد حاول تهدئته وهما يقفان قبالة منزل سعدي: لا داعي لكل هذا الانفعال سيدي، فلدينا كل بياناته الشخصية، ولن يصعب علينا العثور عليه.

وكان الضابط عبد الرحمان مهلّة رجلا قصير القامة ذا شعر كثيف مليء بالشيب، كما له عينان بارزتان قليلا توحيان بدهاء لم يقف أحد بعد على حقيقته، كان يرتدي بدلة سوداء، وربطة عنق زرقاء، حرك بأصابعه الدقيقة ربطة العنق قليلا، ثم قال: كنت آمل أن يوصلنا ذلك الوغد اللعين إلى سعدي، والآن ها قد ضاع من أيدينا.

لم يكن حميد يتوقع أن يسمع من المدير تلك الشتائم، فتبسم ثم عاد للقول: أرجو ألا تقلق سيد مهلّة، أعدك أنني سأعمل جاهدا للوصول لكليهما.

غادر عبد الرحمان مهلّة وبقي حميد مع فريق البحث، بعد مرور قرابة الساعة، تم تفتيش جميع أجزاء البيت بما فيه الغرفة السرية التي سبق وأن عثر عدلان عليها، فقد كان البيت على اتساعه قليل الأثاث، ولم يتم العثور على شيء، جلس حميد على إحدى الكنبتين الوحيدتين في القاعة بالطابق الأرضي، وفيما كان بعض عناصر الشرطة يهمون بالمغادرة، أخرج هاتفه النقال وبحث عن رقم عدلان الذي لم يكن قد وصل بعد.

رن الهاتف مرتين ثم توقف الرنين، وظهرت رسالة صوتية بأن المرسل له قد رفض استلام المكالمة. فكر أنه مشغول، ولكن فجأة رآه عبر الباب الرئيسي يتقدم نحوه. تصافح الرجلان ثم قال عدلان وهو يجلس بالقرب منه: آسف على التأخر، فقد انشغلت قليلا هذا الصباح.

وحدثه حميد عن فقدانهم لدحمان خليل، فاتكأ عدلان واضعا رجله الأيمن على الآخر، ثم قال: لابد أن أحدا ما قام بتحذيره.

واستدرك مبديا بعض الإحباط، كان رجلان من فريقي يراقبانه، ولكنهما انسحبا لوجود عدد كاف من الشرطة، فالمراقبة الزائدة قد تكون سببا في فضح الملاحقين، وما حدث اليوم يؤكد قناعتي بأنه إن أردت أن أقوم بعمل فلابد أن أتمه بنفسي.

كما قلت أنت، إذا كان الرجل يعرف بأنه مراقب، فلن يعدم وسيلة يتخلص بها من ملاحقيه.

عاد عدلان للاعتدال في جلسته، وقال: أخبرني الآن، هل عثرتم على أي أدلة قد تفيد التحقيق؟

لا شيء، يكاد البيت يكون خاليا حتى من الأثاث.

وهل وجدتم أي شيء يتعلق بزوجة سعدي؟

يبدو أن المرأة أخذت كل أغراضها قبل أن تسافر.

رد عدلان ببعض الانفعال: لا يعقل أن تأخذ كل أغراضها إلى بريطانيا؛ فهي في زيارة وسوف تعود، أليس كذلك؟

أجل، علينا التحدث إلى جيرانها في أسرع وقت.

وهل تعرف من أين سنبدأ؟

ليس هناك الكثير من الجيران في الجوار، فمساحة كل بيت هنا تأخذ نصيب حي بأكمله، فأنت ترى أن معظم من يعيشون في الجوار من الأغنياء، لذلك هناك بيتان فقط قريبان من هنا، أحدهما تملكه سيدة تعيش في فرنسا ولا تعود إلا أيام الصيف، أما الثاني فهو لعبد الرؤوف قامر، مدير أحد فروع شركة سونالغاز، وقد علمت أنه وزوجته يقيمان ببيتهما بشكل دائم، ولا بد أن لزوجة سعدي اتصالا بها.

وكان يفصل بيت عبد الرؤوف قامر وبيت سعدي جدار منخفض في نهاية حديقة كل منهما، أما عن مدخل البيت الرئيسي، فكان على بعد حوالي مائة متر عن مدخل البيت الثاني. ضغط حميد على الجرس، وانتظر إلى أن سمع صوتا عبر سماعة لامرأة تقول: السيد عبد الرؤوف قامر ليس بالمنزل.

تقدم عدلان من السماعة وقال: نحن من المباحث ونريد أن نتحدث مع زوجته لو سمحت؟

ظهرت خشخشة قصيرة عبر السماعة، ثم عاد الصوت: السيدة ليست في البيت أيضا، لا يوجد هنا غيري، وأنا أعمل هنا كمدبرة للمنزل.

هل تعلمين متى تعود؟

في العادة لا تعود حتى المساء، وأحيانا لا تبيت بالبيت، فالسيد قامر في مهمة عمل لعدة أيام، لهذا فهي تقضي بعض الأوقات في زيارة الأقارب والأصدقاء.

هل يمكن أن تتصلي بها سيدتي وتخبرينها بقدومنا، فالأمر لا يحتمل التأجيل.

انتظر لحظة.

حين انقطع الاتصال نظر عدلان إلى حميد واضعا يديه في جيبه: "أرجو أن نتمكن من الاتصال بها حتى لا نضيّع مزيدا من الوقت. "

أرجو ذلك.

وفيما هما واقفان في صمت ينتظران رد المرأة، عاد الصوت بعد حوالي ثلاث دقائق: "السيدة لا تستطيع أن تعود الساعة، تقول إن كان الأمر في غاية الأهمية، فيمكنكما التحدث معها عبر الهاتف".

قال عدلان بحدة: لا يعقل أن نتحدث عن أمر مهم عبر الهاتف.

ردت المرأة: قالت إن كان لابد من لقائها، فسترسل من يصحبكما بالسيارة.

تمتم عدلان في حنق: وكأننا نود مقابلة رئيس الجمهورية.

تقدم حميد من السماعة وقال: كم مضى عليك من الوقت وأنت تعملين هنا سيدتي؟

منذ خمس سنوات.

هل يمكننا أن نتحدث إليك لو سمحت؟

تتحدثون معي أنا؟

أجل.

في أي شأن؟

لا يمكن أن نذكر التفاصيل كلها ونحن واقفان قرب الباب.

لست متأكدة من السماح لكما بالدخول في غياب صاحبة المنزل.

أخرج حميد بطاقة الهوية، وقربها من كاميرا صغيرة بجوار السماعة، وعلى الفور فتح الباب المعدني بشكل آلي. وعبر ممر قصير استطاعا الوصول إلى باب خشبي كانت تقف قربه امرأة في الخمسينات من العمر، نحيفة ولكنها تبدو في لياقة جيدة، كانت تضع على رأسها غطاء صغيرا، وترتدي بدلة قطنية يغطي جزءا منها مئزرا مزينا بصور الفواكه، دعتهما لصالة الضيوف، فيما توجهت هي بسرعة نحو المطبخ، وبعد لحظات قصيرة عادت بصينية بها قارورتين من العصير، وقالت: أعلم أنكما لن تنتظرا حتى تجهز القهوة، لذا أتيتكما ببعض المشروبات.

لا داعي لإزعاج نفسك سيدتي، فقد جئنا لنطرح بعض الأسئلة ثم نغادر على الفور.

جلست على أريكة مقابلة لهما وقالت: لست متأكدة بأنني سأجيب عن أي سؤال متعلق بهذه الأسرة، فأنا وكما تعلمان، مؤتمنة على أسرار البيت وما يحدث فيه.

نظر عدلان إلى حميد بسرعة، وحين أومأ له أن يتولى الحديث قال: لا تقلقي سيدتي، فالأسئلة التي نود طرحها لا تتعلق بأسرة قامر بشكل خاص، وإنما لها علاقة بزوجة المحامي الذي يسكن بالبيت المجاور.

أتقصد خديجة حرم السيد علي سعدي.

أجل.

وما علاقتي أنا بتلك الأسرة؟

ربما بحكم الجوار، تكونين قد التقطت خبرا من هنا أو هناك متعلقا بتلك السيدة.

آسفة سيدي، فأنا هنا من أجل العمل، ولست مهتمة بالتقاط الأخبار.

تدخل حميد بسرعة: هذا مؤكد سيدتي، ولكن زميلي يقصد إن كانت السيدة خديجة سعدي تزور السيدة قامر، أو كان بينهما نوع من الصداقة؟

فكرت المرأة بسرعة وأجابت: لا أظن أن ما كان بينهما نوع من الصداقة، ولكن لنقل واجبات الجوار، فقد كنَّا ندعوها إذا أقمنا مأدبة في البيت، وكذلك كانت تفعل هي، وأحيانا كانت تطلب مني السيدة أن أذهب لمساعدتها في بيتها، إن كانت الوليمة عندها، وهذا لأنها كانت تقوم بأعمال البيت بمفردها وليس هناك من يساعدها.

وهل سمعت أنها مؤخرا غادرت إلى بريطانيا لتزور ابنها؟

لا، ففي الحقيقة مضى بعض الوقت لم نسمع أخبارا عن تلك الأسرة، لأن بعض الخلافات قد حدثت بين الأسرتين، وانقطعت الزيارات إلى أن توفي السيد سعدي في ذلك الحادث الأليم.

سأل عدلان: وما طبيعة تلك الخلافات؟

نظرت المرأة إلى الرجلين وقالت: لست متأكدة من إخباركما بالسبب.

يمكنك أن تكوني على ثقة سيدتي أن أي معلومات تقدم للشرطة تبقى طي الكتمان، إلا إذا دعت الضرورة لكشفها في أُطر جد محدودة.

حسنا، اكتشف السيد قامر ذات يوم أن ابنته الوحيدة تواعد نسيم سعدي ابن المحامي قرب الجدار الذي يفصل بين الحديقتين، كادت الأمور

تتطور إلى شجار لولا أن الكشوف الطبية أكدت أنه لم يحدث بينهما شيء.
ألهذا السبب قام سعدي بإرسال ابنه إلى بريطانيا؟
في الحقيقة حدث الأمر بعد ذلك، فحين اكتشف أمرهما، كان نسيم في زيارة قصيرة إلى أهله، ولكن والده طلب منه العودة في أسرع وقت قبل أن تتأزم الأوضاع أكثر.
وماذا عن ابنة قامر؟
قام والدها بإرسالها هي الأخرى عند عمتها بالبليدة، وهي تأتي من حين لآخر لزيارة أمها، أما والدها فهو لا يزال غاضبا عليها إلى اليوم.
وأرسلت الخادمة نفسا عميقا قبل أن تواصل: للأسف الشديد، رغم أن السيد عبد الرؤوف في العادة طيب القلب، وله قِيَم لا تفرض قيود كبيرة على حرية زوجته وابنته، إلا أنه لا يزال غاضبا لسبب ما، ربما يعود ذلك إلى هوية الشاب الذي اختارته ابنته فحسب.
لم يكن حميد في الحقيقة مهتما بمشكلات ابنة قامر الشخصية، ولكن عدلان على خلاف ذلك سأل الخادمة: وهل تعتقدين أن ابنة قامر لا تزال على اتصال مع ابن سعدي؟
بدا السؤال غريبا في ذهن الخادمة، ولكنها أجابت بجدية: أكاد أجزم أنهما لا يزالان كذلك، فقد سمعت مرارا صبرينة تكلم أمها، وتقول إنها تحبه ولا يمكنها أن تتخلى عنه أبدا. كانت أمها متفهمة أكثر من والدها، ولكنها نصحتها بأن تبتعد عنه أكثر من مرة، إلا أنني لا أظن أن هذه النصيحة قد وجدت أذنا مصغية لدى البنت.
وهل صبرينة لدى عمتها في هذا الوقت؟
هذا ما أعتقده.

هل لي أن أحصل على رقم هاتفها لو سمحت؟
تحركت الخادمة في مكانها معبرة عن انزعاجها، ثم قالت: أخشى أن تسبب لي المشاكل سيدي، فقد استقبلتك في البيت، وهذا وحده قد يتسبب في طردي، والآن تود أن أعطيك رقم هاتف ابنة صاحب المنزل، ألا ترى أن الأمر تجاوز الحدود قليلا؟
اعتدل عدلان وقال هو الآخر بنبرة جادة: هل تعتقدين سيدتي أنني أبحث عن علاقة غرامية مع هذه البنت؟ نحن نحقق في جريمة قتل، ونبحث عن أية طريقة للاتصال بالسيدة خديجة.
وهل تعتقد أنك إن اتصلت بصبرينة، ستخبرك ببساطة أنها لا تزال على اتصال بنسيم وتعطيك رقم هاتفه؟
تنهد عدلان وقال: أظن أنها الطريقة الوحيدة للاتصال بالسيدة خديجة، وبما أنه لا توجد غيرها فلابد أن نجرب.
لماذا لا تسأل عن أصدقائه؟ فربما لا يزال على اتصال مع أحدهم.
ليتني أعرف أيا منهم.
يمكنك أن تسأل أصحاب المحلات المجاورة، فمنهم من له أكثر من عشرين عاما وهو يعمل في الجوار، ولا شك أنهم يعرفون كل أهل الحي، ومن كانوا يصاحبون ذلك الشاب واحدا واحدا.
لم تكن لتغب مثل هذه الفكرة عن عدلان، ولكنه فضل أن يبدأ بالبحث عن معلومات تتعلق بالسيدة خديجة، ومن ثمة يحاول الاتصال بابنها، ولذلك قرر أن يطرح آخر سؤال قبل أن يغادر: حسنا، دعينا من هذا الأمر وأخبريني، هل أحسست بأي شيئا غريبا متعلق بالسيدة خديجة؟
أرسلت الخادمة نظرات متسائلة، وقالت: مثل ماذا؟

مثل أنها تخفي أمرا ما؟

كيف لي أن أعلم ذلك، وقد مضى على آخر مرة رأيتها قرابة عام أو أكثر.

أتقصدين أنك لم تذهبي لتقديم العزاء لها بعد وفاة زوجها؟

تقديم العزاء لمن؟ فهي نفسها لم تكن موجودة هنا يوم الجنازة.

هل يعقل أنها لم تعد حتى بعد وفاة زوجها؟

لا هي ولا ابنها. ويقال إن ابنها أصبح مدمنا على الكحول والمخدرات، بعد أن سافر إلى بريطانيا، حتى أن البعض يقول إنه دخل السجن بتهمة الإدمان، وهذا هو سبب عدم مجيئه.

لماذا لم تخبريني بهذا من قبل؟

هزت كتفيها وردت ببساطة: ولم أكن لأ ذكره لو لم يسوقنا الحديث إليه.

وماذا عن أمه، لماذا في رأيك لم تأت؟

لست أعلم، ربما كانت على خلاف هي الأخرى مع زوجها، فالمشاكل تحدث بين جميع الأزواج، أي قبل أشهر قليلة كنت أسمع من الشرفة المطلة على الحديقة صياحهما يعلو حتى يسمع من الطريق العام، وربما هذا الأمر الذي دفعها للسفر كما تقول، ولكن لست متأكدة إن كانت حقا تعيش مع ابنها، وإن كانت في بريطانيا، ولا أي شيء آخر، كل ما أعرفه أنها اختفت فجأة عن الأنظار، ثم أشيع أنها سافرت، والله وحده يعلم أين هي الآن.

هل تعتقدين أنها أصيبت بمكروه؟

لا أعتقد شيئا في الحقيقة، وأظنني قد تحدثت أكثر من اللزوم.. لهذا أخبراني الآن ماذا قررتما بشأن لقاء السيدة قامر قبل أن أعود لعملي.

إذا كانت السيدة قامر ليست على اتصال بالسيدة سعدي فما الفائدة من رؤيتها؟

قامت الخادمة وقالت منهية الحديث: إذن فأرجو لكما التوفيق في البحث في مكان آخر، لأن لدي ما أقوم به وأنتما تمنعاني عن ذلك.
قام حميد وعدلان وشكرا السيدة على المعلومات التي قدمتها، وحين كانا في طريقهما للباب الخارجي قال حميد: أرجو ألاّ يكون ذلك المجنون سعدي، قد انتقم من زوجته هي الأخرى وادعى أنها سافرت إلى بريطانيا.
علينا أن نتأكد أولا إن كانت قد سافرت إلى ابنها، وإن لم تكن هناك، يمكننا احتمال الأسوأ.
حين توجها لصاحب مقهى في نهاية الشارع، اكتشفا أن سيرة نسيم سعدي قد لاكتها الألسن كثيرا هناك، وكما قالت الخادمة، فالكل يعتقد أنه في السجن ولم يحضر جنازة والده بسبب ذلك، أما عن والدته فلم يكن أحد يهتم بها حتى يوم الجنازة، وبعد غيابها اللافت برزت العديد من التساؤلات.
كان المحققان يقفان مع صاحب المقهى على يسار المنضدة، وكانت هناك عتمة خفيفة بالداخل، شعر حميد برغبة في الخروج، فالتفت نحو الطاولات شبه الفارغة ثم عاد يقول للرجل أمامه: قد تكون الطريقة التي مات بها سعدي هي ما دفعت زوجته للاختفاء، فقد أدين بعدة جرائم، ومات وهو في طريقه إلى السجن، بمعنى كل ذلك جعلها تفضل العزلة على قبول التعازي؟
أخذ النادل بعض الكؤوس الفارغة، وضعها بسرعة في مغطس الأواني خلفه، ثم قال وهو يمسح المنضدة: في الحقيقة لست متأكدا من أية معلومة فيما يخص هذا الموضوع، فأنت تعرف كلام المقاهي، كلام ليس له رأس ولا ذيل.

قال عدلان: نريد أن نعرف إن كان أي شاب هنا لا يزال على اتصال بنسيم سعدي؟

فكر الرجل بسرعة، ثم خرج من ممر في نهاية المنضدة وقال: اتبعاني.

سار حتى خرج من المقهى، واستمر في التقدم حتى قطع الطريق وتوقف في نقطة مقابلة للشارع الثاني، وحين التحقا به، أشار إلى محل لبيع الألبسة على بعد مائة متر وقال: في ذلك المحل يعمل شاب كان نسيم يزوره كثيرا، قد تجدان عنده رقم هاتفه.

توجه حميد وعدلان مباشرة إلى المحل، وسألا عن رشيد كما أخبرهما صاحب المقهى، ولكن البائع قال إن الشاب لم يعد يعمل هناك، ولا يعرف حتى كيفية الاتصال به. بدأ حميد يشعر بالإحباط، وفكر حينها بالعودة إلى المنزل والتدرب لبعض الوقت، ثم يأخذ حماما دافئا وقد يستلقى قليلا لا يفكر في شيء، ولكن عدلان كان مصرا على محاولة إثبات وجهة نظره. عادا إلى بيت سعدي حيث كانت مركونة سيارة 'kia rio' الخاصة به، وكانت جميع عناصر الأمن قد غادرت البيت، ماعدا سيارة واحدة وضعت قرب البوابة للمراقبة.

كان المكان يبدو في غاية الجمال، فقد تسلسلت أشعة الشمس بين نباتات لا تزال أوراقها تحتفظ ببعض قطرات المطر، كما كانت أصوات العصافير تغري السامع بالجلوس على كرسي عند نهاية الساحة، يغمض هناك عينيه قليلا فيأخذ قسطا من الاسترخاء ويحصل على بعض من السكينة، فكر حميد في ذلك حقا ثم قال: لو لم نكن في هذا الشأن لأخذنا جولة للتنزه داخل الحديقة.

كان عدلان يفكر في شيء آخر، ولهذا قال بسرعة: هل فتشتم الحديقة؟

لم يكن في الحديقة ما يمكن تفتيشه، لذلك رد حميد: لا، فتشنا البيت فقط.

تمتم عدلان بصوت خافت: كنت أعلم أنه لا يمكن الاعتماد على الشرطة.

ثم أشار لبوابة من خشب مطلي بالبياض، كانت تتوسط سياجا يفصل بين الساحة والحديقة، ثم قال: يمكننا أن نقوم بجولة كما قلت، وفي الوقت نفسه قد نعثر على شيء.

وكان بالحديقة ممر من الحصى المتناسقة مثل الفسيفساء، تنطلق من البوابة الصغيرة وتتفرع بين الأشجار على شكل ممرات صغيرة، ومن أجل استراحة لطيفة وسط الطبيعة، فقد وضعت بين مسافات متباعدة كراس خشبية متقنة الصنع، تنتصب بالقرب منها أعمدة صممت على طراز أوربي قديم. حين وصلا وسط الحديقة بدا أن الأمطار الغزيرة التي سقطت في الأيام السابقة قد جعلت التربة تغور في مكان قريب منهما، وبذلك صارت تلك القطعة من الأرض تحتوي على حفرة بقطر مترين أو يزيد قليلا.

أشار عدلان إلى الحفرة، ثم اتجه نحوها وسط تربة لم تجف بشكل جيد، فامتلأ حذاؤه بالوحل، حين تبعه حميد استدار نحوه وقال: هل يوجد فأس ومجرفة هنا؟

هناك مخزن صغير للمعدات في الباحة الخلفية.

ونظر إلى الحفرة ثم تساءل: هل تعتقد أنه يوجد شيء بالداخل؟

علينا أن نتأكد أولا ثم نرى ما يمكن فعله.

وبعد حوالي خمس دقائق كان كل منهما يرتدي حذاء مطاطيا ويحمل مجرفة، عادا إلى الحديقة ولم يحفرا إلا قليلا حتى بدأت تظهر تحت التراب ملابس نسائية.

أحس حميد بقشعريرة تسري في جسده، فابتعد ببطء عن المكان دون أن يجرأ على رؤية بقية المنظر، استمر عدلان في النبش حتى ظهر مجددا شعر امرأة، وعندها توقف هو الآخر عن الحفر، وطلب من حميد استدعاء فرقة طبية لاستخراج الجثة.

نقلت جثة خديجة سعدي أو ما بقي منها إلى المشرحة، وذلك بعد أن قرر الطبيب الشرعي أن سبب الوفاة يعود إلى عدة طعنات على مستوى الرقبة، ولم يكن هناك حاجة للتشكيك في هذه النتيجة، لأن أداة الجريمة وجدت أيضا مع الجثة، وكان قد استخرج من القبر بعض الأغراض المتعلقة بالضحية، بما في ذلك هاتفا محمولا 'Samsung Galaxy S8' استطاع أن يصمد وسط الثياب، وضعت كل الأغراض في أكياس بلاستيكية، وتم ارسالها من أجل رفع البصمات.

بعد الفراغ من نقل الجثة والأدلة، غادر عدلان نحو مستشفى عليم لويس ليطمئن على جازية ويخبرها بما حدث، فيما توجه حميد إلى مركز الشركة، وخلال زحمة السير حاول أن يسترجع ما مر به لعله يصل لنتيجة واضحة، فالمرأة -حسب ما يرى عدلان- قتلت من طرف زوجها، لأنه اكتشف علاقتها ببوشو، وبذلك فسعدي قام بارتكاب الجريمتين للدافع نفسه، أي الانتقام لشرفه، ولكن تبقى نسبةٌ من الشك في وجود دافع آخر، وبناء عليه، لابد من البحث عن دليل قوي يؤكد صحة أي فرضية.

كان عليه أن يتفقد محتويات الهاتف، فاتجه أولا لمكتبه، وهناك كتب تقريرا عما حدث، ثم اتصل بالخبير المكلف برفع البصمات "عز الدين راشد" بخصوص هاتف الضحية، أخبره أنه سيرسله بعد أقل من نصف ساعة، خلال تلك المدة ذهب إلى محل قريب لبيع الأطعمة السريعة، تناول وجبة خفيفة من البطاطا المقلية مع الجبن وبعض قطع الطماطم، مع

قارورة مشروب غازي، وخرج بعدها إلى المسجد لصلاة الظهر، كان قد مر على وقت الصلاة أكثر من ساعة، لذلك صلى منفردا، ثم عاد إلى قاعة الاستراحة بالقسم مع فنجان قهوة، لم يجد هناك أحدا، وذلك لحسن حظه، فقد كان في حاجة للحظة هدوء من أجل صفاء الذهن، اتكأ باسترخاء على مسند الكرسي، ثم وضع قدما على كرسي آخر وراح يحدق في الخواء، بعد مرور بعض الوقت رن هاتفه مجددا وطُلب منه أن يحضر لاستلام الهاتف المحمول، قام كالمصعوق، وبخطوات سريعة وصل إلى مكتب عز الدين راشد، هناك أخبره الشرطي أنه لم يتم التحقق من صاحب البصمات بعد، ولكنها رفعت جميعها من على الجهاز، ثم أضاف وهو يسلمه الهاتف: قمنا بشحن الجهاز لفترة وجيزة، ولكن لا أظنه سيمكنك استخدامه طويلا.

قبل أن يغادر طلب من الشرطي أن يزوده بالشاحن، وبعد أن عاد لمكتبه تفقد الملفات المحمولة على الجهاز، كانت هناك مجموعة من الأغاني الفرنسية لخوليو اغلاسياس 'Julio Iglesias'، سيلين ديون 'Celine Dion'، وجاك بريل 'Jacques Brel'، وبعض الصور الخاصة بالضحية، حدق إليها حميد وقد أصيب بالذهول وتساءل: كيف لشخص أن يقتل امرأة كتلك؟ كانت جميلة حقا، شعر أصفر مجعد، وجه أبيض مستدير، مزين بعينين واسعتين مع أهداب طويلة، جسم متناسق أقرب للشكل الأنثوي المثالي، كانت معظم الصور التي التقطت أثناء الصيف، لذلك كانت الثياب التي ترتديها خفيفة، وكانت الابتسامة أبدا لا تفارق ثغرها، وبعد أن مر على جميع الصور لاحظ أن بمعظمها امرأة أخرى تقف بالقرب من الضحية، كانت في مثل سنها تقريبا، أي بداية الأربعينات، جميلة أيضا، وأكثر ما يميزها

عيناها الخضراوتان، قامة قصيرة نسبيا، واعتناء واضح بمظهرها، تساءل حميد إن كانت تلك السيدة هي نفسها زوجة عبد الرؤوف قامر، ولكن حسب ما فهمه من خادمتها فالمرأتان لم تكونا بتلك الصلة القوية التي تظهر في الصور، كانت هناك صورة أخرى لشاب في العشرينات، افترض أنه ابنها نسيم، فقد كانت بعض ملامحها واضحة على وجهه، كما أنه كان يملك جسما يميل لشكل والده، حين أنهى تصفح الصور تفقد قائمة الأسماء، وقبل أن يمر على جميع المسجلين ظهرت إشارة تطلب منه إعادة شحن الهاتف، نظر بشكل آلي إلى الباب لعله يرى الشرطي يأتي بالشاحن، ثم عاد للقراءة، ولم تكن تلك الأسماء بالنسبة إليه حينها ذات قيمة دون معرفة هوية أصحابها، ففكر في أنه إن اتصل لاحقا ببعضها فقد يحصل على معلومات قيمة، وانتقل بعدها إلى قائمة الرسائل التي وجد أنها فارغة، وقبل أن يضغط على لمسة الخروج انطفأ الهاتف.

وضع الجهاز على المكتب، وعاد لوضعية الاسترخاء السابقة، كان يشعر حينها أنه قد استلم قضية جديدة ليست لها أية علاقة بمقتل بوشو، نظر إلى الساعة بسرعة فوجدها قد تجاوزت الثالثة زوالا، خمن أن الشرطي ربما لن يعود أبدا، لهذا وضع الهاتف في جيبه وقد عزم على العودة للبيت.

حين وصل، بحث مباشرة عن شاحن مناسب لذلك الهاتف، ولحسن حظه أنه لا يزال يحتفظ بمثله في أحد الأدراج، غيَّر بعدها ثيابه بسرعة وارتدى ثياب الرياضة، وكانت قد مضت مدة لم يقم فيها بأية حركات، غير أن شعورا قويا كان يدفعه للعودة للتدريب حينها، ركض عبر الطريق الذي اعتاد أن يسلكه، أي عبر ضاحية لا تزال تحتفظ الطبيعة فيها ببعض سلطتها، ولكن هذه المرة أحس بالتعب قبل أن يكمل المسار، كان جسمه قد

اعتاد على الراحة في فترة انقطاعه عن التمارين، قام ببعض الحركات الخفيفة في مكان شبه خال من المارة، ثم عاد سيرا على الأقدام.

حين وصل إلى البيت أخذ حماما خفيفا وغيَّر ثيابه ثم استلقى على الفراش، لاحظ أن البطارية لم تمتلئ بالكامل إلا أنها كانت تكفي لتشغيل الجهاز عدة ساعات، أعاد النظر إلى الصور مرة أخرى، وكأنه يلقي التحية على صاحبة الهاتف قبل أن يكمل البحث، ثم انتقل إلى التطبيقات الخاصة بالمحادثة لعله يجد بعض الرسائل، وبعد أول محاولة أدرك أنه لم يكن هناك اتصال بشبكة الأنترنت، كان هناك فقط بعض الوحدات الخاصة بالاتصال على شريحة الهاتف، استخرج هاتفه وفعَّل خدمة 'Wi Fi' عليه، ثم عاد وشغل الخدمة نفسها على جهاز الضحية، وبذلك صار كل من الجهازين متصلين بالانترنت، توجه مباشرة إلى تطبيق 'Messenger' وهو أشهر تطبيق للمحادثة، ولم يكد يصدق حين اكتشف أن الحساب مفتوح، كان هناك حسابات كثيرة، ومن بينها حسابان اعتادت أن تدردش مع أصحابها، الأول باسم 'Nassimtop' وهو حساب ابنها، فقد كانت تخاطبه باسم: 'Mon fils' أي ابني، كانت آخر محادثة منذ عدة أشهر، أي قبل أن تتأزم الأحداث فيما يبدو، ولذلك كان معظم الحديث عن رغبة الابن في العودة إلى البيت، واشتياقه لطعام أمه.. أي حديث عام لا يقود لأي نتيجة.

أحس حميد بشيء من الملل بعد قراءة جزء من تلك الرسائل، ثم انتقل إلى الحساب الثاني، والذي كان لنفس المرأة التي كانت تظهر معها في الصور، كانت تدعى مليكة حسب الرسائل الموجودة، وكانت تاريخ المحادثة يرجع إلى ثلاثة أشهر، وبالضبط قبل وفاة بوشو بيومين، كان ذلك كفيلا بأن يثير اهتمام حميد، ولكن ما لفت اهتمامه أكثر، آخر كلمة كتبتها خديجة

لصديقتها.. فقد كان مكتوبا ما يلي: "اكتشفت أمرا في غاية الخطورة يقوم به زوجي.. سأخبرك به حين نلتقي.. " وكان رد مليكة: "لا أستطيع الصبر حتى الغد، سأتصل بك عبر الهاتف.."

قام حميد بمسح الشاشة، فعادت قائمة الدردشة إلى تواريخ أقدم، كانت خديجة خلالها تتحدث إلى صديقتها عن بعض المشاكل مع زوجها، ولكن لم تكن في رأي حميد لتبلغ درجة القتل.

رن هاتف حميد فجأة، وكان عدلان شيكر على الخط، سأل مباشرة دون أن يلقي التحية: هل من جديد فيما يخص الهاتف والبصمات؟

تبسم حميد وهو يضع هاتف الضحية جانبا، ثم عدّل هاتفه على الأذن اليسرى وقال: لم يتم إرسال نتائج البصمات إلى الآن، ولكن هناك شيء فيما يخص الهاتف.

رد عدلان بسرعة: أرجو أن يكون به ما يفيد.

عثرت به على صور خديجة مع سيدة يظهر أنها صديقة لها، كما وجدت على الماسنجر بعض الدردشة مع ابنها والمرأة نفسها التي كانت في الصور، والتي كانت تخاطبها باسم مليكة.

وهل وجدت في الرسائل ما يقود إلى أي دليل له علاقة بمقتلها؟

وضع حميد الهاتف على الأذن الأخرى، ثم أجاب: أظن أن المرأة التي تدعى مليكة تعرف شيئا ما، ولهذا سأحاول الاتصال بها إن تمكنت من العثور على رقمها في الهاتف.

حسنا، إذن سأعاود الاتصال بك.

لا بأس، سأطلعك على أي جديد فلا تقلق.

كان حميد يشعر ببعض الانزعاج من هذا التدخل في عمله، ولكن في المقابل كان يحاول أن يقنع نفسه بأن للرجل بعض الحق في معرفة أهم التطورات، ففي الأخير هو من كان له الفضل في التركيز على زوجة سعدي، والتي لم يكن هو يعطي لها الكثير من الأهمية.

بعد أن أقفل الخط، وضع الهاتفين معا على الفراش، وتوجه إلى الغرفة الثانية التي كانت عبارة عن مطبخ، أشعل الفرن ووضع إبريق قهوة كانت معدة منذ الصباح، نظر من النافذة فرأى الشمس بدأت تغيب خلف شجرة تقف أسفل العمارة، حين جهزت، سكب فنجانا وعاد يتمدد مرة أخرى على فراشه، أخذ رشفتين ثم حمل هاتف الضحية مرة أخرى، بحث في قائمة الأرقام المسجلة عن اسم مليكة، وما كادت تقع عيناه عليه حتى ضغط على زر الاتصال، ازدادت دقات قلبه وهو يستمع للهاتف يرن، و بعد مدة سمع المسجل الصوتي يطلب منه إعادة المحاولة، أخذ نفسا عميقا وأعاد الكرة من جديد، ولم ينتظر طويلا هذه المرة حتى سمع صوت سيدة تجيب: ألو.. ؟

رد حميد بنبرة متوترة: عفوا سيدتي هل هذا رقم مليكة؟

من أنت؟

أود أن أعرف إن كنتِ مليكة لو سمحت.

لا، أنا والدتها، لماذا تسأل عنها؟ وكيف استطعت الاتصال بذلك الرقم؟

وهل تعرفين صاحبة الرقم الذي اتصل به.

صمتت السيدة لبرهة، ثم قالت: لم يكن ذلك الرقم يعمل لفترة...

إذن أنت تعرفين صاحبة هذا الرقم؟

جاءه صوت المرأة هذه المرة بشيء من الحدة: لا أعرف أحدا أيها السيد، أريد فقط أن أعرف من تكون، ولماذا تتصل؟

حسنا، لا أريدك أن تنزعجي سيدتي، أنا محقق من قسم الشرطة، وأريد أن أسأل ابنتك بعض الأسئلة لو سمحتِ؟

ولماذا تريد أن تسأل ابنتي؟ ما علاقتها هي بالشرطة والتحقيق؟

قرر حميد أن يخبرها بما وصل إليه، ولم ير من ضرورة لإبقائه سرا: لقد قتلت سيدة تدعى جميلة مندوب، صديقة ابنتك على ما أعتقد، ونحن بحاجة للتحدث إليها من أجل الإجابة عن بعض التساؤلات.

عادت نبرة الاضطراب لصوت السيدة حين أجابت: اسمع أيها المحقق، ابنتي لم تقتل أحدا، وهي تعاني من اضطرابات نفسية وتخضع للعلاج، ولهذا فهي غير قادرة على الحديث مع أحد، كما أرجو أن تعذرني أنا أيضا، فعلي إنهاء المكالمة.

وأقفلت الخط قبل أن يقول أي كلمة، ثم أخذ رشفة من فنجان القهوة وقد أحس أنه أحرز تقدما لا بأس به. وبعد لحظة شرود، التقط الهاتف من جديد وقد لاحظ أن البطارية لا تزال صامدة، أعاد الضغط على زر الاتصال مجددا فجاءه صوت المرأة مرة أخرى: ماذا تريد الآن؟

أريد أن أتحدث معك سيدتي.

في أي شأن؟

لا داعي للقلق، مجرد أسئلة عن ابنتك، ولن يكون هناك أي إزعاج بعد ذلك.

وهل يجب علي فعل ذلك؟

أجل، وإن لم تفعلي، فسنرسل من يحضرك بالقوة إلى المحكمة.

تعمد حميد إخافة المرأة، ويبدو أن كلماته قد وقعت في نفسها بما كان يرجوه، فقالت: حسنا، أعد الاتصال بي في الغد، وسأعطيك العنوان الذي يمكننا فيه الحديث..

لا بأس. سأتصل بك غدا صباحا.

وضع حميد هاتفه واستلقى على الفراش مادا ذراعيه إلى الخلف، وبينما هو يفكر تذكر تاريخ آخر رسالة بين خديجة وصديقتها، كانت في الثالث عشر من سبتمبر، أي قبل وفاة السيد بوشو بيومين. لم يعد هناك شك في أن الجريمتين مترابطتان إلى حد بعيد، قد يكون عدلان محقا إذن، ولكن كان هناك مزيد من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابة، ما الذي اكتشفته خديجة بخصوص زوجها؟ وما الذي أخبرت به صديقتها مليكة؟ أيعقل أن يكون سعدي قتلها لأنها اكتشفت سرا من أسراره؟ قال في نفسه وهو يغمض عينيه: أرجو أن تجيب مليكة عن كل هذه الأسئلة.

في صباح الغد قرر حميد أن يصطحب عدلان بناء على طلبه، انتظره في شقته قليلا ثم اتجها معا إلى مدينة القبة، كانت الساعة حوالي التاسعة والنصف حين توقفت سيارة ال 'kia rio' قرب بناية من طابقين، صعدا درجا قصيرا قادهما نحو باب بني، وقبل أن يضغطا الجرس لاحظا لوحة كتب عليها اسم "بوشلي"، أي أنهما جاءا للتحري عن مليكة بوشلي، بدا أن الزر معطل فطرق حميد على الباب و انتظر، وفجأة خرجت طفلة في العاشرة من عمرها، كان أكثر ما يميزها شعر جميل منسدل حتى كتفيها، وعينان مشرقتان كالبلّور، نظر إليها حميد بإعجاب، وتساءل أية صلة تربط العجوز بهذه الطفلة، وبدل أن يسأل عن العجوز سأل مباشرة عن مليكة.
أجابت الطفلة بصوت طفولي عذب: عمتي مليكة مريضة، تقول جدتي أنها ستشفى عما قريب.
أراد حميد أن يضيف سؤالا للطفلة، ولكنه سمع العجوز تتحدث من أعماق المنزل: "من بالباب ماريا؟" استدارت الطفلة برأسها للداخل، ثم صاحت بصوت حاد: هناك من يسأل عن عمتي مليكة ...جدتي.
جاءت العجوز مسرعة إلى الباب، وقفت خلف الطفلة ونظرت نحوهما نظرة غاضبة، ثم قالت: لماذا تسألان عن مليكة؟
تبسم حميد وقال: أنا من تكلم معك قبل قليل عبر الهاتف، كنت أريد أن اسألها عنك، ولكن لم أكن أعرف اسمك.

وضعت العجوز يديها على كتفي البنت، وقالت لها: اذهبي يا ابنتي إلى الداخل وسألحق بك في الحال.

وكانت المرأة تبدو قوية رغم سنها الذي أوغل في التقدم، لها وجه قليل التجاعيد، وعينان لا تزالان تحتفظان ببريق الحياة، جسم متوسط الحجم، تحجبه بسترة جلدية خاصة بالرجال، وجبة زرقاء ثخينة تنسدل حتى تكاد تلامس الأرض، حين غادرت الطفلة قالت المرأة بنبرة أكثر هدوءا: لو لم تكونا من الشرطة لطردتكما في الحال، ولكن بما أنني قد وافقت لقاءكما فأرجو ألا تطيلا البقاء هنا.

وانزاحت قليلا عن المدخل مشيرة بيدها أن يتبعاها: تفضلا.

كانت الغرفة واسعة، وبها نافذة تتسلل من خلالها إشراقة جو صحو، ومن أجل الجلوس، وضعت أرائك منسقة بشكل دائري على سجاد يغطي معظم مساحة الغرفة، وبالقرب منها مائدة منخفضة عليها مزهرية مع بعض النباتات البلاستيكية، حين جلس الجميع قالت السيدة: إن كنت مهتما باسمي فهو فاطمة الزهراء، ويدعوني البعض "مزورة" أو "مزو".

رد حميد بصراحة بدت غير ودودة: في الحقيقة نحن مهتمان بمليكة، وقد قلت عبر الهاتف أنه لا يمكننا التحدث معها، لهذا أود أن أعرف أين هي الآن؟

سبق وأن أخبرتك أنها منهارة نفسيا، ولا تستطيع الإجابة عن أسئلتك.

حسنا وما هو الأمر الذي جعلها تصل لهذه الحالة؟

لست أدري.. كانت في رحلة إلى فرنسا، وحين عادت بدأت تظهر عليها أعراض القلق والتوتر.

ألا تظنين أنها ربما قامت بشيء جعلها على هذه الحالة؟

ردت مزو بحدة: إن كنت تقصد أنها قد ارتكبت جريمة في حق صديقتها، فعليك أن تبعد هذه الفكرة كليا عن رأسك.
أراد حميد أن يطمئنها، حتى تكون أكثر صراحة في الحديث: في الواقع نحن نعلم أن زوج خديجة هو من قام بقتلها، كما أننا نعلم أن آخر شخص اتصلت به قبل وفاتها كانت ابنتك مليكة، ولهذا نود أن نعرف أي أمر تحدثا عنه، والذي قد يفيدنا في اكتشاف الدافع إلى الجريمة. مسحت مزو على جبينها، ثم قالت: في الحقيقة، لا علم لي بما يمكن أن يكونا قد أسرا به لبعضهما، فكل ما أعلمه أنهما كانتا صديقتين منذ أيام الجامعة، وبعد التخرج بفترة أنشأتا معا وكالة سياحية بمساعدة بعض الأصدقاء، كما كانتا تقضيان معظم وقتهما في محاولة تطويرها، إلى أن جاء اليوم المشؤوم الذي اختفت فيه خديجة فجأة.
قال عدلان بعد فترة صمت: أليس من الغريب أن تختفي صديقة ابنتك كما قلت فجأة، ولا تكلف هي نفسها البحث عنها أو حتى مجرد إبلاغ الشرطة باختفائها؟
بدا بعض الاضطراب على المرأة حين أجابت: كانت ستسافر ابنتي إلى فرنسا على أي حال، ولم يكن لها الوقت الكافي للتحري عن مكان خديجة، ربما ظنت أنها مشغولة ولم يصل الأمر إلى درجة الموت.
قال حميد: متى سافرت ابنتك بالضبط؟
من الصعب أن أتذكر التاريخ بالتحديد.
قال حميد: أليس هو يوم الخامس أو السادس عشر من سبتمبر.
فكرت مزو للحظة، ثم قالت: تذكرت أمرا، ولكن دعني أولا أتحقق منه.

وتوجهت إلى مكتبة صغيرة كانت تزين الغرفة، فتحت أحد الأدراج العلوية ونظرت إلى ورقة ثم عادت تقول: اعتدت أن أحتفظ بالأوراق التي أراها مهمة في تلك المكتبة، ولحسن الحظ أنه كان لي موعد مع الطبيب في اليوم الموالي لسفرها، أي كما قلت أنت، سافرت في الخامس عشر من سبتمبر الماضي.

نظر حميد إلى عدلان وقال: أي بعد وفاة بوشو بيوم واحد، ولابد أن يكون ذلك بعد وفاة خديجة سعدي حسب تقرير الطبيب الشرعي.

هز عدلان رأسه ثم نظر إلى مزو وسأل: إذا كنت تقولين إنها لم تستطع أن تتفقد صديقتها قبل سفرها، فلماذا لم تفعل بعد أن عادت من السفر؟

كما أخبرتك من قبل، عادت في حالة نفسية منهارة، وبدت شديدة الاكتئاب والتكتم، حتى أنه لم يستطع أحد أن يعرف منها ماذا حدث بالضبط.

استمر عدلان في الكلام: ألا ترين سيدتي أن ابنتك في موضع واضح للشبهة، فقد سافرت بعد يوم واحد من مقتل صديقتها، وهذا يدفع البعض إلى الافتراض أنها فرت خوفا من العقاب، ثم بعد فترة لم تستطع تحمل عقدة الذنب فأصيبت باكتئاب شديد وعادت إلى البيت، وبالطبع لن تستطيع أن تخبر أحدا بما فعلت وإلا ستعاقب بجريمة قتل.

أحست مزو بغصة مفاجئة، فوضعت وجهها على كفها، وقالت وهي تنتحب: لم تقم ابنتي بأية جريمة، صدقوني.

في هذه اللحظة دخلت الطفلة التي استقبلتهم تحمل صينية قهوة، حين رأت جدتها تبكي، وضعت القهوة بسرعة حتى كادت توقع المزهرية، وأسرعت إلى العجوز قائلة: ما بك جدتي، لماذا تبكين؟

رفعت مزو رأسها وقبلت رأس حفيدتها، ثم قالت: لا شيء يا ابنتي، اذهبي إلى غرفتك وسألحق بك بعد قليل.
واستمرت مزو محدقة في الأرضية، حتى سمعت صوت الباب يغلق خلف الطفلة، رفعت رأسها مجددا ومسحت عينيها وأنفها، ثم قالت: لقد أخبرتني قبل قليل أن سعدي قتل زوجته، فلماذا تتهم الآن ابنتي؟
ظل الرجلان صامتين للحظة ينظران إليها، ثم قال حميد: نحن لا نتهم ابنتك، ولكننا نحاول أيجاد تفسيرا لما حدث. فقد قلت بنفسك أنها لا تريد أن تتحدث، أليس كذلك؟
أجل، ولهذا أخبرتك أنك لن تستطيع الحديث معها.
ساد صمت آخر، ثم عاد حميد للقول: أرى أنه لا ضير من المحاولة، فإن ظلت على صمتها، فقد يعاد النظر في الأدلة وقد توجه التهمة إليها.
مسحت مزو على جبينها مرة أخرى، وقالت: مع أنني متأكدة أنك لن تصل لنتيجة، بيد أنني لا أرى سبيلا لإقناعك إلا بتركك تحاول، وقامت من مكانها وقالت: أرجو أن تنتظرا عودتي للحظة.
حين غادرت المرأة، مد عدلان يده إلى إبريق القهوة، وسكب لنفسه فنجانا وهو يقول: لو لم أكن متأكدا أن سعدي قتل زوجته، لما ترك ما سمعت في ذهني ذرة شك أن ابنتها هي القاتلة.
عاد حميد إلى الخلف وأرخى جسمه على مسند الأريكة، وقال: أرجو أن نحصل على نتيجة مع مليكة، فإن أبت الحديث كما تقول أمها، فسنصل إلى طريق مسدود آخر.
أشار عدلان إلى القهوة وقال: لحسن الحظ أنهم أحضروا القهوة، فأنا في حاجة إلى فنجان هذه اللحظة. أتريد أن أسكب لك؟

لا، فقد احتسيت ما يكفي قبل أن آتي إلى هنا.

ولم يمضِ كثير من الوقت حتى فتح باب الغرفة، ظهرت مزو أولا ثم ظهرت امرأة أخرى تمسك بيدها، قام كل من عدلان وحميد لاستقبال مليكة التي بدت مرهقة حقا، كان حميد في دهشة للفرق الشاسع بين ما يراه الآن وما كانت عليه في الصور، كانت تبدو أكبر سنا وأقل جمالا، كما كانت خطواتها بطيئة وقوتها واهنة. قادتها أمها إلى مكان على الأريكة قرب حميد وقالت: هذان السيدان جاءا للحديث معك يا ابنتي، إنهما من الشرطة. يقولان إنهما يعرفان شيئا عن اختفاء صديقتك خديجة.

نظرت مليكة لأول مرة نحوهما ثم عادت لتطأطئ رأسها. قال حميد لمزو: ألم تخبريها بعد؟

هزت مزو رأسها نافية، ثم عادت لتجلس حيث كانت.

أراد حميد أن يطمئنها، فمال قليلا نحوها وقال بصوت هادئ: مليكة.. أرجو ألا تخافي فنحن لن نؤذيك..

وقبل أن يكمل تفاجأ الجميع بصوت مليكة ينبعث بشكل واضح: هي ميتة، أليس كذلك؟

نظر الجميع إلى بعضهم البعض في شبه حيرة، فيما كانت مليكة لا تزال تحدق نحو الأسفل. استعاد حميد بسرعة هدوءه، وقال: أجل، وجدناها مدفونة في حديقة منزلها، كيف عرفت ذلك مليكة؟

لم تجب مليكة، وبقيت صامتة في ذهول، فأعاد حميد السؤال مرة أخرى: منذ متى وأنت تعلمين أن صديقتك ميتة؟ أرجوك مليكة أخبريني، فنحن بأمس الحاجة لمعرفة ما تعرفينه.

انتظر الجميع مليكة بصبر إلى أن قالت: اتصلت بها قبل سفري بيومين لأسألها عن أمر قالت أنه في غاية الخطورة.

ثم عادت للصمت وعاد الجميع للترقب، فقال حميد: وماذا حدث بعد ذلك؟ لا داعي للخوف مليكة يمكنك أن تثقي بنا.

أخبرتني أن سعدي يقوم بابتزاز زوجها السابق، وقالت إنها ستحدثه في هذا الشأن.. نصحتها ألا تفعل... ولكن حين وجدت هاتفها مغلقا في صباح الغد، أيقنت أنها أصيبت بسوء.

وتوقفت عن الكلام وأخذت تنتحب في صمت، أحس الجميع بالحزن لأجلها، ولكنها استجمعت قوتها وعادت للحديث: كنت أعلم أنها أصيبت بسوء.. فذلك الرجل كان لا يحبها، أخبرتني مرارا أنه يتمنى موتها...

سأل حميد: ولماذا لم تخبري الشرطة حينها؟

كنت خائفة، كان يعلم أنني صديقتها الوحيدة وبأنها لا تخفي عني شيئا.. كان سيأتي للانتقام مني أنا أيضا بلا شك..

ولذلك هربت؟

أجل.

وعدت حين علمت أنه قد مات في حادث مرور، أليس كذلك؟

أجابت مليكة بصوت مخنوق: "هذا صحيح". وعاد الصمت لفترة كأنهم في جنازة، ثم قال عدلان: وما علاقة صديقتك بزوجها السابق؟ علمنا أنهما كانا يلتقيان أحيانا.

مسحت مليكة دموعها، وقد بدت أنها ارتاحت قليلا حين أفشت أخيرا بسرها: "كانت تريد العودة إليه، أرادت أن تطلب الطلاق من سعدي وتعود إليه، فقد انفصلا بسبب حاجتها إلى الأطفال، وعدم قدرته على الإنجاب،

وقد انتفت تلك الغاية بحصولها على نسيم، أما سعدي، فكانت ترى أنه من المستحيل أن تستمر على علاقة به".

وهل كانت لدى بوشو الرغبة نفسها؟

كان يحبها، ولكنه كان يحب زوجته الشابة أيضا، ولم يرد أن يؤذي شعورها. ولكنه كان يريد أن يطلقها؟

أجل.. وذلك من أجل حمايتها، فحسب ما أخبر به خديجة، فقد كتب عليه أن يتخلى عمن يحب لمصلحتهم، أي كان دائما يضحي من أجل الآخرين، ولكن في المقابل لم يعد صديقتي بالزواج، كان يقول إنه لا يريد أن يتحدث في ذلك الموضوع وهي في عصمة رجل آخر، كما أن الوقت لم يكن مناسبا لذلك.

حاول عدلان أن يثبت وجهة نظره لآخر مرة: ألا ترين أن سعدي كان يعتقد أن زوجته تخونه مع صديقه، فقتلهما معا؟

نظرت مليكة إلى الطاولة، وقالت: أحتاج لأشرب بعض الماء. أسرع حميد وسكب لها كأسا، وبعد أن شربت قليلا، ردت بنبرة واضحة: أظن أن سعدي قتل صديقه للسبب لنفسه الذي كان به سيقتلني لو ظفر بي.

لم يستطع أحد تصديق أن هذه المرأة تعرف كل ذلك. فقال عدلان: أيمكنك أن توضحي لنا الأمر لو سمحتِ.

وضعت الكأس على الطاولة، وقالت: كان السيد بوشو لا يخفي عن صديقتي شيئًا، وكانت صديقتي بدورها لا تخفي عني أي شيء، ولهذا عرفت أموراً كثيرةً عن ذلك الرجل، وحين راودتني الشكوك في كونها قد أصيبت بسوء، لم أجد من أخبره بذلك غير السيد بوشو، كنت جد خائفة، فاتصلت به عن طريق رقم الهاتف الذي كان يستخدمه فقط للاتصال بها،

ولم يكن يعرفه أحد سواها، لم ينزعج لأنها أخبرتني بسره الصغير، وطلب مني أن أزوره في منزله لنرى ما يمكن فعله، وبعد ثلاث ساعات من ذلك الاتصال، وصلت للبيت فرأيت رجلا يخرج مسرعا منه، تبعته حوالي خمسين مترا لأشاهد سعدي ينتظره عند أحد المنعطفات، هناك أدركت أن بوشو ربما أصيب بمكروه هو الآخر، وأيقنت أنني سأكون هدفهم الجديد بلا ريب، حزمت حقائبي على الفور، واستأجرت غرفة بالفندق حيث قضيت ليلتي، وحين حلّ الصباح كنت على متن أول طائرة متجهة إلى فرنسا.
قال حميد محاولا تفسير ما حدث: لابد أن سعدي كان يتنصّت على المكالمة التي أجريتها مع بوشو، فمكتبه كان مليئا بكاميرات المراقبة التي زرعها من أجل التجسس عليه، ولكن إن كنت قد اتصلت بعد ذهابه إلى العمل، فهذا يعني أنه كانت هناك أجهزة للتنصت بسيارته أيضا، كما يفسر سبب عودته من العمل صبيحة مقتله، فقد كان يظن أن بيته أفضل مكان يمكن أن يتحدثا فيه بشكل آمن، ولم يكن يعلم أن سعدي كان هناك ينتظره.
وسأل عدلان: ألم تتعرضي بعد عودتك من فرنسا لأي حادث هدد حياتك؟
هزت رأسها بالنفي، فرد قائلا: لابد أنه كان مهتما بأمر إيقاف التحقيق، أو ربما كان مطمئنا أنك لن تتحدثي بعد كل ذلك الوقت.
قالت مليكة: لم أعد أحس بالخوف كثيرا بعد وفاة سعدي، ولكنني لا أزال أشعر ببعض الاكتئاب والقلق جراء الصدمة التي تعرضت لها، كنت أحاول النسيان، لهذا لم أخبر أحدا بما حدث، ولكن حين علمت أنكما من الشرطة، فكرت أنه الوقت المناسب لأتخلص من العبء الذي أحمله منذ عدة أشهر.

قال عدلان: حسنا فعلت، ولكن يؤسفني أن أخبرك أن سعدي لم يمت بعد، إلا أن ذلك لن يكون مصدر قلق، لأننا سنوفر لك الحماية اللازمة حتى يتم القبض عليه.

ردت مليكة بنبرة هادئة: أظنني قد تجاوزت مرحلة الخوف ولم أعد أعبأ بما سيحدث لي، فقد فكرت مرارا في أن أتخلص من نفسي بنفسي.

بدت عينا مزو محمرتين وغارقتين في الدموع، وفيما استمرت في صمتها، قام حميد وهو يقول: أشكرك سيدة مليكة على تجاوبك معنا، وثقي جيدا أن الأمور ستكون قريبا في أحسن حال، فلا تحزني أبدا.

ثم نظر إلى مزو التي كانت تقوم من مكانها، وقال: وأشكرك سيدتي جزيل الشكر، ونعتذر كثيرا على الإزعاج الذي سببناه لك.

وبعد أن عاد الرجلان إلى السيارة، علق حميد: إذن فالمرأة التي أخبرتك أنها شوهدت تحوم حول بيت بوشو يوم مقتله كانت مليكة.

وكذلك ما قالته يقودنا إلى الاعتقاد أن الشيء الذي أخذه دحمان من جيب الضحية كان هاتفه الثاني الذي اتصل منه بها، ولهذا السبب لم تعثر الشرطة على أي اتصال آخر يشير إلى سبب عودته إلى البيت ذلك الصباح.

من الغريب أن جازية لم تخبرنا بأمر ذلك الهاتف.

قال عدلان وهو يصعد السيارة: لو كانت تعلم بأمره لكانت قد أخبرتنا بلا شك.

ولماذا تظن أن بوشو كان يخفي أمره إن لم يكن ينوي حقا خيانة زوجته؟

فلو أنه كان صريحا معها لكان أفضل في رأيي.

لا أظن أنها كانت ستتقبل الأمر، كانت ستعتقد أنه سيضحي بها من أجل زوجته السابقة، ولهذا فضّل أن يجعل الأمر سرا.

نظر حميد إلى البيت قبل أن يغادرا المكان، ثم قال: وهل ستخبرها بأمر الهاتف وما كانت تريده خديجة منه؟

أظن أنه من الأفضل أن أترك الأمر سرا، سأخبرها فقط أن زوجها كان ضحية لقاتل مجنون كان يخشى من أن تكتشف جرائمه.

أرجو أن تجد إذًا قصة مقنعة.

لا تقلق في هذا الشأن فمن هواياتي المفضلة نسج القصص.

تبسم حميد وقد أحس أخيرا أنه على وشك الإجابة على كل التساؤلات التي أقضَّت مضجعه منذ عدة أسابيع.

بعد يومين تلقت جازية دعوة من فلة أومدي من أجل حفلة غداء صغيرة ببيتها، كان حميد أيضا ممن وصلتهم الدعوة، فقد أرادت فلة أن تشكره على المجهودات التي قام بها، وذلك بعد أن تم إثبات بصمات سعدي على السكين الذي عثر عليه مع جثة زوجته، ولم يبقَ غير إلقاء القبض عليه وأخيه، غير أن تلك لن تكون مهمة سهلة مطلقا، وقد تأخذ وقتا أو ربما لن تحدث أبدا، خاصة إذا استطاع سعدي أن يجد سبيلا للفرار إلى الخارج، أين يمكنه أن يبني حياة بعيدة عن الشبهة.

وكانت فلة -على ما يبدو- تحاول التقرب من جازية لنشوء عاطفة قوية نحوها، كانت ترى أنهما مثل أختين ولدتا من رحم الألم، كما كانت تحس نحوها بالإشفاق والإعجاب معا.

وكانت جازية تشعر كذلك نحو فلة بمودة مماثلة، ولذلك قبلت الدعوة بسرور، واتفقت مع حميد أن يرافقها بناء على رغبة فلة الملحّة. وفي طريقهما إلى ضاحية ببئر خادم، تساءل حميد عن عدم مجيء عدلان، فأرجعت جازية السبب لكونه مشغولا حسب ما أخبرها به. أوقفت السيارة أخيرا أمام بيت تقليدي على حافة الطريق، فبدا مسقَّفا بالقرميد، وتحيط به مساحة مغطاة بالعشب الطبيعي، كان كل شيء هادئا من حوله، لم يكن هناك سيارات تظهر وجود مدعوين آخرين، ولا أشخاصا يقفون في الجوار، وهذا في حقيقة الأمر قد أشعر جازية بالارتياح، فقد كان أكثر ما تخشاه أن

تجد أناسا لا هم لهم غير الثرثرة ومحاولة التدخل في شؤون الغير، لأنها عانت في المدة الأخيرة من أمثال هؤلاء كثيرا.

طرق حميد الباب مرتين، قبل أن تظهر فلة بوجه لم يتخلص كليا من لمسات الاكتئاب، ابتسمت ابتسامة باهتة ودعتهما إلى الدخول. وحين تقدما خطوات قليلة نحو الداخل شعرا أن شخصا ينتظرهما خلف الباب، استدارا بسرعة، فلم يصدق أي منهما أنه كان سعدي يوجه مسدسه نحوهما، حاول حميد أن يسحب سلاحه ولكن شخصا آخر ظهر من إحدى الغرف مشيرا إليه ألا يقوم بأية حركة. ابتسم سعدي وهو يقول: شكرا لأنكما أتيتما في الوقت ولم تدعاني أنتظر طويلا.

ومد يده الأخرى نحوهما، وأضاف: ليعطني كل منكما سلاحه، بسرعة.

نظر حميد إلى الشخص الذي كان يقف خلفه فرأى أنه دحمان، لم يكن يظن أبدا أن تدفع بهما الجرأة للظهور مجددا، نظرت جازية إلى فلة وصاحت بغضب: أيتها الخائنة اللعينة، أقسم لو ظفرت بك...

رد سعدي: لا.. لا تلوميها فأنا من اضطرها لفعل ذلك، ثم نظر إلى فلة وقال: والآن بعد أن انتهت مهمتك أريدك أن تنظمي إليهما، هيا.

صاحت فلة هي الأخرى: وماذا عن ابنتي؟ قلت إنك ستطلق سراحها إن فعلت ما تريده.

كل ما عليك أن تقلقي لأجله الآن هو حياتك لا حياة ابنتك، أم تظنين أنني سأتركك بعد أن تعرفي ما سأفعل بهما.

أخذ سعدي كل من مسدس حميد وجازية، واقتاد الجميع نحو الفناء الخلفي، وهناك فتح باب خشبي يقود إلى ورشة صغيرة مهملة، بدت كأنها استعملت ذات يوم في النجارة، ألقى حبلا وطلب من حميد أن يقيد المرأتين،

ثم وقف مع دحمان يصوبان مسدسيهما نحوهم. قال سعدي فيما كان حميد ينفذ ما طُلب منه: يؤسفني أن تكون نهايتك اليوم، فقد قمت بعمل يستحق الثناء حقا، استطعت أن تكشف هوية القاتل حتى بعد تنكره بوجه مزيف، كما استطعت أن تكتشف الجثة التي قمتُ بدفنها في حديقتي، ولكن ثق بأن قتلك الآن أفضل لك من أن تعيش لتموت من قسوة الإهمال ذات يوم، فأنت تبذل قصارى جهدك لتحارب الإجرام، وتخدم أناسا ليسوا جديرين بالثقة، ولهذا فمن المؤسف أن يكون حال أمثالك الموت على أي حال، إما موتٌ كالذي سأسقيك من طعمه اللحظة، وهو موت لن يسلم منه أحد، أو موت آخر أكثر ألما وأشد قسوة، ترى بعينيك كل ما حققته في حياتك وبذلت من أجله جهدك، ينهار بأيد كنت تحسبها تابعة للعدالة.

انتصب حميد أمام سعدي، واكتفى بالقول: أنا أؤدي واجبي طمعا في رضى الله، ولا انتظر من غيره جزاء ولا شكورا.

كان حميد قد قيَّد فلة بعقدة سهلة الفك، وكذلك فعل مع جازية، غير أن سعدي لم يكن ساذجا ليثق به، فطلب من أخيه أن يتفقد العقد. وكان حميد يعلم أنه إن لم يتصرف سريعا فسيكون هلاكه مؤكدا، ولكنه كان في موقع عجز من دون سلاح، واستمر واقفا على ذلك الحال إلى أن حدث أمر سمح له بالتحرك أخيرا، فحين انكب دحمان على حبال جازية ليعيد ربطها، وضع مسدسه على الأرض، فقامت هي بدفع المسدس بقدمها بعيدا، وهذا ما أغضبه فانهال عليها كالوحش يلطمها بقوة.

وفي ظرف انشغال سعدي بمراقبة ما يحدث، استغل حميد ذلك، وارتمى نحو ذراعه الممتد نحوه، أمسك المسدس بقبضتيه، ثم حرر إحداهما بسرعة وضربه بالمرفق على الوجه. اختل توازن سعدي قليلا، فاستطاع

حميد أن يسحب السلاح من يده ويدفع به إلى الوراء، وفي لحظة خاطفة، سدد المسدس نحو دحمان وأطلق رصاصة قاتلة على الرأس.

وحين استدار حميد نحو سعدي لاحظ أنه يحاول الفرار من الباب، سدد السلاح نحوه وقبل أن يضغط الزناد صرخت فلة بجزع، نظر اتجاهها خشية أن تكون قد أصيبت بسوء، فرأى جثة دحمان ممددة بالقرب منها، وعيناه الشاخصتان بشكل مرعب كأنها تحدقان نحوها. كانت الفرصة قد ضاعت عليه ليقضي على سعدي. أسرع ليحرر فلة ثم توجه لجازية، وقال وهو يحاول فك قيدها: علينا أن نسرع فمسدسانا لا يزالان بحوزته.

كانت الورشة في معظمها من الخشب، لهذا لم تكن محمية من الرصاص، أشار إلى المرأتين أن تختبئا خلف آلة معدنية صدئة في أحد الأركان، فيما اقترب هو من شق في الجدار ونظر عبره إلى الخارج، كان يبدو جزءا من الفناء الخلفي، ولم يكن هناك لسعدي أي أثر، أخرجت جازية هاتفها من جيب دحمان دون يظهر عليها الفزع، واتصلت بعدلان ليأتي في الحال، أما حميد فكان لا يزال يقترب ببطء من الباب واضعا أصبعه على الزناد، حين اقترب أكثر سمع صوت حركة من الجهة المقابلة للباب، فاستدار بسرعة مشيرا إلى المرأتين مجددا أن تبقيا منخفضتين، غير أن الجميع بهت حين رأى الدخان يخرج من إحدى الزوايا، ثم سرعان ما ظهرت شعلة من النار، وأخذت تتسلق الجدران الخشبية المهترئة بجنون.

كان عليهم الخروج بسرعة، إلا أن الشيء الذي لم يكن أحد يشك به، هو أن سعدي كان ينتظر خروج أي منهم من الباب ليرديه قتيلا، كان موقفا صعبا حقا، وبدأت تراود حميد الأماني في ساعة يأس، هل ستأتي مساعدة دردور كما كانت تأتي دائما، عليه أن يفكر في حل مناسب ولا ينتظر أحدا،

ربما كان سعدي الآن يبتعد عن البيت ليختفي مرة أخرى، فكر في أن يخرج من السقف ولكنه كان جد عال، كما لم يكن بإمكانه تحطيم الجدران لأنها كانت قوية رغم اهترائها، لم يبق له منفذ غير الباب، اقترب منه في محاولة يائسة وأطل ببطء، لم ير أحدا، لوح بيده نحو المرأتين لتقتربا، ثم همس حينما صارتا على بعد خطوة منه: سأخرج أولا وإن لم يحدث شيء فاتبعاني. وفتح الباب وما إن خرج بجزء من ذراعه، حتى انطلقت رصاصة باتجاهه، لم يكن بوسعه التراجع فالنار المشتعلة تكاد تصل إلى المكان الذي كانوا فيه، عاد وخرج مجددا مطلقا النار باتجاه المكان الذي هوجم منه لتأمين طريق الخروج، ثم أسرع إلى زاوية في الفناء كان يحجبها عن سعدي عمود مقابل لباب الورشة، وكان أشد ما يخشاه أن يطلق سعدي رصاصات أخرى تخترق جدار الورشة وتصيب إحدى المرأتين، وقف خلف العمود ويده ممسكة بالمسدس، ثم انحنى نحو الأمام وأطلق رصاصات أخرى وعاد إلى موضعه، استدار نحو الورشة فهاله لهيب النار قد وصلت للسقف، وبدأ يسمع صياحا بالداخل، كان يدرك أن المرأتين ستخرجان على أي حال وإلا احترقتا، نظر خلفه فرأى نهاية منخفضة ويمكن تسلقها بسهولة، عاد أدراجه بسرعة وقفز بخفة ليصعد فوق الجدار ثم نزل من الجهة الثانية، نظر إلى الحقل الذي كان يحيط بالبيت، ثم سار بمحاذاة البيت حتى تجاوز المكان الذي افترض أن به سعدي، تسلق شجرة كانت بالقرب منه، ومن خلالها قفز نحو السور الذي كان مرتفعا من تلك الناحية، ودون أن يصدر صوتا، استطاع أن يرى جانبا من كتف سعدي وهو يلتفت إلى الجهة المقابلة، سدد سلاحه وأطلق رصاصتين أصابت ذراعه، قفز إلى الأرض بخفة

وتبع الرجل الذي اختفى داخل البيت، ولكن بدل أن يستمر في تعقبه، عاد بسرعة إلى الورشة.

كانت إحدى المرأتين قد فتحت باب الورشة، فخرج دخان كثيف حجب الرؤية في الفناء، حين اقترب أكثر رأى شبح شخص جاثيا على ركبتيه قرب الباب، كانت جازية، سحبها نحو زاوية قليلة الدخان، ثم وضع جزءا من سترته على أنفه واندفع مرة أخرى نحو باب الورشة، وفي الداخل غير بعيد عن الباب تعثر بجسم ممدد على الأرض، كان يشعر بالاختناق وبالكاد يمكنه التنفس، ولكن رغم ذلك أمسك بالمرأة وحملها بين ذراعيه. حين وصل إلى مكان بها بعض الهواء، وضع المرأة على الأرض وأخذ نفسا عميقا بعد أن جثا هو الآخر محاولا إنعاش رئتيه.

وسمع صوت طلقات للرصاص خارج البيت، ولكن بدت أن قوته قد عجزت حتى على حمله على الوقوف، وبعد لحظات قليلة اندفعت أقدام ثقيلة نحو الفناء، وشعر بيد قوية تسحبه إلى فراش بإحدى غرف البيت، لم يكن مغمى عليه، ولكنه كان في حاجة لبعض الراحة. نظر حوله فرأى رجلا قويا يقف قربه، ثم استدار نحو الباب فشاهد عدلان يدخل وعلى وجهه ابتسامة صغيرة، حاول حميد أن يستند على ذراعه، ثم تساءل: كيف حال جازية وفلة؟

جلس عدلان على كرسي منخفض قرب الفراش، وقال: "إنهما بخير". وهنا عاد حميد للتساؤل: هل أنت من أطلق النار في الخارج؟

رد عدلان بنبرة هادئة: يمكنك أن ترتاح أخيرا، فالرجل الذي سبب لك كل هذه المشاكل في عداد الأموات الآن.

تبسم حميد وقال: يسعدني سماع ذلك.

39

أقامت جازية حفلا صغيرا بمناسبة خروج خالتها من المستشفى، كانت رحمة قادرة على الكلام، ولكن كانت لا تزال تعاني من فقدان جزئي للذاكرة، دعت إلى الحفل بعض المدراء التنفيذيين في شركتها مع زوجاتهم، كما دعت عدلان مع حميد ووالدته التي تكبدت عناء القدوم من قسنطينة، واستمر الحفل إلى الليل، تم تقديم الطعام في قاعة الاستقبال على أنغام موسيقى هادئة، وساد بين المدعوين حديث عن الحياة هذه المرة دون ذكر الموت، وعم جو من السرور في ذلك البيت الذي سكنت أركانه الكآبة لفترة من الزمن، حين انتهى الحفل، ودّعت جازية كل واحد من الزائرين بالابتسامة نفسها التي لم تفارقها طوال مدة الحفل، والتي كانت تبدو خلاله في غاية الجمال، فقد ارتدت فستان سهرة حريري، وأضفت تسريحة الشعر على وجهها لمسة من الروعة، كانت قد أسرت بها قلوب كل الحاضرين، حتى أن حميد تمنى لو يطلب من أمه أن تخطبها له، فالمرأة قد أنهت مدة العدّة على وفاة زوجها، وهي لا تزال في ريعان الشباب، كان الحياء هو الشيء الوحيد الذي يمنعه من الكلام، وانتهت الحفلة وهو يكبت مشاعره، حتى غادرها وفي نفسه غصّة من الحزن والخيبة.

وفي صباح الغد أراد أن يزورها مرة أخرى، وذلك بعد أن علم أنها قد أخذت إجازة لبعض الوقت، كان مصمما هذه المرة على أن يفتح معها موضوع الزواج ويرى رأيها فيه، لم يشأ أن يذهب مبكرا، فانتظر حتى الساعة

العاشرة، وحين وصل، وجدها مشغولة بإعادة ترتيب البيت وغسل ما تراكم من أواني العشاء، ولأنها لم تكن قد استأجرت خادمة بعد، فقد عرض عليها المساعدة، ولكنها أبت بشدة واقترحت أن يجلسا قليلا في قاعة الاستقبال، قالت إنها بحاجة لبعض الراحة على أي حال، لأنها بدأت الأشغال مبكرا.
ولم يجد حميد منفذا مناسبا للموضوع، لهذا أخذ يكرر ما كان قد قاله عند قدومه: أعلم أننا ربما لن نلتقي مجددا بعد أن أغلقت القضية نهائيا، لهذا وددت أن أطمئن عليك مرة أخرى، وأرى إن كنت في حاجة لأية مساعدة.
تبسمت جازية وقالت: لا أظن أننا لن نلتقي أبدا، فستبقى أنت ووالدتك جزءا من العائلة، سأدعوكما في أية مناسبة أقيمها، كما أرجو أن تدعوني أنتم أيضا في حفل زواجك.
ازدادت دقات قلبه حين تطرقت لموضوع الزواج بهذه السرعة، ولكن لم يجد طريقة يستغل فيها ذلك ليخبرها بما كان يريده، ولهذا اكتفى بالقول: أكيد، ستكونين أول المدعوين.
ثم أضاف بسرعة خشية أن ينصرفا لحديث آخر: وماذا عنك؟ ماذا تنوين أن تفعلي؟
تبسمت جازية، وأجابت: سأهتم بالشركة، فهذا كل ما بقي لي من والدي، وربما سأشارك في بعض الحملات الخيرية، أو أسافر لأكتشف مزيدا من الأماكن في هذا العالم الواسع.
وماذا عن الزواج؟
قالها حميد وكأنه يلقي بنفسه في هاوية، ألا تفكرين في إعادة تأسيس أسرة وتربية أبناء؟!

اتكأت جازية وأمالت برأسها قليلا إلى الخلف، ثم مررت أناملها على شعرها المنسدل وأجابت: ربما سأفعل إن تقدم إليّ الشخص المناسب، ولكن ليس الآن، فذكرى زوجي الراحل لا تزال تراودني، كما أنه لم يمضِ وقت طويل على وفاته، فتأسيس أسرة يحتاج إلى شخص مستعد على جميع الأصعدة لتحمل مسؤوليات إضافية.

فكر حميد في أنه من الأفضل تأجيل الحديث عن ذلك الأمر لوقت آخر، فقال: صدقت، ربما الوقت غير مناسب كما قلت.

وقام مستأذنا بالانصراف: لا أريد أن أعطلك عن عملك، قد أقوم بزيارتك في وقت آخر.

قامت جازية وقالت معتذرة: ألا تبقى لتشرب شيئا؟ فقد نسيت كليا أن أضيّفك.

لا داعي لذلك، فكما قلت نحن أسرة وليس بيننا ما نتحرج به عن بعضنا البعض.

مهما يكن، فمن نعزهم أولى بالإكرام.

سر حميد قولها ذلك، فابتسم وقال: شكرا لك جازية، أنت أيضا ممن نكن لهم معزة خاصة.

كانت هذه الرسالة الوحيدة التي استطاع إيصالها، فاكتفى بذلك واقترب من الباب للخروج، وقبل أن يفتح رن الجرس فجأة. كان خلف الباب مجموعة من الرجال يرتدون بدلات رسمية، نظر حميد إليهم، ثم تنحى عن الطريق حتى يسمح لهم برؤية صاحبة البيت.

واقتربت جازية منهم وسألت: ماذا هناك؟

قال الرجل في المقدمة: أرجو أن تأتي معنا سيدتي.

أحست جازية ببعض القلق وأعادت السؤال: ماذا هناك؟

اقترب رجل آخر من الخلف وحين صار أمامها بدا أنه عدلان. كان يرتدي نفس بدلة الرجال، فازدادت حيرة جازية وعادت للتساؤل: ماذا هناك شيكر؟

أجاب عدلان بنبرة مختلفة عما تعودا عليه: لقد توفي السيد أحمد دردور صباح اليوم، وأوصى بأن تحضري أنت وحميد لجنازته.

شعرت جازية بالحزن، ولكن كانت هناك عاطفة أخرى أقوى من الحزن، كانت حائرة جدا ولهذا سألت: وما شأنك أنت بالسيد دردور؟

أجاب عدلان: طوال المدة التي عملت فيها لأجلك، كنت في حقيقة الأمر مبعوثا من قبله لخدمتك وحمايتك، ولهذا ليس عليك أن تدفعي أي دينار لقاء خدماتي.

كانت صدمة جازية مزدوجة، لهذا عادت تسأل عن العجوز: وكيف مات الرجل؟ هل تعرض لحادث؟

بل كان مريضا منذ مدة إلى أن وافاه الأجل، كان حريصا على أن يكون درعا يحميك منذ أن كنت طفلة حتى آخر يوم في حياته.

النهاية.